الحروب الصليبية

وأثرها فى الأدب العربى
فى مصر والشام

محمد سيد كيلانى

دار الفرجانى
القاهرة - طرابلس - لندن
١٩٨٤

الحُروبُ الصّليبية

وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام

تأليف

محمد سيد كيلانى

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

مقدمة

أثرت الحروب الصليبية فى الأدب العربى تأثيرا عنيفا ، ولا عجب فى ذلك ، فإن سوق الأدب تنفق إلى حد كبير فى أوقات المحن والشدائد ، وأزمان الحروب والثورات ، فيتخذ الأدبِ وسيلة للدعاية للقتال ، وسبيلا للتحريض على الجهاد والكفاح ، ويعرب الشعراء عما يجول فى خواطر أممهم من ألم وفرح وحزن وسرور . وقد عانى المسلمون فى مصر والشام فى ذلك العصر كثيراً من الخطوب ، وقاسوا ألوانا شتى من البلاء والكروب ، فانطلق الشعراء والأدباء يترجمون عن شعور المسلمين فى ذلك الوقت ويعبرون عما ينطوى بين جوانحهم .

وقد خلقت الحروب الصليبية كثيرا من الأبطال والعظماء فاتخذهم الأدباء والشعراء مواضيع لمدحهم والثناء عليهم والإشادة بمناقبهم والتغنى بفضائلهم .

وكان اتقاد العواطف الدينية فى صدور المسلمين فى ذلك العصر مما أثر فى الأدب العربى تأثيراً كبيرا .

☆ ☆ ☆

وقد سلكت فى هذا البحث منهجا أعتقد أنه قويم وأزعم أنه ييسر للقارىء الوقوف على مدى أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى فى مصر والشام ، ويحيط علما بما جرى فى ميادين الأدب المختلفة وأنواعه المتباينة .

فبدأت هذا الكتاب بفصل موجز عن الأدوار الرئيسية للحروب الصليبية فأدخلت القارىء فى جو هذه الحروب ، وذهبت به إلى ساحات الوغى وأطلعته على أهم ما دار بين المسلمين والصليبيين من معارك ووقائع حتى يكون على بينة مما جاء فى هذا الكتاب من أسماء الحصون والقلاع والمدن والثغور وما جرى فيها من قتال ونضال .

ثم أتبعت ذلك بدراسة موجزة عن الحالة الاجتماعية التى تولدت عن هذه الحروب والتى انعكس صداها فى الأدب العربى نثره وشعره .

ثم طفقت أبحث وأنقب عما تركته هذه الحروب من أثر فى النثر ، وانتقلت بالقارىء من ميدان إلى ميدان وأطلت الوقوف أمام كل موضوع فاحصا ومستكشفا ودراسا ومنقبا وأطنبت وأسهبت وأشبعت القول وأكثرت من ضرب الشواهد والأمثال حتى أوضح الفكرة فى ذهن القارىء وأدلل على صحة ما أقول بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إحالة القارىء على المصادر دون ضرب الشواهد والأمثال لا تجدى نفعا ، ذلك لأن من هذه المصادر ما هو مخطوط والرجوع إليه ليس بالأمر اليسير على من يقيمون بالقاهرة فكيف بمن يقيمون فى أقصى الشمال والجنوب أو فى خارج القطر ممن يقع هذا الكتاب فى أيديهم ؟ والمطبوع منها نادر الوجود .

ولما فرغت من تتبع آثار تلك الحروب فى ميادين النثر ، عرفت القارىء بخمسة من مشاهير كتاب ذلك العصر ، وقدمت له شيئا مما أنشأته أقلامهم ودبجته يراعاتهم وأنتجته قرائحهم .

ثم انتقلت إلى ميدان الشعر وبصرت القارىء بما جد فيه من الأغراض ، وما خلعته الحروب الصليبية عليه من ألوان . ووضعت بين

يديه كثيرا من القصائد التى تنير أمامه السبيل فى مختلف الأغراض المتصلة بهذه الحروب والتى طبعها هذا الصراع العنيف بطابع خاص .

وختمت هذا الكتاب بتراجم موجزة لتسعة من مشاهير الشعراء الذين خلقتهم الحروب الصليبية وأوحت إليهم بما سجل أسماءهم فى صحف الخالدين .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإن دراسة أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى من الدراسات الطريفة التى لم يتناولها قلم كاتب من الكتاب . وقد كنت فكرت فى تناول هذا الموضوع بالدرس والبحث ، وذلك بعد فراغى من إخراج كتابى عن « أثر التشيع فى الأدب العربى » . فأرجو أن ينتفع به القراء والله الموفق للصواب .

محمد سيد كيلانى

القاهرة فى أول يونيو ١٩٨٤

الباب الأول

الحــروب الصليبية

٤٩٠ - ٦٩٠ هـ

الفصل الأول

١

جهل القدماء بأسباب الحروب الصليبية :

لم يتعرض مؤرخو المسلمين القدماء لأسباب هذه الحروب ، عدا ابن الأثير فانه تعرض لذكر الدوافع المباشرة لغزو الفرنجة للشرق فخلط بين هذه الحملات وبين حرب الأسبان للعرب وربط هذه بتلك وأورد فى هذا المقام كلاما مضحكا . وإلى القارىء ما قاله ابن الأثير فى هذا الصدد :

كان [1] ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس وقد تقدم ذكر ذلك . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها وقد ذكرته أيضا .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٠ / ١٠١ .

وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه . فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام ، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعا كثيرا من الفرنج ، وكان نسيب رجار الفرنجى الذى ملك صقلية ، فأرسل إلى رجار يقول له قد جمعت جمعا كثيرا وأنا واصل إليك ، وسائر من عندك إلى أفريقية أفتحها وأكون مجاورا لك . فجمع رجار أصحابه واستشارهم فى ذلك وقالوا (وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانية) . فرفع رجله وحبق[1] حبقة عظيمة وقال : (وحق دينى هذه خير من كلامكم) قالوا : (وكيف ذلك ؟) قال :(إذا وصلوا أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندى أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة ؛ وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ، ويقول تميم غدرت بى ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ، وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها) وأحضر رسوله وقال له : (إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر ، وأما إفريقية فبينى وبين أهلها أيمان وعهود فتجهزوا واخرجوا إلى الشام) .

وقد بحثت فى كتب كثيرة فلم أجد أحدا ذكر هذا السبب الذى ساقه لنا ابن الأثير . فلعل هذا المؤرخ الكبير انفرد بسماع تلك الحبقة العظيمة دون سواه !

---

(١) ضرط .

ولم يكتف ابن الأثير بهذا السبب الوجيه بل راح يذكر لنا داعيا آخر للغزو الصليبى للشام ، وهو أن العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها من الشام واستيلاءها عليه ، خشوا أن يسير السلجوقيون إلى مصر فيملكوها فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى غزو الشام ليكونوا حاجزا بينهم وبين الدولة السلجوقية !

☆ ☆ ☆

ولم يرد فى كتب القدماء كلمة « صليبية » أو « صليبيين » إلا فى رحلة ابن جبير ، فإنه ذكر كلمة « صليبية » ذكراً عابرا . روى أنه لما أراد الرجوع إلى بلاد الأندلس ركب فى مركب للإفرنج كانت ذاهبة إلى أوربا فى رحلة الخريف يدعونها « صليبية » . وكان ابن قيم الجوزية يطلق على النصارى اسم « الأمة[1] الصليبية » ، وعلى اليهود اسم « الأمة الغضبية » .

☆ ☆ ☆

وقد حرف القدماء فى ذكر أسماء قواد الافرنج وملوكهم تحريفا كبيرا . فما أبعد الفرق بين « بالدون Baldwin » وبين « بردويل » ، أو بين « ابن الدقيق » وبين « Benedeit » أو بين « كليام دبور » وبين « Guillaume de bures » أو بين « دى بورغ » وبين « بغدوين » .

---

(١) انظر ص ٣٨٤ من كتاب إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان (المطبعة الميمنية بمصر) .

٢

الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية :

الواقع أن الحروب الصليبية كان سببها الرئيسى تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين . فقد كان زوار قبر المسيح يلاقون كثيرا من أنواع الذل والإهانة ويقابلون صعوبات جمة ومتاعب عظيمة وربما هلك منهم عدد غير قليل ، والسعيد منهم من رجع إلى بلاده سالما . ولا عجب فى ذلك فقد كانت الأحوال فى بلاد الشام فى أقصى درجات الفوضى ، وتقسم البلاد الشامية عدة أمراء ، كل منهم فى حروب دائمة مع من يجاوره .

أطمعت هذه الحال الدولة الرومانية الشرقية فأغارت على الشام مرات عدة خلال القرن الخامس وكانت فى كل غارة تمعن فى النهب والسلب والقتل والأسر والتخريب والتدمير . إلا أن هذه الدولة ما لبثت أن أوقفت عند حدها بقيام الدولة السلجوقية ، تلك الدولة الفتية التى كسرت شوكة أباطرة القسطنطينية وأذلتهم ، وشرعت تقترب شيئا فشيئا من عاصمة ملكهم حتى هابوها وبعثوا إلى دول الغرب طالبين النجدة على المسلمين .

وكانت أنباء اضطهاد زوار بيت المقدس تصل تباعا إلى أوربا مع الحجاج العائدين من الشرق .

وحدث أن قدم إلى فلسطين رجل فرنسى يدعى « بطرس السائح » وكان منقطعا للعبادة فى إحدى المغارات وتركها وجاء إلى الشرق لزيارة قبر المسيح ، فهاله مارآه من مظاهر العسف والجور الذى يتعرض له كل من زار بيت المقدس .

فغادر فلسطين قاصدا « روما » وهناك قابل البابا « أوربانس » الثانى وقص عليه ما رآه فى الشرق ، والتمس منه العمل على تخليص أرض المسيح من أيدى المسلمين . وطفق بطرس يتجول فى أوربا راكبا بغلا قابضا بيديه على الصليب مناديا بحرب الصليب فى الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة شارحا ما يقاسيه مسيحيو الشرق من ألوان العذاب تحت حكم المسلمين .

وعقد مؤتمر عظيم فى فرنسا خطب فيه البابا قائلا :

« أيها المسيحيون [١] : إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا ، وذاك الجبل الذى عليه تألم ومات من أجلنا ، وذلك الضريح الذى تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت ، كلها أضحت ميراثا لشعب غريب ، وغاب كل بهائها الأصلى ، وهياكلها قد خربت ، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك ، وهى تستحق الندب الشديد والبكاء . ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية ، وجهات آسيا الأكثر ثروة وغناء قد أضحت فى فقر مهين . وأنطاكية وافسس ونيقية قد صارت مدن الإسماعيليين ، والأتراك قد مدوا ولايتهم إلى حدود هاليبوتوس ، لا ، بل

---

(١) ص ١١ تاريخ الحروب المقدسة تعريف مكسيموس مظلوم . (طبع دير الفرنشسكان) .

إلى أبواب القسطنطينية . ومن هناك ذراع هذه الشعوب القوى يهدد بالاستيلاء على كل ممالك الغرب » .

بمثل هذا الروح استطاع « أوربانس » الثانى أن يسوق أوربا شبانها وكهولها رجالها ونساءها لمحاربة المسلمين فى الشرق . ولم يكتف البابا بما قال بل زاد على ما تقدم قائلا : « لقد آن الزمان الذى فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر لأخذ الثأر عن بعض أهانات ، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هى لأخذ الثأر عن إهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله . وليست هى لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هى أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى ، فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا ... الخ » . إلى أن قال : « فإذا انتصرتم على أعدائكم ، فالملك الشرقى يكون لكم قسما وميراثا . وأما إذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون فى المكان الذى فيه مات يسوع المسيح » .

ثم أخرج علامة الفدا المقدسة « صليب الخلاص » وقال احملوه على عواتقكم ، أو على صدوركم ، وليشرف فوق أسلحتكم وفى رءوس سناجقكم . وعلق السامعون صلبانا حمرا على صدورهم ، واتخذوا لأنفسهم اسم « صليبيين » كما أنهم لقبوا الحرب التى شرعوا فيها « حرب الصليب المقدس » .

اتحدت أوربا وسارت بقلوب مفعمة بالتعصب والكراهية ، مملوءة بالطمع فى الشرق الذى يفيض عسلا ولبنا . أما الشرق فكان فى سبات

عميق عما أعد له فى الغرب ، وكان فى كل ولاية أمير يحقد على من جاوره ويشن عليه حربا عوانا .

٣

الأدوار الرئيسية للحروب الصليبية :

(ا) الحروب الصليبية الأولى :

وصل جيش صليبى إلى مدينة قونية وكانت تحت حكم قليج أرسلان فاستطاع هذا أن يقضى على الغزاة قضاء تاما .

وما أن علمت أوربا بهذا النبأ حتى سيرت ثلاثة جيوش قوية .

سار الجيش الأول تحت قيادة « غودافرى » يصحبه عدد جم من قواد فرنسا والنمسا متجها إلى القسطنطينية عن طريق شمال ألمانيا .

وسار الجيش الثانى إلى جنوب إيطاليا للسفر بحرا إلى الشرق ، وكان مروره بإيطاليا حافزا للإيطاليين على السفر مع هذا الجيش . وكان فى مقدمة المسافرين بوهيمند أمير تارانت ومعه جنود إيطاليون من كلابريا وسيسيليا .

وخرج الجيش الثالث من جنوب فرنسا تحت قيادة « رايموند » كونت دى سلت ودى طولوز وأخذ طريقه إلى شمال إيطاليا فشمال اليونان فالقسطنطينية .

استطاع الصليبيون أن يستولوا على مدينة قونية فى عام ٤٩٠ هـ بعد

أن أبلى المسلمون فى الدفاع عنها بلاء حسنا . ثم اتجه قسم من الصليبيين إلى شطوط الفرات واستولى على إمارة « الرها » وهى إمارة مسيحية يحكمها أمير يونانى يدفع جزية سنوية للمسلمين . وأما الباقون فإنهم ساروا مخترقين سورية مستولين على كثير من المدن صلحا . فوصلوا إلى أنطاكية عام ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وأفلحوا فى دخولها بعد أن تكلفوا جهدا كبيرا .

ثم شعر المسلمون بالخطر الذى دهمهم فأسرعوا من جهات كثيرة وحاصروا الصليبيين فى أنطاكية وكادوا يقضون عليهم ، ولكنهم لم يوفقوا إلى ذلك وهزموا هزيمة شنيعة إذ أخذهم الأعداء على غرة وهم غافلون .

ولما تم النصر للأوربيين ساروا قاصدين بيت المقدس مارين بقيسارية وحماة وحمص وغيرها . وكان أهالى هذه البلاد يقابلونهم بالترحاب تلافيا لشرهم . وهكذا وصلوا مسرعين إلى مدينة « أركاس » الواقعة بالقرب من جبال لبنان ، فرفض أهلها التسليم فحاصرها قسم من الغزاة تحت قيادة « رايموند » و« تنكريد » و« دوق دى نورمنديا » و« كونت دى طولوز » وتقدم قسم آخر من المهاجمين إلى اللاذقية . وانحدر قسم ثالث إلى مدينة جبلة الواقعة على البحر بالقرب من اللاذقية . وتقدم قسم رابع وحاصر مدينة طرطوس .

وأخيرا تقابلت جموع الصليبيين وساروا إلى فلسطين مارين بعكا وحاصروا بيت المقدس واستولوا عليه بعد حصار دام أربعين يوما . ثم شرع الغزاة يفتكون بالمسلمين فتكا ذريعا وصاروا يقتلون الرجال والنساء والكبار والصغار والبنين والبنات ، وقتلوا داخل المسجد الأقصى

مايربو على سبعين ألفا من المجاورين فيهم العلماء والزهاد والعباد حتى أضحت الجثث ملقاة فى الأزقة والأسواق ونهبوا من المسجد عددا عظيما من القناديل الفضية . وانتخب « جودافرى » ملكا على بيت المقدس .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى مصر اضطرب أهلها وتمثل لهم الخطر الأوربى مخيفا مرعبا ، فسار جيش مصرى بقيادة الأفضل شمالا متجها إلى فلسطين فقابله الصليبيون عند عسقلان وهزموه شر هزيمة .

بهذا بسط الأوربيون سلطانهم على سواحل بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب .

وفكروا بعد ذلك فى غزو مصر فخرج من فلسطين جيش كثيف بقيادة « بولدوين » وهو عند العرب « بردويل » وسار حتى أدرك الفرما واستولى عليها وذبح أهلها وأحرق جوامعها . ولم يمنع الصليبيين من السير إلى القاهرة غير موت ملكهم « بولدوين » وخلفه فى حكم بيت المقدس « بولدوين دى بورغ » وهو عند العرب « بغدوين » .

وفى سنة ٥١٣ هـ سار الغزاة إلى حلب فنازلوها وخربوها ثم دخلوها ثم اتجهوا نحو طبرية ينهبون ويقتلون ويعيثون فى الأرض فسادا .

☆ ☆ ☆

بقى الصليبيون مصدر رعب وخوف للمسلمين حتى عام ٥٢١ هـ ففى هذا العام تولى أمور الموصل البطل الشهير عماد الدين زنكى . ومن ذلك التاريخ بدأ الصراع الشديد بين المسلمين والإفرنج وبدأ الغزاة يذوقون طعم الهزائم يتلو بعضها بعضا . لقد جاهد عماد الدين زنكى جهادا رائعا ولولاه لعنت جباه الشاميين لسلطان حملة الصليب .

ففى سنة ٥٢٤ هـ . هزم عماد الدين زنكى الصليبيين هزيمة منكرة واستولى على حصن « الأثارب » بالقرب من حلب . وفى سنة ٥٢٧ هـ استولى المسلمون على « بانياس » وهزموا أعداءهم هزيمة مرة . وفى سنة ٥٣٠ هـ هزم المسلمون الإفرنج عند اللاذقية واستولوا على وادى ابن الأحمر وقلعة « بعرين » .

وفى سنة ٥٣١ هـ خرج « يوحنا » أمبراطور الروم بجيش لنجدة الإفرنج فوصل إلى بزاعة عام ٥٣٢ هـ وهى مدينة لطيفة على مقربة من حلب وامتلكها بالأمان ثم غدر بأهلها فقتل وأسر وسبى . وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها يبلغ عددهم نحو أربعمائة . وأقام أمبراطور الروم عشرة أيام يطلب من اختفى وانضم إليه الصليبيون وجد كل منهما فى حرب المسلمين ، ولكن عماد الدين زنكى لم يلبث أن طلع عليهم وأوقع بهم هزيمة تامة . وقد كان لانتصار المسلمين فى هذا المقام رنة فرح ، فأخذ الشعراء يتغنون بفضل أتابك زنكى وينظمون فى ذلك القصائد الرائعة . ومن هؤلاء الشعراء ابن قسيم الحموى حيث يقول :

بعـزمـك أيهـا الملـك العظيم	تـذل لـك الصعـاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لمـا	تبين أنـك الملـك الرحيم
فجـاء يطبـق الفلـوات خيـلا	كـأن الجحفـل الليـل البهيم
وقـد ترك الـزمـان على رضـاه	فكـان لخطبـه الخطب الجسيم
فحين رميتـه بـك فى خميس	تيقن أن ذلـك لا يـدوم
وأبصر فى المفاضـة منـك جيشا	فـأحـزن لا يسير ولا يقيم
كـأنـك فى العجـاج شهـاب نـور	تـوقـد وهـو شيطـان رجيم
أراد بقـاء مهجتـه فـولى	وليس سـوى الحمـام لـه حميم
يـؤمـل أن تجـود بهـا عليـه	وأنت بهـا وبـالـدنيـا كريم

أيلتمس الفرنـج لـديـك عفـوا   وأنت بقطـــع دابرهـــــا زعيم
وكم جرعتهـا غصص المنـــايـــا   بيـــوم فيـــه يكتهـــل الفطيم
ولمـــــا أن طلبتهم تمنى الـ   ـمنيـــــة جـــوسلينهم [1] اللئيم

وفى سنة ٥٤٢ هـ هزم المسلمون الصليبيين فى عدة مواقع واستولوا على عدد من الحصون والقلاع . فاجتمع الإفرنج وقرروا طلب النجدة من أوربا وأرسلوا وفدا قابل البابا أو جانيوس الثالث وأعلمه بحقيقة الحال فى الشرق ، فشرع هذا يكتب الرسائل إلى ملوك أوربا محرضا إياهم على جهاد المسلمين ، وقد خص بالتحريض لويس السابع ملك فرنسا .

(ب) الحروب الصليبية الثانية :

فى عام ١١٤٧ م قام جيشان أحدهما فرنسى بقيادة لويس السابع والآخر ألمانى بقيادة كونراد الثالث ملك ألمانيا ، وقد صحبه ابن روجار صاحب صقلية .

كان جيش كونراد قد سبق الجيش الفرنسى فى المسير فقابله المسلمون عند حدود الشام وقضوا عليه ، وفر كونراد إلى القسطنطينية .

ولم يكن حظ الجيش الفرنسى بأحسن من حظ الجيش الألمانى فهزم وفر لويس السابع إلى انطاكية ومنها سار إلى القدس وبعد قليل وصل إليه ملك ألمانيا كونراد الثالث .

---

(١) جوسلين أمير مقاطعة الرها وهو من الصليبيين وقد استولى عماد الدين زنكى على هذه المقاطعة ففرح المسلمون بهذا النصر العظيم وهنأه الشعراء .

وفى عام ٥٤٣ هـ سار الصليبيون إلى دمشق للاستيلاء عليها ولكنهم ارتدوا عنها مهزومين . وبعد قليل استولى المسلمون على حصن العريمة وكان فى يد روجار المتقدم ذكره .

وفى هذا العام هزم نور الدين الإفرنج بمكان اسمه يغرى بأرض الشام وكانوا متجهين بقصد الإغارة على حلب . وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى :

وكيف لا نثنى على عيشنــا الـ ـمحمـود والسلطــان محمـود
فليشكر النـــاس ظــلال المنى إن رواق العـــدل ممـــدود
ونيرات الملـــك وهـــاجــة وطـــالــع الـــدولـــة مسعـود
وصـــارم الإســلام لاينثنى إلا وشلـــو الكفر مقـــدود
منــاقب لم تــك مـوجـودة إلا ونـور الـــدين مـوجـود
مظفر فى درعـــــه ضيغم عليــه تــاج الملــك معقـود
نـال المعـالى مـالكـا حـاكمـا فهــو سليمـــان وداود
ترتشف الأفــواه أسيـــافــه إن رضـــاب العـــز مـورود
وكم لــه من وقعـــة يـومهـــا عنـــد ملـوك الشرك مشهـود
والقـوم إمــا مرهـق صرعـــة أو مـوثـق بـــالقـــد مشـدود
حتى إذا عـــادوا إلى مثلهـــا قـــالت لهم هيبتـــه عـودوا
طـــال بشـــأر ضمنتـــه الظبى فكـــل مـــا يضمن مردود
والكر والفرسجـــال الـــوغى فطـــارد طـــورا ومطرود
وإنمـــا الإفرنـج من بغيهـــا عــادوا وقــد عــاد لهـا هـود
قـد حصحص الحق فمـا جـاحـد فى قلبـه بــأســك مجحـود
فكــل مصربـــك مستفتــح وكـــل ثغر بـــك مســدود

وفى سنة ٥٤٤ هـ سار نور الدين إلى حصن حارم وهو للإفرنج فخربه ونهب سواده ، ثم سار إلى حصن آنب وقاتل الصليبيين قتالا شديدا وهزمهم وقتل منهم خلقا كثيرا منهم رايموند صاحب أنطاكية . قال صاحب كتاب الروضتين [1] : « ووقعة آنب هذه كانت عظيمة وقد أكثر الشعراء القول فيها » . وفى هذا الانتصار يقول ابن القيسرانى :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب ... وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت ... تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا بن عماد الدين ذروتها ... براحة للمساعى دونها تعب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة ... حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى وهمك ما ... أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة ... وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة ... فؤاد رومية الكبرى لما يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة ... أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت مسامعها ... قولا لصم القنا فى ذكره أرب
ما يوم آنب والأيام دائلة ... من يوم يغرا بعيد لا ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم ... كم أسلم الجهل ظنا غره الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى ... وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم ... طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه ... فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها ... قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد ... كما استقل دخان تحته لهب

---

(١) جـ ١ / ٥٦ عبارة الروضتين « وقد كثر ذلك الشعراء لها » .

والسيف هام على هام بمعركة لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له سوى القسى وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته كأنما الضرب فيما بينهم ضرب [1]
وللأسنة عما في صدورهم مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم فاستسلموا وهى لا نبع ولا غرب [2]
كذاك من لم يوق الله مهجته لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى [3] حتوفهم يارب حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم فى ثياب من دمائهم مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الترك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ماسمت والليل معتكر إلاتمزق عن شمس الضحى الحجب
افعاله كاسمه فى كل حادثة ووجهه نائب عن وصفه اللقب
فى كل يوم لفكرى من وقائعه شغل فكل مديحى فيه مقتضب
من باتت الأسد أسرى فى سلاسله هل يأسر الغلب إلا من له الغلب
فملكوا سلب الإبرنس قاتله وهل له غير أنطاكية سلب
من للشقى بما لاقت فوارسه وأن يسايرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة برأسه إن إثمار القنا عجب
سما عليها سمو الماء أرهقه أنبوبة فى صعود أصلها صبب
ما فارقت عذبات التاج مفرقه إلا وهى منه لا تاج ولا عذب

---

(١) عسل النحل .

(٢)النبع والغرب نوعان من الشجر .

(٣) أسرع .

إذا القنـاة ابتغت فى رأسـه نفقـا   بـدا لثعلبهـا من نحـوه سرب
كنـا نعـد حمى أطرافنـا ظفرا   فملكتـك الظبى مـا ليس نحتسب
عمت فتوحـك بـالعدوى معـاقلها   كـأن تسليم هـذا عنـد ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق   كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب   يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وأذن لموجك فى تطهير ساحله   فـإنمـا أنت بحر لجـه لجب
يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة   من الظبى عن ثغور زانها الشنب
مازلت تلحق عاصيها بطائعها   حتى أقمت وأنطـاكيـة حلب
حللت من عقلها أيدى معـاقلها   فاستجفلت وإلى ميثاقك الهرب
وأيقنت أنهـا تتلـو مراكـزهـا   وكيف يثبت لا جوق [1] ولا طنب
أجريت من ثغر الأعنـاق أنفسهـا   جرى الجفون امتراها بارح حصب
ومـا ركـزت القنـا إلا ومنـك على   جسر الحـديـد هزبر غيلـه أشب
فأسعد بما نلته من كل صالحة   يأوى إلى جنة المأوى لها حسب
إن لا يكن أحد الأبدال فى فلك الـ   ـتقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب أفلاك السماء بها   لكـان بينكمـا من عفـة نسب
هذا وهل كان فى الإسلام مكرمة   إلا شهـدت وعبـاد الهوى غيب

☆ ☆ ☆

وفى عام ٥٤٥ هـ دارت معارك بين الصليبيين بقيادة جوسلين وبين المسلمين بقيادة نور الدين شمال حلب فانهزم المسلمون هزيمة تامة ولكن نور الدين استطاع أن يأسر جوسلين بحيلة . وقد فرح المسلمون بأسره فرحا عظيما لأنه سبب لهم متاعب كثيرة ، وكان صعب المراس

---

(١) الجوق : الجماعة من الناس .

كثير الغدر والخيانة ، شديد الوطأة على المسلمين . وقد تغنى الشعراء بأسر جوسلين كثيرا ونظموا فى ذلك القصائد الطوال . وبعد ذلك استطاع المسلمون أن يضعوا أيديهم على عدة حصون .

وفى عام ٥٤٨ هـ استطاع الصليبيون بقيادة بولدوين الثالث ملك بيت المقدس أن يستولوا على عسقلان . وساعدهم على ذلك أن عسقلان كانت تحت حكم المصريين . وكانت الأحوال فى مصر على أشد ما تكون من الاضطراب والفوضى ، لذلك طمع الصليبيون فى عسقلان . فساروا إليها برا وبحرا وحاصروها مدة خمسة أشهر ثم أخذوها صلحا .

وفى عام ٥٥١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم وهى من أمنع قلاع الصليبيين واستولى عليها ، وفى عام ٥٥٢ هـ دارت معارك حامية بين المسلمين وأعدائهم كان النصر فيها حليف المسلمين .

وفى سنة ٥٥٣ هـ أرسل الملك الصالح طلائع بن رزيك إلى فلسطين حملة عسكرية فى البر وأخرى فى البحر ، فخرج إليهم الإفرنج بقيادة أمورى صاحب عسقلان ، وقد استطاع المصريون أن يوقعوا بالإفرنج عند غزة هزيمة ماحقة وأن يأسروا من الغنائم والجنود وأدوات القتال ما لا يحصى . ورجع الجيش المصرى ظافرا منصورا ، وقد تغنى ابن رزيك بهذا النصر فى شعر كثير بعث به إلى أسامة بن منقذ الذى كان ملازما لنور الدين بالشام وكان ابن رزيك يرجو من أسامة أن يحرض نور الدين على قتال الإفرنج حتى يبعد خطرهم عن مصر . ومما نظمه ابن رزيك فى هذا الصدد قوله :

ألا هكـــذا فى الله تمضى العـزائم ... وتنضى لـدى الحرب السيـوف الصـوارم
وتستنـزل الأعـداء من طـول عـزهم ... وليس سـوى سمر الرمــاح سـلالم

وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها ويوطا حماها والأنوف رواغم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهم وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش فى صفر فما انـ ـثنى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور فى قعر وكره ويسرى إلى الأعداء والليل نائم
يبارى خيولا ما تزل كأنها إذا ما هى انقضت نسور قشاعم
يسير بها ضرغام فى كل مارق وما يصحب الضرغام إلا الضراغم
ورفقته عين الزمان وحاتم ويحيى وإن لاقى المنية حاتم
وواجههم جمع الفرنج بحملة يهون على الشجعان فيها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنة وانطووا عليهم فلم يرجع من الكفر ناجم
وما زالت الحرب العوان أشدها إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
يشبههم من لاخ جمعهم له بلجة بحر موجها متلاطم
عادوا إلى حز السيوف وقطعت رءوس وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
تقتلهم بالرأى طورا وتارة يدوسهم منا المذاكى الصلادم
فقولوا لنور الدين لا فل حده ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فتورا إن مضت منك حارم
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا يعض عليها للملوك الأباهم
فعندك من ألطاف ربك ما به علمنا يقينا أنه بك راحم
أعادك حيا بعد أن زعم الورى بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها وحلت بها تلك الدواهى العظائم
وخيم جيش الكفر فى أرض شيزر فسيقت سبايا واستحلت محارم
وقد كان تاريخ الشآم وهلكه ومن يحتويه أنه لك عادم

فقم واشكر الله الكريم بنهضـــــة إليهم فشكر الله للخلــــــق لازم
فنحن على مـا قـد عهـدت نروعهم ونحلف جهــدا أننـــا لا نســـالم
وغـــــاراتنـــــا ليست تفتر عنهم وليس ينجى القــوم منـــا الهـزائم
فأسطولنـا أضعـاف مـا كـان سـائرا إليهم فــلا حصن لهم منــه عــاصم
ونرجـو بــأن يجتــاح بــاقيهم بــه وتحــوى الأســارى منهم والمغــانم

☆ ☆ ☆

وفى سنة ٥٥٨ هـ حدث نزاع فى مصر بين شاور وضرغام على منصب الوزارة ففر شاور إلى الشام واستنجد بنور الدين وبذل له وعودا مغرية فأمده بحملة بقيادة أسد الدين شيركوه . وفى تلك الأثناء وصل أمورى ملك القدس إلى البلاد المصرية لأخذ مال الهدنة المقرر على مصر دفعه للأفرنج يوم أن استولى الصليبيون على عسقلان ، ووصل أمورى إلى بلبيس فسار إليه جيش مصرى بقيادة أخـى ضرغام فهزم المصريون ، ولكن الأفرنج عادوا إلى فلسطين وبعثوا رسلهم إلى ضرغام طالبين المال المقرر لهم . ثم حدث أن وصل شيركوه بجيشه واستطاع أن يهزم ضرغاما وأن يعيد شارو إلى الوزارة .

ولما استتب الأمر لشاور قلب ظهر المجن لنور الدين وطلب من أسد الدين شيركوه أن يغادر البلاد فرفض أسد الدين هذا الطلب ، فاستنجد شاور بأمورى ملك بيت المقدس . فلما سار الإفرنج إلى مصر غادرها أسد الدين واتجه إلى بلبيس وتحصن فيها . وانتهز نور الدين الفرصة بالشام وأغار على حصن حارم وملكه وسار إلى بانياس فخشى الإفرنج على ممتلكاتهم التى فى الشام ورجعوا من حيث أتوا بعد أن عقدوا صلحا مع أسد الدين يقضى بأن يغادر الطرفان مصر ويتركاها للمصريين .

إلا أن أسد الدين شيركوه كان يرغب فى فتح مصر . فعاد إليها سنة ٥٦٢ هـ . وسمع الصليبيون ذلك فساروا حتى وصلوا إلى بلبيس فخشى شاور من قدوم الجيشين وأخيرا قر رأيه على تسليم القاهرة للصليبيين وحملهم على قتال أسد الدين ، ولكن هذا استطاع أن يهزم كلا من الصليبيين والمصريين . فطلب الإفرنج الصلح على أن تترك مصر للمصريين وأن يجلو الطرفان المتحاربان عنها . ولكن الصليبيين اتفقوا مع شاور على أن يتركوا بالقاهرة جماعة من فرسانهم وأعيانهم .

☆ ☆ ☆

وهكذا أصبحت مصر مطمح أنظار كل من الصليبيين ونور الدين وشرع كل منهما يعد العدة للظفر بها . وفى ذلك يقول عمارة اليمنى :

يـارب إنى أرى مصرا قـد انتبهت   لهـا عيـون الأعـادى بعـد رقـدتهـا
فـاجعـل بهـا ملـة الإسـلام بـاقيـة   واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنـا منـك عونـا نستجير بـه   من فتنـة يتلظى جمر وقـدتهـا

☆ ☆ ☆

وكان بعض الأمراء المصريين ممن يحقدون على شاور أرسلوا إلى أمورى ملك بيت المقدس يطلبون قدومه إلى مصر والاستيلاء عليها . وقد طمع الصليبيون فيها نظرا لما كانت عليه البلاد من الفوضى والاضطراب ، فساروا قاصدين مصر فوصلوا بلبيس فى عام ٥٦٤ هـ وكان مع الإفرنج قوم من المصريين الذين كاتبوهم وحرضوهم على المجىء إلى مصر . واستطاع الصليبيون أن يدخلوا بلبيس فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وأسروا عددا عظيما ، وبقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين عاما فى قبضة الإفرنج .

ثم اتجه الصليبيون إلى القاهرة فندم شاور على ما فعل وأشار على الخليفة العاضد بطلب النجدة من نور الدين . فجاء جيش بقيادة أسد الدين شيركوه فرجع الإفرنج إلى فلسطين ولم يلبث شاور أن قتل . وهكذا خلصت مصر لنور الدين ثم لصلاح الدين وأبنائه فيما بعد .

تسلم صلاح الدين مقاليد الوزارة بعد وفاة أسد الدين شيركوه عام ٥٦٤ هـ وفى سنة ٥٦٦ هـ خرج إلى فلسطين لقتال الإفرنج فاستولى على غزة ، وقد استبشر المسلمون بهذا النصر .

☆ ☆ ☆

ولما ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية اجتمع نفر من أنصار الفاطميين وأرسلوا إلى الصليبيين فى الشام والى صاحب صقلية طالبين منهم تجريد حملة على مصر لإرجاع الخلافة الفاطمية إليها وطرد صلاح الدين منها . وبناء على هذا قدم إلى ثغر الإسكندرية أسطول عظيم من جزيرة صقلية قوامه ثلاثمائة سفينة ولكنه لم يقو على الاستيلاء على المدينة وذلك لبلاء أهلها فى الدفاع عنها فغادر الإسكندرية فى عام ٥٧٠هـ .

وفى عام ٥٧٣ هـ سار السلطان صلاح الدين بجيشه إلى فلسطين لقتال الصليبيين . ومن هذا التاريخ والمسلمون يحرزون الانتصارات الباهرة . وكان أعظم هذه الانتصارات وقعة حطين عام ٥٨٣ هـ التى قتل فيها جم غفير من الصليبيين وأسر منهم ما لا يحصى . وكان من جملة الأسرى ملك بيت المقدس . واستولى المسلمون على صليب الصلبوت . ثم استولوا بعد ذلك على عكا وطبرية وبيروت وعسقلان وغيرها من

المدن والحصون ، وأخيرا دخلوا بيت المقدس وكان ذلك عام ٥٨٣ هـ . وقد أحدث دخول المسلمين بيت المقدس رنة فرح تردد صداها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فذهب الشعراء من كل صوب وأخذوا يتبارون فى نظم آيات المدح لهذا البطل العظيم الذى طهر المسجد الأقصى من دنس الكفر والطغيان . وطفق الخطباء يخطبون : يبشرون ويحرضون ، والوعاظ يعظون ، والكتاب يحررون رسائل البشرى ويبعثون بها إلى سائر بلاد المسلمين ، والمؤرخون يقيدون الحوادث ويسجلون الوقائع . وقد هنأ العماد الأصفهاني صلاح الدين بانتصاره فى حطين واستيلائه على القدس وغيرها بقصيدة جاء فيها :

جنودك أملاك السماء وظنهم	عداتك جن الأرض فى الفتك لا الإنسا
فلا يستحق القدس غيرك فى الورى	فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم	فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها	وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه	فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة	بأن أذان القدس قد أبطل النقسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت	ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا
وكم لبنى أيوب عبد كعنتر	فان ذكروا بلهاس لا يذكروا عبسا
وقد طاب ريانا على طبرية	فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى
وعكا وما عكا وما كان فتحها	لإجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها	بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف وتبنى وغزة	تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفى عسقلان الكفر ذل بملككم	فمنظره بل أمره اربد واربسا [1]

---

(١) الأصل ارجسا والصواب اربسا بمعنى ضعف .

وصـــار بصــور عصبــة يرقبــونكم فـلا تبطئـوا عنهـا وحسـوهم حســا
توكل على الله الـذى لـك أصبحت كــلاءتــه درعــا وعصمتـــه ترســـا

وقال يذكر موقعة حطين :

يـايـوم حطين والأبطـال عــابســة وبالعجاجة وجـه الشمس قـد عبسـا
رأيت فيهـــا عظيم الكفر محتقرا معفرا خـــده والأنف قـــد تعســـا
يـــاطهرسيف بري رأس البرنس فقـــد أصاب أعظم من بالشرك قـد نجسـا
وغاص إذ طار ذاك الرأس فى دمـه كأنـه ضفـدع فى المـاء قـد غطسـا
مـا زال يعطس مـزكـومـا بغـدرتـه والقتـل تشميت من بـالغـدر قـد عطســا
عرى ظبـــاه من الأغمـــاد مهرقـــة دمـا من الشرك رد إهـابـه وكسـا
من سيفـه فى دمـــاء القـوم منغمس من كـل من لم يـزل فى الكفر منغمســا
أفنـــاهم قتلهم والأسر فـــانتكســوا وبيت كفرهم من خبثهم كنســــا

وقال يخاطب صلاح الدين :

سحبت على الأردن ردنـا من القنـا ردينيــــة ملــدا وخطيــــة ملســـا
حططت على حطين قـدر ملـوكهم ولم تبق من أجنـاس كفرهم جنسـا
ونعم مجـال الخيـل حطين لم تكن معــاركهـا للجرد ضرسـا ولا دهســا
غــداة أسـود الحرب معتقلـو القنـا أسـاود تبغى من نحـور العـدا نهسـا
أتـواشكس الأخـلاق خشنـا فلينت حدود الرقـاق الخشن أخلاقهـا الشكسـا
طردتهم فى الملتقى وعكستهم مجيدا بحكم العزم طردك والعكسـا
فكيف مكست المشركين رؤسهم ودأبـك فى الإحسـان أن تطلق المكسـا
كسرتهم إذ صــح عــزمـــك فيهم ونكستهم إذ صـــار سهمهم نكســــا
بـواقعــة رجت بهـا الأرض جيشهم دمـــارا كمـــا بست جبــالهم بســا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

وطـارت على نـار المـواضى فراشهم   صـلاء فـزادت من خمـودهم قبسـا
وقـد خشعت أصوات أبطـالهـا فمـا   يعى السمع إلا من صليـل الظبى همسـا
تقـاد بـدأمـاء الـدمـاء ملـوكهم   أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا
سبـايـا بـلاد الله مملـوءة بهـا   وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسـا
يطـاف بهـا الأسـواق لا راغب لهـا   لكثرتهـا كم كثرة تـوجب الـوكسا
شكـا يبسا رأس البرنس الـذى بـه   تنـدى حسـام حـاسم ذلـك اليبسـا
حسـا دمـه مـاضى الغرار لغـدره   ومـا كـان لـولا غـدره دمـه يحسى
فلله مـا أهـدى يـدا فتكت بـه   وأطهر سيفا معدمـا رجسـه النجسـا
نسفت بـه رأس البرنس بضربـة   فـأشبـه راسى رأسـه العهن والبرسـا
تبـوغ فى أوداجـه دم بغيـه   فصـال عليـه السيف يلحسـه لحسـا
ولله نص النصر جـاء لنصلـه   فـلا قـونسـا أبقى لرأس ولا قنسـا
أيـوم وغى تـدعـوه أم يـوم نـائـل   وأنت وهبت الغـانمين بـه الخمسـا

☆ ☆ ☆

لما تم للمسلمين الاستيلاء على معاقل الإفرنج بالشام أخذ هؤلاء يفرون ويتجمعون فى صور. ولو أن المسلمين استولوا على صور قبل استيلائهم على بيت المقدس لوفروا على أنفسهم كثيرا من الضحايا. ولكنهم أغفلوا ذلك وتركوا أعداءهم يتكدسون فى شقة ساحلية مركزها ميناء صور. وهذا الميناء محصن تحصينا طبيعيا، وقد زاد الصليبيون فى مناعته بما أقاموا حوله من قلاع واستحكامات وشرعت السفن تأتى إليهم من أوربا حاملة المؤن والذخائر والعتاد والرجال. ثم بعثوا أسقف صور إلى أوربا ليحض أهلها على النهوض لمساعدة إخوانهم فى الشرق وليشرح لهم مركز الصليبيين فى الشام بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين.

وقد آلم هذا صلاح الدين وأقلقه فرأى أن يستنجد بسلطان بلاد المغرب « يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » فبعث إليه بخطاب يلتمس منه العون بقطع الطريق البحرى بين الشرق والغرب حتى يمتنع ورود الامدادات إلى الأفرنج المعتصمين بصور . وقد جاء فى هذه الرسالة :

« ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب فأجابوهم رجالا وفرسانا ، شيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ما عونا وذخرا وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملئوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة وشلة وجنة .... إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة ووفور مادة » .

إلى أن قال :

« ولما كان حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه . وكانت مساعيه ومساعى سلفه فى الجهاد الغر المحجلة ... كان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة الغادية مع القدرة الوافية والهمة المهدية الهادية أن يمد غرب الإسلام المسلمين بما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا فى اللجج سوائر

كأنها الليالى معلقة بالأيام تطلع علينا معشر الإسلام آمالا وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة تمدها ملائكة مسومة ومعلمة تقدم حيازيمها إقدام حيزوم تحت أصحابه ، وإنما هى عزمة كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة ، وكلمة كانت تنفخ الروح فى الكلمة . ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به فى هذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدى الرياح ... »

ولكن سلطان بلاد المغرب لم يلب هذه الدعوة ، ولعله خشى أن تتألب أوربا عليه وهو قريب منها فتوجه هجومها نحوه ، وفى هذه الحال لا يستطيع الشرق أن ينجده .

✡ ✡ ✡

وهكذا بقى الطريق مفتوحا أمام الإفرنج فازدادوا قوة يوما بعد يوم ودارت بينهم وبين المسلمين معارك هائلة انتهت بانتصار المسلمين بعد أمد طويل .

(جـ) الحروب الصليبية الثالثة :

تحرك الجيش الأول بقيادة ملك النمسا وألمانيا فريدريكوس وعدته مائتا ألف جندى ، وسار بطريق القسطنطينية إلى آسيا الصغرى ولكنه هلك فى الطريق ولم يصل منه سوى ألفى جندى .

وفى عام ٥٨٦ هـ زحف الصليبيون نحو عكا فى خلق لا يحصون ومعهم من عدد القتال شىء كثير واستبسل الفريقان فى النزال والطعان دون أن يصل أحدهما إلى نتيجة حاسمة .

ثم اشتد ساعد الإفرنج بوصول جيش فرنسى بقيادة فيليب أوغسطوس ملك فرنسا ، وآخر إنجليزى بقيادة ريكاردوس ملك إنجلترا فأدى ذلك إلى سقوط عكا بعد حصار دام أكثر من سنتين سالت فيه دماء غزيرة واستشهدت فيه أرواح كثيرة . وقد كان لسقوط عكا رنة حزن وأسى فى قلوب المسلمين . ومما زاد فى ألمهم وحزنهم أن ريكاردوس قتل أسرى المسلمين وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف أسير .

☆☆☆

وكان ريكاردوس فظا غليظا ، لذلك تركه ملك فرنسا وانسحب من صفوفه كونراد صاحب عكا ، وامتلأ قلب ملك ألمانيا حقدا عليه . وهكذا انفرد ريكاردوس بالقيادة فسار بإزاء البحر إلى قيسارية فاستولى عليها ، ثم أخذ يافا . وكان موقف المسلمين حرجا فاضطروا إلى تخريب عسقلان واهتموا بتحصين بيت المقدس ، وكان الصليبيون يتطلعون إلى الاستيلاء عليه. وفى ذلك يقول الرشيد بن النابلسى :

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أمـا ... فيهم لبيب على العـــلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربـــا إذا انتظمـــوا ... وكم نظمتهم طعنـــا إذا انتثروا
كم قـــد سقيتهم ذلا فـــلا عجب ... إن عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
إن يممـوك فـلا بـــدع لجهلهم ... تسعى إلى الأسد فى غاباتها الحمر
زاروا نمـورا ولا تغنى وقـــاحتهم ... إذا أسـودك فى أبطـــالهم زأروا
فحام عن حوطة البيت المقدس لا ... خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هـو الشريف وقـد نـاداك معتصمـا ... فما على مجده من بعدها حذر
وســوف تستغفر الأيـام هفـوتهـا ... وتحصد الفئة الأوغاد ما بـذروا

☆☆☆

بعد أن سار الصليبيون إلى القدس بدا لهم أن يرجعوا ويغزوا المملكة المصرية . فانتهز صلاح الدين الفرصة واتجه نحو يافا فأخذها وغنم المسلمون فيها غنائم لا تحصى .

وحدث أن ريكاردوس مرض ، ثم وصلته أخبار سيئة عن بلاده فسعى إلى عقد الصلح مع المسلمين وتم ذلك فى عام ٥٨٨ هـ وكان يوم الصلح يوما مشهودا .

☆ ☆ ☆

وفى عام ٥٨٩ هـ توفى صلاح الدين فحزن المسلمون لموته حزنا شديدا وبكاه الشعراء والكتاب والمؤرخون .

(د) الحروب الصليبية الرابعة :

لما شاع نبأ وفاة صلاح الدين رأى البابا سيليستينوس الثالث أن يغتنم هذه الفرصة فبعث منشورات إلى ملوك أوربا يذكر فيها موت صلاح الدين وانقسام مملكته بعد وفاته على أبنائه وتنازع هؤلاء الأبناء فيما بينهم . فلم يلب أحد نداءه سوى ملك النمسا الذى وصل بجيش إلى عكا وسار إلى يافا فقابله المسلمون بقيادة الملك العادل ، فاتجه الصليبيون إلى بيروت واستولوا عليها بغير عناء . فلم يكن من المسلمين إلا أن يمموا شطر ميناء صور وشرعوا يهاجمونه ، فلما رأى الإفرنج ذلك غادروا بيروت وأقبلوا مسرعين إلى صور . ووقعت بعد ذلك مناوشات بين المسلمين والإفرنج انتهت بأن طلب الصليبيون هدنة لمدة ثلاث سنوات فأجيبوا إلى طلبهم وبذلك انتهت الحروب الصليبية الرابعة .

(هـ) الحروب الصليبية الخامسة :

تحركت الجيوش الصليبية ووصلت إلى القسطنطينية واستولت عليها ولم تصل إلى الشام بتاتا .

(و) الحروب الصليبية السادسة :

أبحر جيش صليبى من أوربا بقيادة أندراوس الثانى ملك هونكاريا ووصل إلى سورية وانتشر فى القرى الواقعة بين بيسان وبانياس وصيدا والشقيف وأمعن فى النهب والسلب . ولكن ملك هونكاريا رجع إلى بلاده . ثم ورد جيش صليبى آخر من فرنسا وإيطاليا فقرر الإفرنج غزو الديار المصرية . فوصلوا دمياط فى عام ٦١٥ هـ ونزلوا بجزيرة دمياط وشرعوا فى مهاجمة قلاع المدينة وحصونها وبذلوا فى ذلك مجهودات كبيرة وأخيرا استطاعوا دخول المدينة بعد حصار دام ستة أشهر ، فغنموا مالا يحيط به الوصف ، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها وحولوا المساجد إلى كنائس . وكانت الإمدادات تتوالى عليهم تباعا من الشام فازداد مركزهم قوة ومنعة حتى قيل إن المسلمين لم يعانوا من الضيق والشدة طوال الحروب الصليبية كلها مثل ما عانوا فى هذا العام .

اضطر الملك الكامل إلى الانسحاب إلى طلخا وأعلن الجهاد العام فى جميع جهات القطر فشرع الناس يتوافدون للقتال من أسوان جنوبا إلى الاسكندرية شمالا ومن شرق البلاد وغربها كما وصلت نجدات من الشام فدار قتال بين المصريين والإفرنج أحرز فيه المصريون انتصارا محليا ولكنه لم يكن حاسما . ثم رأى الملك الكامل أن يخابر الأعداء فى الصلح على أن يمنحهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وسائر الأماكن التى كان صلاح الدين قد استولى عليها من قبل إلا الشوبك والكرك . ولكن الإفرنج أصروا على أخذ هذين الحصنين ، فامتنع المسلمون عن إجابة هذا الطلب . وفى أثناء ذلك بعث المسلمون فرقة من رجالهم تحركت سرا خلف خطوط الأعداء وقطعت سد ترعة المحلة وكان النيل فى أقصى درجات ارتفاعه فطغت المياه حتى أغرقت جميع الأراضى التى تفصل الإفرنج عن دمياط فأضحوا محصورين فقل طعامهم ونفذت ذخيرتهم فأصابهم الجوع والخوف فبعثوا إلى الملك الكامل

يطلبون الصلح على أن ينسحبوا من مصر دون أن ينالوا شيئا . وهكذا جلا الغزاة عن البلاد ودخل الملك الكامل دمياط فى جيشه وكان يوما مشهودا ، وأقبل الشعراء يهنئونه بهذا الانتصار العظيم . من ذلك قول قاضى غزة هبة الله بن محاسن :

هنيئا فإن السعد جاء مخلدا ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤيدا
تهلل وجه الأرض بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ ... ـطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام المهندا
فلم ينج إلا كل شلو مجندل ... ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا ... عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا ينصران محمدا

☆ ☆ ☆

انتصر المسلمون فى مصر ولكنهم انهزموا فى الشام ، وذلك بسبب اختلاف الأمراء الأيوبيين وتنازعهم فيما بينهم وطمع كل منهم فى ملك الآخر . فشرع بعضهم يغزو بعضا ، وتحالف بعضهم مع الصليبيين على بعضهم الآخر . وهكذا استطاع الإفرنج أن يستولوا على القدس صلحا فى عام ٦٢٥ هـ . وفى سنة ٦٣٧ هـ استطاع الملك الناصر صاحب الكرك أن يسترد القدس من أيدى الصليبيين .

(ز) الحروب الصليبية السابعة :

قامت هذه الحملة من أوربا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وقصدت غزو مصر فوصلت إلى دمياط فلم يلبث أهلها قليلا حتى هربوا فخلت المدينة فدخلها الغزاة فى عام ٦٤٧ هـ . وكان الملك الصالح

معسكرا عند المنصورة وهو مريض فما أبطأ أن مات فخلفته من بعده شجرة الدر . ولما استقر الإفرنج بدمياط ساروا إلى المنصورة ، وهناك دار قتال عنيف بينهم وبين المسلمين وقد أوشكوا فيه على الانتصار . ولكن المسلمين أبدوا ثباتا عجيبا واستماتوا فى الدفاع عن البلاد فلم يظفر الغزاة بنتيجة ، وأدركهم الإعياء وقتل كثير من قوادهم ورؤسائهم فركنوا إلى الهدوء قليلا ، ولكن الأمراض لم تتركهم فمات منهم كثيرون ، ومرض لويس التاسع وخشى على نفسه من الهلاك فأراد أن يرتد على عقبيه ولكنه وقع فى الأسر وسيق مقيدا بالسلاسل إلى المنصورة وحبس فى الدار التى كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان . ووكل بالملك لويس الطواشى صبيح المعظمى . وقد تغنى الشعراء بهذا النصر المبين فمن ذلك قول أحدهم :

قـــل للفرنسيس إن كـــلا	من أمـــة [1] المسلمين شـــاكر
لأنـــــه محسن إلينــــا	بقـوده نحـونـا العســاكر
ســاق إلى مصر مــا اقتنتــه	أمـــة عيسى من الـــذخـــائر
وأورد الجمــــع بحر حرب	مصـــدره بـــالمنـــون آخر
ورام بـــابـــاهم أمـــورا	فـــأخلفت ظنـــه المقـــادر
وأذهــل القـــوم هـــول حرب	تشخص من فرقـــه النـــواظر
لم تعم أبصـــارهم ولكن	قـــد عميت منهم البصـــائر
ولم يفـــد وفـــق فيلســـوف	طلسمـــه كـــاهن وســـاحر
فـــإن يعـــد طـــالبـــا لثـــأر	من أرض دميـــاط فليبـــادر
فـــذلـــك البحر عرفتمـــوه [2]	والسيف مـــاض منـــه وحـــاضر

(١) زيادة من عندنا .

(٢) الأصل تعرفوه وهو خطأ نحوى .

أعـــــــاده الله عن قريب — لمثلهـــــا إنـــــه لقـــــادر
بحيث لم يبـــق للنصـــــارى — من بعـــد كسر الصليب جـــابر
ويستريـــــح المسيـــــح منهم — من كـــل علـــج وكـــل كـــــافر

☆ ☆ ☆

وهكذا أخفقت الحروب الصليبية السابعة ورجع لويس التاسع إلى بلاده مهزوماً مدحوراً . ولكنه لم ييأس من النصر ، فأعد فى عام ٦٦٠ هـ حملة أخرى وأراد أن يعيد الكرة على مصر ولكنه عدل عن ذلك واتجه إلى تونس وملك بعض بلادهم ولكن المرض أدركه ومات ، فتفرق شمل جيشه ونجت البلاد التونسية من شره ، وكان المصريون على علم بهذه الحملة فأعدوا عدتهم لها وفى ذلك يقول ابن مطروح :

قـــل للفرنسيس إذا جئتـــــه — مقـــال صـــدق من قئول فصيـــح
آجرك الله على مــــــا مضى — من قتـل عبـاد يســوع المسيـــح
قـــد جئت مصرا تبتغى أخــذهــا — تحسب أن الـزمر يـا طبـل ريـح
فســـــاقـــــك الحين إلى أدهم — ضـاق بـه عن نـاظريـك الفسيـح
رحلت إذ أصحــــابــــك أودعتهم — بقبـح أفعـالـــك بطن الضريـــح
خمســـون ألفـــــا لا يرى منهم — إلا قتيــــل أو أسير أو جريــــح
فردك الله إلى مثلهــــــــــــا — لعـــل عيسى منكم يستريــــــح
إن كــان بـابـاكم بـذا راضيــا — فرب غبن قــــد أتى من نصيـــح
فـــاتخـــذوه كـــاهنـــا إنـــه — أنصــح من شــق لكم أو سطيـــح
وقـــل لهم أن أضروا عـــــودة — لأخــذ ثــار أو لقصــد صحيـــح
دار ابن لقمـــان على عهــدهـــا — والقيــد بــاق والطـواشى صبيـــح

وقد اختلف فى المناسبة التى قيلت فيها هذه القصيدة . ففى ديوان ابن مطروح ما يشير إلى أن الشاعر نظمها حين تمت هزيمة الإفرنج ، ووقع لويس التاسع فى الأسر . ولكن ابن خلكان ذكر أنها قيلت عندما سمع المصريون بنبأ قيام لويس على رأس حملة أخرى عام ٦٦٠ هـ .

انتهاء أمر الصليبيين بالشام :

كانت الحملة الصليبية السابعة هى ختام الحملات التى وجهت إلى الشرق . وانتهت على نحو ما قدمنا . ثم شرع المسلمون يضيقون الخناق على الإفرنج بالشام شيئا فشيئا فاستولوا على كثير من حصونهم وقلاعهم . ففى عام ٦٦٦ هـ أخذوا أنطاكية وبغراس ، وفى عام ٦٦٩ هـ فتحوا حصن الأكراد ، وفى عام ٦٨٤ هـ استولوا على حصن المرقب ، وفى عام ٦٨٨ هـ دخل المسلمون طرابلس ، وفى سنة ٦٩٠ هـ استولى الجيش المصرى بقيادة الأشرف ملك مصر على عكا ، وأعمل المسلمون السيف فى رقاب أهلها جزاء وفاقا على ما اقترفه ريكاردوس مع المسلمين يوم أن استولى عليها . وقد أوقع سقوطها فى أيدى المصريين الرعب فى قلوب الإفرنج الذين كانوا معسكرين ببعض سواحل سورية فأخلوا بيروت وصيدا وهرب أهل مدينة صور وعثليت وطرسوس . وبذلك انقرضت دولة الصليبيين بعد أن دامت قرنين من الزمان ، وقضى قضاء مبرما على الذين جاءوا لتخليص قبر المخلص وإنقاذ مهد الفادى – بزعمهم – فما خلصهم المخلص ولا فداهم الفادى .

هذا عرض موجز لتاريخ الحروب الصليبية أتينا به لنعطى القارىء فكرة عن هذه الحروب تمهيدا لتتبع ما تركته من آثار عنيفة فى الأدب العربى .

الفصل الثانى

الحالة الاجتماعية

التى ترتبت على الحروب الصليبية

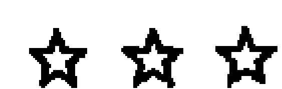
تمهيـــد :

بعد أن فرغنا من عرض أدوار الحروب الصليبية ذلك العرض الموجز ، نريد أن نلم بالحالة الاجتماعية التى ترتبت على هذه الحروب . وذلك لأن الحروب الصليبية أثرت فى الأدب العربى بطريقين : أحدهما مباشر ، وهو ما قيل فى وقائع هذه الحروب من مدح ورثاء وتحريض على الجهاد والقتال وفخر وهجاء ورد على النصارى ووصف وغير ذلك مما لا موضع لذكره هنا .

وطريق آخر ، وهو أن هذه الحروب العنيفة التى طال أمدها قد لونت الحياة الاجتماعية فى مصر والشام بلون خاص ، تردد صداه فى الأدب العربى . وهذا أثر غير مباشر لتلك الحروب . بل إن الأثر الأول انتهى بمجرد انتهاء المعارك وزوال دولة الإفرنج من الشرق . أما الأثر الثانى فبقى مدة طويلة وذلك أمر طبيعى لأن القتال ممكن أن يقف فجأة ، أما الحالة الاجتماعية التى تتولد منه فإنها لا يمكن أن تختفى فجأة . والذى ساعد على بقاء العامل الثانى مدة أطول من العامل الأول

وجود إمارة صليبية فى جزيرة قبرص . وكان ملوك مصر فى حذر شديد ويقظة دائمة مخافة أن يعود الصليبيون لغزو مصر والشام مرة أخرى . وقد حدث أن صاحب قبرص هجم على ثغر الإسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ وأعمل جنوده يد النهب والسلب واستولوا على كثير من الأموال والأمتعة وأسروا عددا عظيما من أهل الإسكندرية ، وقد أسرع جيش مصرى لنجدة أهل الثغر فتمكن من إنقاذ بعض ما استولى عليه الأعداء من الغنائم والأسلاب وفك أسر كثيرين ممن وقعوا فى قبضة الغزاة . وفضلا عما تقدم فإن ملك صقلية كان يهجم من حين إلى حين على طرابلس الغرب وتونس ويعود ظافرا بكثير من الغنائم والأسرى .

فنرى مما تقدم أن الحروب الصليبية وإن كانت قد انتهت من الشام ومصر فى عام ٦٩٠ هـ إلا أن جو هذه الحروب بقى مسيطرا على الحياة السياسية والاجتماعية فى هذين القطرين مدة طويلة .



الحالة الاجتماعية فى مصر والشام
خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

١

رأينا مما سبق أن أوربا لبت داعى الحرب وخرجت إلى الشرق كما ورد فى رسالة صلاح الدين إلى سلطان بلاد المغرب رجالا وفرسانا وشيبا وشبانا وزرافات ووحدانا وبرا وبحرا ومركبا وظهرا . وكما عبر عن ذلك القاضى الفاضل فى إحدى رسائله فقال :

« ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم ولا ملوك تحكم عليهم ولا عصا تسوقهم ولا سيف يزعجهم مهطعين إلى الداعى ، ساعين فى أثر الساعى ، وهم من كل حدب ينسلون ، ومن كل بر وبحر يقبلون » .

أما المسلمون فكانوا على عكس ذلك . كانوا كما قال القاضى الفاضل يخاطب صلاح الدين :

« وليس [1] لك من المسلمين كافة مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بِهَمّ ، ولا خارج بين يديك إلا بأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم لنفسك وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم » .

☆ ☆ ☆

كان المسلمون يهربون من الحرب ويرغبون عنها وينفرون من حمل السيف ولكنهم لا ينفرون من حمل القلم ظانين أن الجهاد بالقلم يقوم مقام الجهاد بالسيف . فأخذوا يتقربون إلى الله مستعيضين عن جهاد الأعداء فى ميادين القتال بتأليف الكتب فى الرد على النصارى واليهود وأهل البدع والأهواء فلا غرو أن كثرت المؤلفات التى تتناول هذه الأمور .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٦ .

ومن المسلمين من كان يستبدل جهاد الأعداء بكثرة الصلاة والصيام ودوام الذكر والتسبيح ، معتقدين أن هذا يقربهم من الله زلفى ويغنيهم عن متاعب الكفاح ومشاق القتال . وليطمئنوا على أنفسهم ويضمنوا سلامة ذواتهم من أضرار الحرب بعيدها وقريبها كانوا يهاجرون إلى مكة ويتخذون من الحرم ديرا يباشرون فيه نوعا من الرهبانية ابتدعوها . وقد كتب أحد المجاهدين من الشام إلى صديق له كان قد هرب من واجب الجهاد واختبأ فى الحرم يتعبد على زعمه يقول :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الكريهة تتعب
أو كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأشهب
ولقد أتانا عن مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى وغبار خيل الله فى ... أنف امرىء ودخان نار تلهب

ومن هؤلاء الذين تخلفوا عن فريضة الجهاد وفضلوا أن يكونوا مع القاعدين أحمد البدوى ، وقد شرع يجمع حوله الأنصار والأتباع وينفث فيهم تعاليم غريبة عن الإسلام .

ومن هؤلاء الذين رضوا أن يكونوا مع القاعدين ابن الفارض [1] لقد كان ينظم القصائد الطوال لا فى التحريض على جهاد الصليبيين ولا فى

---

(١) قال الحافظ الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٦٦ مطبعة السعادة ما نصه : عمر ابن على المعروف بابن الفارض حدث عن القاسم بن عساكر ؛ ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره ، وهذه بلية عظيمة فتدبر نظمه ولا تستعجل ، ولكنك حسن الظن بالصوفية . وما ثم إلا زى الصوفية واشارات مجملة وتحت الزى فلسفة وأفاعى فقد نصحتك والله الموعد . مات ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ .

البكاء على ما أصاب المسلمين ولا فى مدح المناضلين فى سبيل الدين ، بل فى وصف الخمرة الإلهية وما سيعده الله له من خمر وحور ، وهذا فى الوقت الذى أقبلت فيه نساء الإفرنج من مسافات طويلة ليشتركن فى القتال جنبا إلى جنب مع الرجال .

ولقد أحسن ابن تيمية كل الإحسان فى حملته الشديدة التى حملها على هؤلاء الذين تركوا سنة الرسول وحادوا عن طريقه فى الجهاد . ولو أنهم اتخذوا من الرسول أسوة لبذلوا ما وسعهم فى تحريض المسلمين على الجهاد والكفاح ولحملوا سيوفهم وخرجوا إلى ساحات الوغى كما فعل الرسول والصحابة ، ولا سيما أنهم عاشوا فى عصر تعرض الإسلام فيه للزوال وتعرض المسلمون فيه لأشد أنواع البلاء . قال العماد الأصفهانى فى إحدى رسائله :

« .. وما ينقضى عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين فلا ملبى منهم لمناد ، ولا مثقف لمنآد ، فانظروا إلى الفرنج أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا وأى ضالة نشدوا ، وأى نجدة أنجدوا وأى أموال غرموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ، ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره فى مضمار الإنجاد ، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والأرواح ، وأمدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح ، وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم ، وليس أحد من الفرنجة يستشعر أن الساحل إذا ملك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك يخرج بلد عن يده وتمتد يد إلى بلده . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا وكسلوا ولزموا الحيرة وعدموا الغيرة » .

لذلك كان اعتماد الأيوبيين فى الحرب على العنصرين الكردى والتركى فاحتاجوا إلى أموال باهظة لتسديد نفقات الجنود فى هذه الحروب الطويلة الأمد . وكان الموظفون المكلفون جباية الضرائب يشتطون فى ذلك ويقسون . وقد سجل ابن جبير ذلك فى رحلته إلى المشرق ووصف ما يعانيه القادمون إلى مصر من ضروب البلاء والعناء . قال :

« فأول ما شاهدنا فيها (الإسكندرية) يوم نزولنا ، أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ... وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض [1] ليؤدى زكاة ذلك كله » .

ثم قال :

« ... فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ... وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى العظيم ... »

ثم قال :

« وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين كإخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وإدخال الأيدى إلى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم ودنانير ما يقبح سماعه وتستشنع الأحدوثة عنه » .

---

(١) الناض من المتاع ما تحول ورقا أو عينا .

ثم قال :

« ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة فى أيديهم المسال الطوال فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة ، مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شيء غيب من بضاعة أو مال » .

ولابن جبير قصيدة مؤثرة يخاطب فيها صلاح الدين ، ويذكر فيها ما يلقاه الحجاج مع عنت عمال المكوس ، منها :

يعنت حجـــاج بيت الإلـــه	ويسطى بهم سطـوة الجنـائر
ويكشف عمـــا بـــأيـــديهم	ونـاهيـك من مـوقف صــاغر
وقـد أوقفـوا بعـد مـا كـوشفـوا	كــــأنهم فى يـــــد الآسر
وليس على حرم المسلمين	بتلـك المشـاهـد من غـائر
ولا حـــاضر نـــافـع زجره	فيــاذلــة الحــاضر الـزاجر
ألا نـــاصـح مبلـغ نصحـــه	إلى الملـك النـاصر الظـافر
ظلـوم تضمن مـال الـزكــاة	لقـد تعست صفقـة الخـاسر
يسر الخيــانـــة فى بـــاطن	ويبـدى النصيحـة فى ظـاهر

☆ ☆ ☆

هذا إلى أن الحالة الاقتصادية فى مصر والشام بلغت درجة من السوء لم يسبق لها مثيل وذلك من جراء طول أمد القتال ، فخربت مدن وأقفرت حقول من الزراعة وتعطلت الصناعة واختل الأمن وأصبح الناس عرضة للسلب والنهب ومصادرة الأموال بل عرضة للموت . وارتفعت

أسعار الحاجيات ارتفاعا فاحشا حتى عجز الفقراء فى أعوام كثيرة عن الحصول على ما يقيم أود حياتهم . وقد حدث أن صلاح الدين جمع القواد والأمراء حين طلب الإفرنج الهدنة وكان من رأى السلطان الاستمرار فى الحرب ولكن المجتمعين عارضوا فى ذلك ، وقد حكى العماد الأصفهانى ما قالوه فى هذا المقام :

« ... فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت ؛ والرعايا فإنها تعكست وتعلثت ، والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت وقد أعوزت العلوفات وعزت الاقوات وبعدت عنا العمارات ، وغلت الغلات ولا جلب إلا من الديار المصرية مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية . وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق ، فإن المواد منقطعة ، والجواد ممتنعة ، والمترب قد ترب ، والمعدم قد عطب ، والتبن أعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر .... »

هذه كانت حالة الشام ، ولم تكن الحالة فى مصر بأفضل منها . كان على مصر أن تمون الشام وتمد الجيوش بكل ما تحتاج من مال وطعام . وقد ابتليت مصر فى كثير من سنى الحرب بمجاعات كانت تودى بآلاف الناس . وقد وصف عبد اللطيف البغدادى وغيره من المؤرخين بعض المجاعات وما سببته لأهل البلاد من الفناء .

وعلاوة على ما تقدم فإن الصليبيين حملوا معهم من أوربا بعض الأمراض ، فكانت الطواعين والحميات تفتك بالناس فتكا ذريعا .

كل هذه المصائب التى تراكمت على الناس والتى سببتها هذه الحرب السجال ولدت فى الجمهور روح الحزن والاستسلام ، ونشرت

بينهم الشعور بالعجز والضعف التام أمام هذه النكبات الجسام . فلجئوا إلى الله يدعونه أن يكشف عنهم الضر ، وإلى الرسول يستغيثون به على دفع ما حاق بهم من بؤس ، وإلى الأولياء يسألونهم العون على قضاء الحاجات ، وظهر أثر ذلك فى الأدب وفى الشعر بنوع خاص فرأينا الشعراء ينظمون القصائد الطوال فى التضرع إلى الله والاستغاثة برسوله . ومن أشهر القصائد التى ظهرت فى هذا الصدد « المنفرجة » وهى فى الدعاء والاستغاثة ومطلعها :

اشتـــــدى أزمـــــة تنفرجى   قـــد آذن ليلـــك بـــالبلـــج

وكانوا يتخذون من بعض هذه القصائد لا سيما قصيدة البوصيرى المعروفة بـ « البردة » تمائم لعلاج بعض الأمراض كالفالج والرمد والحمى وغير ذلك من الأدواء .



وانتشر الشذوذ الجنسى فى هذا العصر انتشارا كبيرا ، وذلك لأمور منها انتشار التصوف الذى شجع عليه ملوك الدولة الأيوبية ، بما أقاموا من تكايا وزوايا رصدوا لها الأوقاف الكثيرة . وكانت أعباء الحياة الثقيلة وسوء الحالة الاقتصادية يلجئان كثيرين من الناس إلى الفرار من ميدان الحياة والانزواء فى هذه التكايا . فلما ابتعد هؤلاء المتصوفون عن الدنيا وأسبابها ولم يكن لديهم من وسائل العيش ما يمكنهم من الزواج ، إذ أصابهم الكسل والخمول ورضوا بأن يعيشوا عالة على المجتمع وقنعوا بالقليل من مأكل ، والزهيد من ملبس ، لذلك تفشى فيهم اللواط . وكانوا بسببه عرضة لحملات شديدة من كتاب كثيرين .

وأمر آخر شجع على نشر هذا الشذوذ وتعميمه بين الناس ، هو أن الأكراد والترك كانوا رجال حرب ، يكرهون الزواج ويعرضون عنه ، وقد شغلتهم الحروب الصليبية التى لم تكن نارها تخمد إلا لتعود إلى الاشتعال من جديد ، عن الاستقرار الذى يترتب عليه تكوين الأسرة .

وأمر ثالث ساعد على نشر اللواط وهو كثرة وجود غلمان من الترك والأكراد والإفرنج وقد امتازوا بجمال مفرط . وفى ذلك يقول أحد شعراء تلك العصور فى غلام تركى :

من الترك لا يصيبه شوق إلى الحمى	ولا ذكر بانات الغوير يشوقه
على خده جمر من الحسن مضرم	يشب ولكن فى فؤادى حريقه
إذا خفق البرق اليمانى موهنا	تذكرته فاعتاد قلبى خفوقه
حكى وجهه بدر السماء فلو بدا	مع البدر قال الناس هذا شقيقه
على مثله يستحسن الصب هتكه	وفى مثله يجفو الصديق صديقه

☆ ☆ ☆

ومع أن الغزل بالمذكر يرجع إلى عصر أبى نواس إلا أن الشعراء الذين قالوا فى هذا الباب كانوا ممن عرفوا بالخلاعة والمجون . أما فى عصر الحروب الصليبية فرأينا رجالا وسموا بالتقوى والورع يكثرون من الغزل بالمذكر ، ويفحشون فى ذلك إفحاشا كبيرا ، وكان الشعر لا يروج ولا يقبل عليه الناس إلا إذا غلب عليه هذا النوع من الغزل . قال ابن الوردى :

استغفر الله من شعر تقدم لى	فى المرد قصدى به ترويج أشعارى

فلا عجب إذا أقبل الشعراء على وصف الغلمان والإشادة بجمالهم ، وقد كثر ذلك حتى أنك لا تفتح ديوانا من دواوين الشعر إلا وتجده مفعما بهذا الغزل .

وقد تصدى كثير من الكتاب لمحاربة هذا الشذوذ والحملة على أنصاره والداعين إليه . ومن هؤلاء ابن قيم الجوزية الذى أعلن على عشاق الغلمان حربا عنيفة فى كتابه [1] « إغاثة اللهفان ، فى مصايد الشيطان » .

٣

وقد أوقدت هذه الحروب نيران العواطف الدينية فى صدور المسلمين وساعد هذا على ظهور القصائد الطوال فى مدح الرسول والتغنى بما حدث من آيات باهرات ساعة مولده وساعة بعثه ، والإشادة بما أجراه الله على يديه من معجزات وما أحرزه المسلمون على عهده من انتصارات وقد ظهر فى ذلك شعر كثير ، كما اهتم الكتاب والمؤرخون بسيرة الرسول ووضعوا فيها كتبا جمة .

٤

واشتدت فى أثناء هذه الحروب حدة التعصب بين المسلمين والنصارى حتى إن النصارى كانوا عرضة لكثير من الاضطهادات . وقد شكا البوصيرى كثيرا من كتاب النصارى ومثال ذلك قوله :

---

(١) ص ٢٩٧ وما بعدها . الميمنية بمصر .

يغالطنى بعض النصارى جهالة إذا أوجب الملغى وألغى الموجبا
وما كان من عد الثلاثة واحدا بأعلم منى بالحساب وأكتبا
وما الحق فى سواه قوم كأنها أوان حوت ماء خبيثا مطحلبا
مقلحة أسنانها فكأنها أصاب بها السنجار أحجار كهربا
كأن ثناياهم من الخبث الذى تحصرم فى نياتهم وتزبيا

كما أنه صور العداء بين المسلمين والنصارى فى ذلك الوقت بقوله :

يقول المسلمون لنا حقوق بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر وإن سواهم هم غاصبونا

وكانت الحملة على النصارى تتبعها حملة على اليهود ، وهجاء النصارى يقرن بهجاء اليهود ، والرد على النصارى يردف بالرد على اليهود . لذلك تجد فى قصيدة البوصيرى السابقة هجاء موجها إلى اليهود منه :

وحللت اليهود بحفظ سبت لهم مال الطوائف أجمعينا

ومنه :

وفى دار الوكالة أى نهب فليتك لو نهبت الناهبينا
فقام بها يهودى خبيث يسوم المسلمين أذى وهونا

وللبوصيرى قصيدة فى ثلاثمائة بيت نظمها فى الرد على النصارى واليهود . وقد ظهرت مؤلفات كثيرة فى الرد على هاتين الطائفتين سنتكلم عنها فى موضعها من هذا الكتاب ، كما أنشئت مقالات كثيرة فى ذكر مثالب الأقباط وهجوهم والطعن عليهم .

٥

وقد كانت ظروف الحرب تضطر الحكام إلى أخذ الناس بالشدة ، فى كل ما يتصل بأسباب سلامة البلاد وأمنها . وقد ظهرت فى أثناء الحروب الصليبية شخصية طريفة كتب لها الخلود ، وقدر لها الذيوع ، تلك هى شخصية الأمير « بهاء الدين قراقوش » الذى اضطرته مقتضيات الحرب أن يكون جبارا عنيفا ، فذهب حكمه مثلا ، وانتقم الناس منه بجعلهم إياه أضحوكة الضاحكين وسخرية الساخرين بما وضعوا حوله من نوادر مضحكة وطرائف عجيبة وقصص غريبة ، فكان هذا نوعا من الأدب الساخر الذى ولدته حياة الحرب القاسية .

٦

وقد اغتنى فى هذه الحروب كثير من التجار والمستخدمين . قال عبد اللطيف البغدادى :

« ومما [1] يقضى به العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة ، فمنهم من أثرى بسبب متجره فى القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف » .

---

(١) عبد اللطيف البغدادى فى مصر ص ٦٨ طبع المجلة الجديدة .

فانغمس هؤلاء الأغنياء فى الشهوات وعكفوا على اللذات . وكان المستخدمون يكلفون بجمع الغلال والمواشى للجيش فيسرقون من ذلك شيئا كثيرا . قال البوصيرى :

فكم سرقـوا الغـلال ومـا عرفنـا ... بهم فكـأنمـا سرقـوا العيـونـا
ولـولا ذاك مـــا لبسـوا حريرا ... ولا شربـوا خمـور الأنـدرينـا
ولا ربـــوا من المردان مردا ... كـأغصـــان يملن وينثنينـــا
وقـــد طلعت لبعضهم ذقـــون ... ولكن بعـد مـا حلقـوا ذقـونـا
وأقـلام الجمـاعـة جـائـلات ... كـأسيـاف بـأيـدى لاعبينـا
أمـولاى الـوزير غفلت عمـــا ... يتم من اللئـــام الكـــاتبينـــا
تنســـك معشر منهم وعـــدوا ... من الـزهـــاد والمتـورعينـــا
وقيـل لهم دعـــاء مستجـــاب ... وقـد ملئـوا من السحت البطـونـا

٧

وكان كثير من المسلمين يؤثرون سلامة أنفسهم ولو اقتضى ذلك ترك الدين ، فرأينا عندما دخل الصليبيون بزاعة أن قاضى المدينة قد تنصر وتبعه فى ذلك أربعمائة مسلم . ورأينا كيف قدم بعض أمراء المسلمين وقوادهم مصلحتهم الشخصية على مصلحة الإسلام والمسلمين فاستنجد بعضهم بالصليبيين على بعضهم الآخر . وساروا فى صفوف الإفرنج تتقدمهم الصلبان وتحيط بهم لمحاربة إخوانهم المسلمين . ورأينا كيف استنجد شاور بالصليبيين ودعاهم إلى احتلال مصر . ورأينا نفرا من أعيان المسلمين وفقهائهم يذهبون إلى بيت المقدس ويحرضون ملكها

الإفرنجي على غزو مصر نكاية فى شاور . ثم ساروا مع الجيش الصليبى إلى مصر ودخلوا معه بلبيس وشاهدوا فتك الصليبيين بأهلها المساكين بين القتل والأسر والنهب والسلب والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرم ، ومع ذلك لبثوا فى صفوف الإفرنج لأن مصلحتهم الشخصية كانت تحتم عليهم ذلك . ورأينا قصة عمارة اليمنى الشاعر المشهور الذى اتفق سرا مع جماعة من القضاة والفقهاء والأمراء وكاتبوا الصليبيين لغزو مصر وإرجاع الخلافة الفاطمية وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

عمارة فى الإسلام أبدى جناية	وبايع فيها بيعة وصليبا [1]
وأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد	فأصبح فى حب الصليب صليبا [2]
وكان خبيث الملتقى إن عجمته	تجد منه عودا فى النفاق صليبا [3]
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله	ويسقى صديدا فى لظى وصليبا [4]

وقد ذكر صاحب الروضتين فى حوداث ٥٤٦ هـ أن نور الدين حاصر دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم . وقد مدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها على صاحب دمشق جاء فيها :

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا	نارا تخش بهم غدا فى المحشر
أذكوا بجلق حرها واستشعرت	لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا	ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سبّق الردى نفس الذى	ادّرع الضلال على أغر مشهر
قلده ما أهدى على لمرحب	فلقد تهكم فى الخداع الخيبرى

---

(١) صليب النصارى . (٢) مصلوبا

(٣) من الصلابة . (٤) الصليب هنا : ودك العظام ، وقيل إنه الصديد .

مـــا الغش ممن أمـــه نصرانـــة لم تختتن كـــــالغش من متنصر
أذكت لنـا هـذى العزائم لا خبت مـا غـار من سنن الملـوك الغبر
يـاهضْبـة الإسـلام من يعصم بهـا يـؤمن ومن يتـول عنهــا يكفر
كـانوا على صلب الصليب سرادقا أنبتّ بنْيتـــه بكـل مـــذكر
آثـــارهم نجس أذال المسجـــد الـ أقصى فصن مـــا دنســوه وطهر
جـار الخليـل ومن بغـزة هــاشم بلهـامـك المتــدمشـق المتمصر

وكتب إليه أيضا يعرض بصاحب دمشق مجير الدين من قصيدة :

فيـاراكبـــا إمـــا عرضت فبلغنْ بيـوتـا على جيرون بـالـذل تعمـد
وقـل لمبيـد الـدين وهـو مجيره بـزعم لـه وجـه الحقيقـة أربـد
حملت الصليب بـاغيـا ونبـذتــه وثغرك مطـووس النبـــات وأدرد
وحـاربت حـزب الله والله نـاصر لنـاصره ودين أحمـــد أحمـــد
تنصرت حينـــا والبـلاء مـوكّـل ولابـــد من يـوم بـــه تتهـود
تنصرت أمـا ، بـل تمجست والـدا وعمّـاً ، فعرق الكفر فيـك مردد

٨

وكان من المسلمين من يتحيز للإفرنج لما عندهم من نساء جميلات . قال ابن كثير فى البداية والنهاية فى حوادث سنة ٥٨٦ هـ « استهلت [١] والسلطان محاصر لحصن عكا وأمداد الإفرنج تفد إليهم من البحر فى كل وقت ، حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ، ومنهن من تأتى بنية راحة الغرباء ، لينكحوها فى الغربة ، فيجدوا راحة وخدمة وقضاء وطر . قدم إليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن بهذه النية ، فاذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة ، حتى

إن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا لهم من أجل هذه النسوة ، واشتهر الخبر بذلك » . وأخذ الشعراء يتغزلون فى نساء الإفرنج وغلمانهم ، ومن هؤلاء ابن القيسرانى حيث يقول :

لقـــــد فتنتنى فرنجيـــــة   نسيم العبير بهــــا يعبـــق
ففى ثــوبهــــا غصن نـــــاعم   وفى تـــــاجهــــا قمر مشرق
فــإن تــك فى عينهـــا زرقـــة   فــإن سنــــان القنــــا أزرق

ولهذا الشاعر قصائد كثيرة من هذا النوع سنذكر شيئا منها فى غير هذا الموضع .

وقد عبر القاضى الفاضل عن فساد الحياة الاجتماعية عند المسلمين فى تلك العصور ، بقوله من رسالة إلى صلاح الدين : « المملوك ينهى أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصى فى كل مكان بادية ، والمظالم فى كل موضـع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه ... » ثم قال : « ... بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صلة تقشعر منها الأجساد ، وتتصدع بذكرها الأكباد ، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فى أتباعه (أى أتباع صلاح الدين) ، وشيوع المظالم فى ضياعه ، وخراب البلد ... »

---

(١) ج ٣٣٤/١٢ مطبعة السعادة .

٩

وشرع بعض علماء المسلمين يدرسون الإنجيل للرد على النصارى والطعن فى المسيحية ، فتأثر نفر منهم بما جاء فى هذا الكتاب من زهد المسيح وإعراضه عن الدنيا وما فيها ، فطفقوا يدعون المسلمين إلى الاقتداء بعيسى وترك ما فى هذا العالم من الطيبات ، ويحسِّنون لهم التقشف والزهد ويذمون الغنى ويمدحون الفقر والجوع والعرى . ومن هؤلاء الكتاب الغزالى ، قال فى كتابه الدرة الفاخرة : « اعتبروا [1] بعيسى المسيح عليه السلام فقد قيل عنه إنه لا يملك إلا ثوبا واحداً لبسه عشرين سنة ، ولم يأخذ معه فى كل سياحته إلا كوزا وسبحة ومشطا وذات يوم رأى رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانية ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه فطرح المشط ولم يستعمله ثانية . وكان يقول دائما : حصانى قدماى ، وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم » .

وكان أحمد البدوى فى مصر يدعو إلى هذا النوع من العيش . قيل عنه إنه كان يلبس الملابس فلا يخلعها حتى تبلى . وقد أضرت الدعوة إلى الزهد والإعراض عن الدنيا بالشعوب الإسلامية ضررا بليغا ، وأنزلتها دار الذل والهوان ، وكستها لباس الجوع والعدم والخوف ، ونشرت بين المسلمين داء الكسل والتعطل ، فلا عجب أن أضحت الشعوب الإسلامية لاتعرف سوى المسابح واللحى والعمائم والرقص فى حلقات الأذكار .

---

(١) دخل الغزالى القدس عام ٤٩٢ ولبث يتجول فى بلاد الشام بضعة أعوام .

ولو عقل الغزالى وأحمد البدوى ومن لف لفهما لما دعوا إلى مثل ما دعوا إليه ، ولكن عميت منهم البصائر ، وضلت الأفهام ، فنشروا بين المسلمين سموما قتالة ، مازلنا نعانى أثرها حتى اليوم . ولو فكر الغزالى قليلا لعلم أن الدعوة إلى التشبه بالمسيح فيما ساقه وأوردناه هنا ، إنما هى دعوة إلى الموت . ولو اقتدى الناس بمسيح الإنجيل كما تصوره هذه الفقرة التى تقدم ذكرها لأضحت الأرض خرابا ، ولهلك الحرث والنسل ، وانقرض الجنس البشرى من الوجود .

وطفق الغزالى وأحمد البدوى وغيرهما يمدحون الفقر ويذمون الغنى ، وما يفعل ذلك سوى من عجز عن تحصيل المال وفشل فى إدراك الثروة والجاه وكسل عن الجد والاجتهاد فقعد يعزى نفسه بمدح الفقر والإشادة بفضائله إن صح أن للفقر فضائل . وها نحن الآن نكافح الفقر الذى مدحه الغزالى ودعا إليه أمثال أحمد البدوى ومن نهج نهجه ممن أضروا بالشعوب الإسلامية ضررا بليغا .

١٠

وقد دفعت العاطفة الدينية الأيوبيين إلى محاربة الأفكار الحرة فى غير رفق ولا لين . ومما روى من مناقب صلاح الدين أنه كان [1] «مبغضا للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة ، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال

---

(١) الروضتين ٢ / ٢١٩

له السهروردى [1] ، قيل إنه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور ولما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما » . فترتب على ذلك أن ترك المسلمون الاشتغال بالفلسفة واختفى التفكير الحر من الوجود ، فأصيبت العقول بالجمود واستبدت بها الأوهام ، وعششت فيها الخرافات والأساطير . فلا عجب أن انتشر الدجالون والنصابون وكثر المحتالون والمشعوذون ، وراجت فنون السحر والشعوذة ، وأقبل الناس على الرقى والتمائم والأحجبة .

١١

وكثرت الأحلام التى يرى النائم فيها النبى أو الخضر أو أحد الأولياء والصالحين . قال أبو الحسن [2] الهروى : دخلت ثغر عسقلان سنة ٥٧٠ هـ وبت فى مشهد إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، ورأيت فى ذلك رسول الله ﷺ فى المنام وهو بين جماعة ، فسلمت وقبلت يده ، وقلت يا رسول الله ما أحسن هذا الثغر لو أنه للمسلمين ، قال ﷺ : سيصير للإسلام ويبقى عبرة للأنام ، فاستيقظت وكتبت صورة ما رأيته على حائط المشهد من جانبه القبلى وأرخته ، وفتح القدس وعسقلان سنة ٥٧٠ هـ ، وهذا الخط قد شاهده كثير من التجار والأجناد .

---

(١) شهاب الدين السهرودى . كان من علماء عصره . شنق بقلعة حلب ٥٨٧ هـ واختلف الناس فى أمره فمنهم من نسبه إلى الزندقة والالحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات . وأكثر الناس يجمعون على أنه ملحد . ابن خلكان ٣ / ٢٥٦ .

(٢) انظر رحلة أبى الحسن الهروى إلى الشام ومصر – مخطوط .

وقال البوصيرى : أصابنى فالج فأبطل نصفى ففكرت فى عمل قصيدتى هذه البردة فعملتها واستشفعت به - يعنى النبى - إلى الله تعالى فى أن يعافينى وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت ، فرأيت النبى ﷺ فمسح على وجعى بيده المباركة وألقى على بردة فانتبهت ووجدتنى فى نهضة فقمت وخرجت من بيتى ولم أكن أعلمت بذلك أحدا ، فلقينى بعض الفقراء فقال لى : « أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ » ، فقلت : أيها ؟ فقال : « التى أنشأتها فى مرضك » ، وذكر أولها . وقال : « والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، فرأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة » . فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام .

ولا ريب فى أن حالة الضيق التى عاناها المسلمون خلال هذه الحروب وكثرة استغاثتهم واستنجادهم بالرسول وبكائهم قد هيأتهم من الناحية النفسية لرؤية هذه الأحلام . فما يراه النائم بالليل إن هو إلا امتداد لما يفكر فيه بالنهار . وادعى كثيرون أن النبى كان يزورهم فى اليقظة وأنهم كانوا يرونه ويكلمونه ، كما ذكروا مثل هذا عن بعض الأولياء والصالحين . وقد حمل ابن تيمية عليهم حملة شديدة وفند دعواهم وأبطل زعمهم . قال : « وكثير [1] من هؤلاء يظن أن النبى ﷺ أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه فى اليقظة ؛ ومن يرى ذلك عند قبر النبى ﷺ أو الشيخ وهو صادق فى أنه إياه من قال إنه النبى أو الشيخ أو قيل له ذلك ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك . والذى له

---

(١) رسائل ابن تيمية ج ١ / ٥٩ المطبعة الشرقية بمصر .

عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبى ﷺ ، تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع، مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة بعلمه أن النبى ﷺ ما كان يأتى أحدا من أصحابه بعد موته فى اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لى ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره ، وأن روحه فى الجنة لا تصير فى الدنيا هكذا ... » .

١٢

وطفق المسلمون بتأثير ما أصابهم من خطوب الحروب الصليبية ومصائبها يتكلمون عن القيامة وعلاماتها ، والساعة وأشراطها ، والشمس وطلوعها من مغربها ، والدجال وظهوره وعيسى ونزوله . وقد كتبوا فى ذلك الرسائل وأنشئوا المقالات ورووا القصص الخيالية عن يوم الموقف العظيم . وقد خيل إليهم المركز السيىء الذى كانوا عليه فى بداية هذه الحروب أن الساعة قد اقتربت وأن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ وأن العالم قد حان حينه ودنت نهايته . لذلك حاكوا قصصا كثيرة عجيبة عن يوم الفزع الأكبر .

☆ ☆ ☆

وتحدثوا كثيرا عن الجنة وبنائها وأبوابها وجدرانها وأرضها وحصبائها وغرفاتها وقصورها ، ودورها وخيامها وأنهارها وطيورها .... الخ . ووصفوا أهلها ومنازلهم وسنهم وطول قاماتهم وحلاهم وألوانهم ولسانهم الذى يتكلمون به . وأضحوا يتناقشون عن نساء الجنة وهل يحبلن أم لا ، واختلفوا فى ذلك اختلافاً كبيراً ، وذكروا فى وصف نساء الجنة كل

ما استطاع خيالهم أن يصل إليه ، وأشبعوا القول فى ذلك شعرا ونثرا .
قال ابن قيم الجوزية في وصف تلك النسوة :

والصدر متسع على بطن لها حفت به خصران ذات ثمان
وعليه أحسن سرة هى مجمع الـ ـخصرين قد غارت من الأعكان[1]
حق من العاج استدار وحوله حبات مسك جل ذو الإتقان
وإذا انحدرت رأيت أمرا هائلا ما للصفات عليه من سلطان
لا الحيض يغشاه ولا بول ولا شيء من الآفات فى النسوان
فخذان قد حفّا به حرسا له فجنابه فى عزة وصيان
قاما بخدمته هو السلطان بيـ ـنهما وحق طاعة السلطان
وجماعها فهو الشفاء لصبها فالصب منه ليس بالضجران
وإذا يجامعها تعود كما أتت بكرا بغير دمٍ ولا نقصان
فهو الشهيُّ وعضوه لا ينثنى جاء الحديث بذا بلا نكران

وفى اختلاف الناس فى حبل نساء الجنة يقول :

والناس بينهم خلاف هل بها حبل وفى هذا لهم قولان
فنفاه طاووس وإبراهيم ثم مجاهد وهُمُ أولو العرفان
وروى العُقيلى الصدوق أبو رزيـ ـن صاحب المبعوث بالقرآن
أن لا توالد فى الجنان رواه تعـ ـليقا محمد العظيم الشان
وحكاه عنه الترمذى وقال إسـ ـحق بن إبراهيم ذو الاتقان
لا يشتهى ولدا بها ولو اشتها ه لكان ذاك محقق الإمكان

---

(١) العنكة بالضم ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .

ومنها :

واحتج من نصر الولادة أن فى الـ ـجنات سائر شهوة الإنسان
والله قد جعل البنين مع النسا من أعظم الشهوات فى القرآن
واحتج من منع الولادة أنها ملزومة أمرين يمتنعان
حيض وإنزال المنى وذلك الـ ـأمران فى الجنات مفقودان

وهكذا كانت حياة الحرمان التى أصيب بها المسلمون فى أثناء هذه الحروب ، دافعا لهم إلى التسرية عن أنفسهم بالتحدث عن جنات النعيم وما أعد فيها من اللذات المختلفة . وكان المسلمون وما زالوا يطربون لسماع ما يقال عن الجنة وما فيها ، وإذا سمعوا ما يقال عن خمرها ونسائها غلبهم الفرح فتمايلوا وتصايحوا قائلين : « أوعدنا يارب ... يا كريم ... » وربما قرءوا الفاتحة ليتقبل الله دعاءهم ويحقق أملهم .

وليس من شك فى أن ابن قيم الجوزية ومن سلك مسلكه فى التحدث عن نساء الجنة بهذه الصورة قد أخطئوا خطأ كبيرا . وكان يجدر بابن قيم الجوزية وهو الذى حمل كثيرا على دعاة الإباحة أن يتجنب الخوض فى هذا الموضوع بهذه الكيفية . وإلا فمن الذى يقرأ هذا الشعر ولا تثور أعصابه ؟!.. وفضلا عن ذلك فإن ابن قيم الجوزية ومن نحا نحوه قد فتحوا للإباحيين بابا تعذر قفله وصعب إغلاقه . أجل ! لقد طفق قوم من المتصوفة ينظمون القصائد الطوال فى الغزل بالمذكر والمؤنث ووصف الخمر . فإذا أوخذوا على هذا قالوا إنما نتغزل فى نساء الجنة وغلمانها ونتغنى بوصف خمرها وقيانها . وإذا جاءوا إلى الناس أظهروا التقوى والورع « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » وأقبلوا على اللذات ، فإذا هم فيها غارقون .

١٣

ولما وقعت فاسطين فى أيدى الصليبيين وعظم خطر الإفرنج فى شمال البحر الأحمر اضطر الحجاج القادمون من الأندلس وشمال إفريقية أن ينزلوا مصر ويأخذون طريق النيل إلى مدينة قوص ، ومنها إلى ثغر عيذاب حيث يركبون البحر إلى البلاد الحجازية . فترتب على ذلك أن عظمت أهمية مدينة قوص واتسعت وكثرت بها المدارس والمعاهد وراجت فيها سوق العلم والأدب وظهر فيها كثير من المحدثين والنحويين والفقهاء والأدباء والشعراء . وقد مر بها ابن جبير الأندلسى ووصفها بأنها حفيلة البنيان . ومر بها عمارة اليمنى الشاعر المشهور عدة مرات . وقد ذكرت قوص وكذا ثغر عيذاب فى كتب كثيرة . وقد شكا ابن جبير من أهل عيذاب مر الشكوى حيث يقول « ... [1] ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب وهى المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحد ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح . هذا مثل متعارف بينهم ، فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة . والأولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق » .

---

(١) رحلة ابن جبير : طبع ليدن .

الباب الثانى
أثر الحروب الصليبية
فى الأدب العربى

مقدمة :

كان الأدب العربى فى مصر قبيل الحروب الصليبية أدبا فاطميا يقوم لخدمة الدعوة الفاطمية وتثبيت أركانها . وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بكثير من المواسم والأعياد ويظهرون فى مواكب مختلفة ويجتهدون فى إدخال الفرح والسرور على الناس . وقد ظهر أثر ذلك فى الأدب والفن ظهورا واضحا .

الأدب الفاطمى شعرا كان أو نثرا يكثر فيه ذكر المعتقدات الفاطمية فى الإمامة والإمام . والخليفة الفاطمى هو القطب الذى يدور حوله كل شىء . وهذا الأدب خلو من العواطف التى تدفع الكتاب والشعراء إلى التجويد فى القول والإبداع فى النظم ، وشتان بين أدب ينطق به مأجور وبين أدب الحروب الصليبية الذى تنطق به عواطف متاججة فى الصدور ، وتسيل به قرائح مفعمة بالإحساس والشعور .

والأدب الفاطمى يغلب عليه الطابع العقلى . فالشاعر أو الكاتب أمام دعاوى ومبادىء يريد أن يقيم البراهين على صحتها ، ويسوق الأدلة الكافية ليصل بذلك إلى درجة الإقناع . فهو كما ترى يسخر ذهنه

ويستغل تفكيره . أما أدب الحروب الصليبية فمختلف كل الاختلاف كما يظهر لنا عند الكلام عن النثر والشعر .

أما الشام فكان نصفه الجنوبى خاضعا للخلافة الفاطمية والنصف الشمالى يحكمه أمراء من الأتراك لا يفهمون الأدب العربى ولا يحفلون به .

والآن بعد أن درسنا الحالتين الحربية والاجتماعية التى تعرضت لهما البلاد المصرية والشامية خلال الغزوات الصليبية ، نستطيع أن ندرك إلى أى مدى تأثر الأدب العربى بهذه الحروب التى كانت بالنسبة للمسلمين مسألة حياة أو موت . إما أن ينتصر المسلمون فيعيشوا آمنين مطمئنين على حياتهم وبلادهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وكل ما يقدسون من معتقدات وآراء ، وإما أن يقضى عليهم فتذهب كل مقومات حياتهم من دين وأخلاق وعادات ، ويندرس ماضيهم المجيد تحت سنابك خيول الإفرنج ، وتغدو المساجد كنائس ويخفت صوت المؤذن ويرتفع صوت الناقوس ، ويختفى القرآن ويظهر الإنجيل ، وتذهب اللغة العربية لتحل محلها لغة اللاتين ، وتعنو جباه المسلمين للغزاة الفاتحين الذين جاءوا لاستعمار جهات آسيا الغنية التى تفيض لبنا وعسلا .

فالأمر هنا أمر عاطفة دينية جبارة لا تعرف الرفق ولا الهوادة ، والأدب الذى أنتجته هذه الحروب هو فى جملته أدب عاطفى قوى تغذيه عاطفة الدين وعاطفة الجنس وعاطفة اللغة .

فللحروب الصليبية الأثر البين فى الأدب العربى نثره ونظمه . وسأفصل القول فى الكلام على أثرها فى النثر ، ثم أتبع ذلك ببيان أثرها فى الشعر .

الفصل الأول

أثر الحروب الصليبية

فى النثر

١

الخطـــابة

كان من الطبيعى أن تروج سوق الخطابة إبان الحروب الصليبية . ذلك لأن الحاجة كانت ماسة إلى استخدامها فى التحريض على الجهاد والكفاح فى سبيل الدين والترغيب فى قتال الكفار أعداء الإسلام . ووصف ما أعده الله من ثواب لمن يقاتل فى سبيله ، والترهيب من التقاعد عن جهاد أعداء المسلمين ، وبيان عدم رضاء الله عن هؤلاء القاعدين الذين يفرون من أقدس ما فرضه الله عليهم ، حيث لا ينفعهم الفرار ولاينجيهم من الموت .

وقد كان فتح القدس على يد صلاح الدين ودخول المسلمين المسجد الأقصى بعد أن لبث فى يد الصليبيين مائة عام وحيا للخطباء ألهمهم البليغ من القول . وفى هذا المقام يقول العماد الأصفهانى :

... [1] وانتدب الخطباء وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون بالحصافة ، فما فيهم إلا من خطب الرتبة ، ورتب الخطبة ، وأنشأ معنى شائقا ، ووشى لفظا رائقا ، وسوى كلاما بالموضع لائقاً ، وروى مبتكرا من البلاغة فائقا ، وفيهم من عرض عليّ خطبته ، وطلب منى نصبته ، وتمنى أن ترجح فضيلته ، وتنجح وسيلته ، وتسبق أمنيته فيها منيته .

وقال فى موضـع آخر :

« ... [2] وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير ، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن على بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا ، ومن سعد ومن شقى ، ومن هلك ومن نجا ، وخوف بالحجة ذوى الحجا ، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات مادجا ، وأتى بكل عظة للراقدين موقظة ، وللظالمين محفظة ، ولأولياء الله مرققة ، ولأعداء الله مغلظة ، وضج المتباكون ، وعج المتشاكون ، ورقت القلوب ، وخفت الكروب ، وتصاعدت النعرات ، وتحدرت العبرات ، وتاب المذنبون ، وأناب المتحوبون ، وصاح التوابون ، وناح الأوابون ... »

وقال فى موضع آخر :

« ... [3] وذكر (أى زين الدين) الفتح وبكارته ، والقدس

---

(١) الفتح القسى ص ٦٢ طبع ليدن .

(٢) الفتح القسى ص ٦٣ طبع ليدن .

(٣) البرق الشامى نقلا عن الروضتين ص ١١٠ ج ٢ وادى النيل .

وطهارته ، والدين وجسارته ، والكفر وخسارته ، والقدر وإعانته ، والظفر وإبانته والصخرة وصراخها ، والروعة وإفراخها ، والنار وسراطها ، والقيامة وأشراطها ، والرحمة وبابها من الرحمة ، والجنة وجناها لهذه الأمة ، وما أعده الله لهذه الطائفة ، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة ، ووصف ببلاغته مالا يبلغ إليه نطق الألسنة الواصفة ، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله ، والخير ودلائله ، والنجح ووسائله ، والشرع ومسائله ، والذنب وغوائله ، وإحسان السلطان وفواضله ، والبحر وساحله ، والدين وحقه ، والكفر وباطله ، وكان يوما راجحا ، وسوقا رابحا » .

غير أن هذه الخطب التى قيلت فى صدد الحروب الصليبية لم يصلنا منها سوى قليل ، وأهمها تلك الخطبة التى ألقاها القاضى محيى الدين فى المسجد الأقصى فى أول صلاة للجمعة أقيمت فيه عقب دخول المسلمين بيت المقدس . وكان السلطان صلاح الدين حاضرا فى هذه الصلاة .

افتتح القاضى [1] محيى الدين خطبته بهذه التحميدات .

فقطع دابر القوام الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . الحمد لله الذى خلق

---

(١) هو أبو المعالى محمد بن أبى الحسن . ولد بدمشق عام ٥٥٠ وتوفى بها ٥٩٨ . وكان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما . وله النظم المليح والخطب والرسائل ، ولى القضاء بدمشق عام ٥٨٨ هـ ولما فتح السلطان حلب عام ٥٧٩ أنشد قصيدة جاء فيها :

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر ... مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان كما قال فقد فتحت القدس فى رجب عام ٥٨٣ هـ .

السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا الآية . الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب . قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . الحمد لله فاطر السموات والأرض .

والخطبة هى :

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه . وأشهد أن محمدا ﷺ عبده ورسوله ، رافع الشك ، وداحض الشرك وراحض الإفك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وماطغى . ﷺ وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستعمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه ، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام . وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحى ومنزل تنزل الأمر والنهى . وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » ، وقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » . وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهده الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام

القادسية والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء ، وشكرلكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء . فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة . فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون . فماذا [1] عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة النُّبُوَّةِ أعلام الإيمان فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونص عليه فى خطابه ، فقال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله .. الآية » . أليس هو البيت الذى عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب؟ أليس هو البيت الذىأمرالله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم فى التيه عقوبة للعصيان ؟ فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته

---

(١) كذا فى الأصل .

كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لاهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ماأهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث . فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده . وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد . لا والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم . وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم . اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض من الملة التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله . فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة

المحمدية . الله أكبر فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر . أذل الله من كفر . واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال الله تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده .

ثم قال بعد الدعاء للخليفة :

« اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبا المظفر يوسف بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين . اللهم عُمَّ بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيف جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووقِّ للإيمان حوزته ، وانشر فى المغارب والمشارق دعوته . اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يده أدانى الأرض وأقاصيها ، وملكه صياصى الكفرة ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة

إلا فرقها ، ولا طائفة إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء المماليك وأكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وأثب سرايا جنوده فى سبل الأقطار . اللهم ثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أيوب الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام ، هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعاءه فى قوله « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

☆ ☆ ☆

فإذا نظرنا إلى هذه الخطبة على أنها أنموذج للخطب فى ذلك العصر وجدنا أنها تنقسم إلى الأقسام الرئيسة الآتية :

بدأ الخطيب كلامه بحمد الله الذى نصر دينه وأظهره على الدين كله ، وطهر بيته المقدس من أدران الشركِ وأوضار الكفر .

ثم تحذير للمسلمين من الاغترار بهذا النصر لأنه من عند الله . وبيان مزايا المسجد الأقصى وفضائله ، والإشادة بما أعده الله من ثواب لهؤلاء الذين بذلوا مهجهم فى قتال الكفار .

ثم حث المسلمين على مواصلة الكفاح ومداومة الجهاد ، حتى يعود الشام إلى أهله وتنقرض دولة الصليبيين وتزول من الشرق الإسلامى .

ثم الدعاء للسلطان الذى قاد المسلمين إلى هذا النصر العظيم .

☆ ☆ ☆

ووصلنا من هذا العصر بعض خطب دينية ألقيت فى المساجد أيام الجمع والأعياد . منها ديوان خطب لابن نباتة المصرى . وهى خطب قصيرة تدور حول شىء واحد ، وهو تزهيد الناس فى الدنيا ، وترغيبهم فى الآخرة ، وتحذيرهم من عذاب يوم الدين وأهواله .

وفى كتاب « الفوائد الجلية ، فى الفرائد السلطانية » خطبة أنشأها الملك صلاح الدين أبى المفاخر داود بن الملك المظفر عيسى ، وذلك فى رمضان سنة ٦٤٦ هـ .

« ..[١] وأمر بعض الخطباء فجودها بين يديه لفظا ، ثم أحكمها فى ليلة واحدة حفظا وخطب بها بحضرته على رءوس الأشهاد يوم العيد ، فأقامت على العقول شواهد التنزيه ودلائل التوحيد ، وردت شوارد القلوب بصادق الوعد وزاجر الوعيد ..»

ومما جاء فى هذه الخطبة :

الحمد لله العلى شأنه ، الخفى برهانه ، الجلى إحسانه ، الأزلى سلطانه ، الأبدى جوده وامتنانه ، الحكيم الذى لا موجود إلا على سنن

---

(١) الفوائد الجلية ، فى الفرائد الناصرية (تصوير شمسى)

إرادته وحكمه ، العليم الذى لا يعزب شىء عن واسع علمه ، الكريم الذى شملت بوادى أسباب رحمته ، المنفرد بالبقاء فى عز ملكوته ، المتوحد لاستحقاق الثناء فى لاهوته ... »

وهكذا لا تجد فى هذه الخطبة على طولها سوى تنزيه الله وتوحيده وتمجيده وتقديسه ، وحث الناس على طاعته ، وتحذيرهم من عواقب ما يرتكبون من المعاصى .

☆ ☆ ☆

وأظن أننا لسنا فى حاجة إلى عقد موازنة بين الخطابة فى عصر الحروب الصليبية وبينها قبيل تلك الحروب . أجل ! لم تصلنا خطب مما قيل قبيل الغزو الصليبى للشرق ، حتى نستطيع أن نقارن بينها وبين ما ظهر فى عصر الحروب الصليبية . ولكن فى مقدورنا أن نتصور هذه الخطب ، وما يمكن أن تكون عليه فى ظل الخلافة الفاطمية . فهى تدور حول الإمامة والإمام ، والدعوة إلى الخضوع التام للخليفة الفاطمى الذى هو ظل الله فى أرضه . ولم يكن هناك جهاد أو كفاح يستدعى الخطابة . وفضلا عما تقدم فإن العواطف قد انعدمت ، والمشاعر قد اختفت .

٢
الرســـائل

كانت الحروب الصليبية سببا فى ازدياد ثروة الأدب العربى من الرسائل زيادة كبيرة ، وهذا أمر طبيعى فظروف الحرب حتمت على ملوك المسلمين أن يتبادلوا الرسائل المختلفة لطلب نجدة ، أو لشكر

على إسداء معونة ، أو للبشارة بفتح حصن أو مدينة ، أو تحذير من التهاون فى الجهاد ، والتماس الوقوف للعدو بالمرصاد . وكانت الرسائل تصدر فى أسلوب بليغ وعبارات من الفصاحة فى الدرجة العليا . وقد ساعد على ذلك أن تولى تحريرها قوم ممن ملكوا ناصية البلاغة ، وتسنموا الذروة العليا فى البيان ، ونالوا القدح المعلى فى فن القول ، كالقاضى الفاضل والعماد الأصفهانى وغيرهما من أمراء البيان .

كان القاضى الفاضل مقيما فى مصر ، يشرف على أمورها بنفسه ، ويعد الجيوش ويسيرها إلى الشام برا وبحرا ، وكان صلاح الدين يقود جيوشه فى ساحات القتال ، فتصل إليه رسائل القاضى الفاضل ، منبئة بكل ما يهم السلطان الاطلاع عليه ، ومشجعة له على مواصلة الكفاح فى سبيل الله ، حاثة له على الصبر على الشدائد والآلام التى يصادفها فى حربه مع الصليبيين ، ناصحة ومحذرة ، ومرشدة ومبصرة ، ومبشرة ومذكرة . وكان صلاح الدين يأخذ برأى القاضى الفاضل ، ويعمل بمشورته ، ويسمع لنصائحه . لذلك كان القاضى كثير الكتابة إلى مولاه ، وأنت تلمح فى رسائله روح الصدق والإخلاص لسيده ، والغيرة الشديدة على مصلحة الإسلام والمسلمين .

وكان العماد الأصفهانى ملازما لصلاح الدين بالشام ، فكانت الرسائل تصدر على لسان السلطان بقلم العماد إلى مصر والعراق واليمن ، مبشرة بما فتح الله به على المسلمين من نصر ، وأفاء عليهم من خير ، وكان فتح القدس مجالا كبيرا لتبادل كتب التهنئة بين المسلمين ملوكهم وعظمائهم ، وكان صلاح الدين يهتم بأسلوب هذه الرسائل اهتماما كبيرا . من ذلك أن العماد الأصفهانى كان قد مرض وذهب إلى دمشق

طلبا للراحة ، وهناك سمع بفتح بيت المقدس ، فاستخفه الطرب . فشد رحاله ، وسار إلى السلطان . قال العماد :

« ... [1] فوصلني السلطان عند وصولى بأجلى بشاشة وأحلى هشاشة ... وقال : أين كنت ولم أبطأت ... وقد كنا فى انتظارك والسؤال عن أخبارك ... وهذا أوان إحسانك ... فأجر بنانك ، بجرأة بيانك ، واجر فى ميدانك وما للبشائر إلا واصفها ، وللفرائد إلا راصفها ... وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على إنشاء كتب ما ارتضاها ، واقتضاب معان مااقتضاها . وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز ، فقال لهذا من هو أقوم به ، وعنانى . فلما رآنى نادانى واستدنانى ... وسلم إلى الكتب التى كتبوها ، بالألفاظ التى رتبوها ، وقال : غيرها ولا تسيرها ... فشرعت فى افتضاض الأبكار ، واقتضاء الأفكار ... وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز ، وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ، ووشحت ووشعت ، وشبعت وأشبعت ، وأطلت وأطنبت ، وصبت وأصبت ، وأعجزت وأعجبت ، وأطربت ، وأطربت ، وأبعدت وأبدعت ، ورصعت وصرعت ، وطابقت وجانست ، ووافقت وآنست . وبينت فضل عصر الإمام الناصر على الأعصار السابقة ، بالأبصار الصادقة . وأن هذا الفتح ادخره الله لزمانه ، ومكن منه لمكانه ، وسلط عليه بسلطانه ، وحسنه لنا بإحسانه .. وذكرت من هذا كل ماراق وشاق ، ونور الآفاق ... وكتبت إلى كل ذى طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف ، وسهرت تلك الليالى ، حتى نظمت اللآلى ، وحليت المعالى ، وتَرَّحْت المعادى وفرحت الموالى ، وسارت شواردى

---

(١) ص ٥٨ وما بعدها من الفتح القسى ط . ليدن .

إلى المشرق والمغرب ، معربة عن هذا الفتح المعرب ، عن النصر المذهب ... الخ » .

وهذه رسالة العماد إلى ديوان العزيز[1] ببغداد ، للبشارة بفتح القدس : « قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم . والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الكريم ، والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ، ليكون بها تاريخ الفخار ، فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته ، وافتضاض عذرته . وخص من أجراه على يده بسمو قدره . ونمو قدرته وأعاد به القدس إلى قدسه ، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع الإسلام الغريب إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من سراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت المخاوف بها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد أقصى من المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون . وتوافد عليه المصطفون الأقربون ، والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره ، فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عذبها « نصر من الله وفتح قريب » وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين ، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين ، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى ، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدى . وصافحت الأيدى منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة

---

(١) ديوان الخلافة .

والرسالة ما كان لها فى القدم . فهو ثانى المسجدين ، بل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس ، وتضوع أرج الرجاء فى أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذى أبدل الإيحاش بالإيناس . ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس . وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه على الأعصر مفضلا ، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه **فأصبح** فخر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها . ولقد حل الكفر عروة عروة ، وهد ذروة ذروة ، وعادت حباله أرثاثا وعقوده أنكاثا ، ومساكنه جداثا وصار حديثا بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثا ، فالرتاج مستفتح ، والرجاء مستنجح ، والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصة ، والعقائل مفتضة ، والمعاقل منفضة ، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة ، والثغور منتظمة ، والحصون متسلمة ، والخصوم مذعنة مستسلمة ، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولى على أوساطها وأكنافها ، ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها ، ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين ، وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة وإن خصت هذا الإقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمة ؛ ولو شرح مالهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ فى مضمار البيان ولم يبلغ المدى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ... » .

ذلك كتآب من الكتب التى أنشأها العماد بمناسبة دخول المسلمين القدس ، والتى يقول إنه سهر فى إنشائها الليالى ، لنظم اللآلى . وأورد فيها المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ، ووشح ووشع ، وأطال وأطنب ، وأعجز وأعجب ، وأطرى وأطرب وأبعد وأبدع ، ورصع وصرع ... إلى آخر ما قال . وأسلوب العماد قوامه المحسنات اللفظية : من حرص على السجع والجناس والمقابلة والمطابقة والاستعارات ، وهذا هو الأسلوب الذى كان محبوبا فى عصره ، والذى أغرم به المنشئون . وقد أضرت هذه الطريقة الإنشاء العربى ضررا بليغا فأفقدته المعنى ، وجعلته مجرد ألفاظ يجمع بعضها إلى بعض . وجعلت المنشىء العربى يدع المعانى جانبا ، ويقصر كل همه على الألفاظ ، يجهد نفسه ، وينفق وقته فى تنسيقها وترتيبها ورصفها حتى تأخذ المظهر الذى يريده لها وإن لم يكن من ورائها معنى شريف يقصد إليه ، فالحرص على الجناس والمطابقة والمقابلة والسجع هى التى تسيطر على الكاتب ، وتجعله يخضع المعنى لمشيئة الألفاظ .

ومن رسالة أخرى للعماد إلى الديوان العزيز يذكر فتح طبرية وعكا والزيب وتبنين والناصرة وغيرها من الحصون .

.. وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب به وجه الإسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر على الإقدام ، وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به القبضة ، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، ونكصت

من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها ، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر .

وفى هذه الرسائل تتجلى العاطفة الدينية فى أجلى مظاهرها ، فلا يترك الكاتب عبارة من العبارات التى تهز مشاعر المسلمين إلا أتى بها وكررها وأعادها فى صور شتى وألفاظ مختلفة ؛ فهو ينوه بانتصار الاسلام والمسلمين ، ويظهر الشماتة والسرور لخذلان الكافرين .

ننتقل بعد ذلك إلى القاضى الفاضل . ورسائل هذا الرجل إلى صلاح الدين كثيرة . وهو لم يلتزم طريقة العماد الأصفهانى فى الكتابة . إنما كان يسير فى تحرير الكتب حسب مقتضيات الظروف ، وهو حريص على أن يوضح لسيده فى أسلوب سهل كل ما يهمه من أمور البلاد . لذلك لم يتقيد بالمحسنات اللفظية بل أطلق قلمه على سجيته . فكثير من كتبه التى بعث بها إلى السلطان هى مكاتبات عليها الصبغة الحكومية أكثر من الصبغة الأدبية وإن كانت مصوغة فى قالب أدبى سهل لا أثر فيه للتكلف أو التعقيد .

من أمثلة ذلك ما جاء فى إحدى رسائله إلى صلاح الدين :

.. وبينا نحن نعتقد أن البطس فى عكا وصل الخبر بأنها فى دمياط ، ويوم وصل الخبر بأنها فى دمياط نحن على انتظار خروجها منه وكتب البطائق بالإستحثاث والاستعجال ، وتحذيرهم من تمادى المقام ، وما تيقنا أخرجت أم هى باقية كالريح فى بيت ما خرجت من هاتين الجمعتين ولها من تاريخ خروجها من الإسكندرية وإلى تاريخ

تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة والأيدى مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها . فمن شبع فى هذه الأيام فما واسى المسلمين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من إخوة المؤمنين . والمملوك شفيق على البطس فى وقت الدخول ، حذر أن يعترض العدو طريقها فيحول بينها وبين الوصول ، فينعكس المراد بها ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف ما يحدث من النعمة بالفرج المسير فيها . وأكد هذه الحال فى نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا وقد وقع لهم هذا الواقع الذى وقع للمملوك ، من خوفهم عليها واستبعادهم دخولها . فما المملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط : رب سلم ، رب سلم . فنسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع ، ومجهود أهل الأرض قد انتهى ، وبقى ما يفعله الله ، والخير منتظر منه والفرج بالقوت قد سير فى البحر منذ خمسة عشر يوما ، والفرج بالنفقة قد سير فى البر من عشرة أيام . والله يا مولانا ما تنجز شىء من هذه الأمور إلا بأن تضرب الوجوه بالشوك ، وتستحلب الحجارة وينبه النوام ، وتبح الأصوات من التذكار ، وتحفى الأقلام من الكتابة ، وتخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه ، والله المستعان ، فليخلص المولى نيته فى الاستعانة ، والأعوان قليل .

وقد كانوا إذا عدوا قليلا فقد صاروا أقل من القليل

☆ ☆ ☆

هذا مثل من أمثلة ما كان يكتبه القاضى الفاضل إلى السلطان . وأنت ترى أن الكاتب كان حريصا على الوصول إلى غرضه من أقرب الطرق وأيسر السبل ، فلا سجع إلا ما أتى عفوا . والقاضى يهتم بذكر

المسائل الخطيرة التى تعنى السلطان ، فى أسلوب سهل وعبارات واضحة .

☆ ☆ ☆

ومن كتاب آخر له :

« المملوك يوصى المولى بالإسلام . والإسلام هو قلب المولى ، فيروحه ولا يحمله ، ويشغله بما يثقله . ويوصى المولى بقلوب المسلمين . وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله . من علم أنه لا توفية عنده لرواتب الحياة اشتغل قلبه واستطار لبه ، وضعفت نفسه . فبحسب المولى من جهاده تفقد جسمه وآلات مطعمه وترويح خطراته . فقد بلغ المملوك من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الإثم فيه ، وإنما نتجشم كل مشقة لنسلم منه ، ونحن فى ضر قد مسنا ، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلى به ، وفى طوفان فتنة ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا ، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا ، ولله قدر لا سلاح لنا فى دفعه إلا أن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد أشرفنا على أهوال « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » . وقد جمع العدو لنا . وقيل لنا اخشوه فقلنا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم ، وليس لنا إلا الاستعانة بالله . فما دلنا الله فى الشدائد إلا على الدعاء له وعلى طروق باب كرمه . وعلى التضرع إليه « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم » . ونعوذ بالله من القسوة ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ؛ ولا حيلة إلا

بترك الحيلة . بل قصد من تمضى أقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم فيعذرهم المولى ؛ وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا فى نصرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله . والمملوك يذكر المولى بصبره ، وبرحب صدره ، وبفضل خلقه ، وبتقواه لربه ، وبمداراة مزاجه ، وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه . وإن كان كبر عليك إعراضهم الآية إلى لو شاء الله لجمعهم على الهدى . والمولى أولى بهذا البيت :

لا بَطِرِ إن تتـــــــابعت نعم   وصـــــابر فى البـــلاء محتسب

قيل للمهلب : أيسرك ظفر ليس فيه تعب ؟ فقال : أكره عادة العجز . ولا بد أن تنفذ مشيئة الله فى خلقه لا راد لحكمـه ، فلا يتسخط مولانا بشىء من قدره . فلأن يجرى القضاء وهو راض مأجور ، خير من أن يجرى وهو ساخط موزور ، فيصطلى نار الشدة أعاذه الله منها ولا يجد راحة لثواب وفّر الله حظه منه . من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مُشتكَى ، واستغاث بقادر . ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة . فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا ، ولا يقطع الظهور التى لا تشتد إلا به ، ولا يضيق صدورا لا تنفرج إلا منه . وما شرد الكرى وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا ، ولم يبق إلا ضعف ، نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر ، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا برب الدهر ، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر ، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر .

قـــــد قلبت للرجـــل المقسم أمره   فوض إليه تنم قرير الأعين [1]

---

(١) الأصل : العين .

وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغرا يصير نصرانيا بعد أن أسلم ، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم . ياмولانا هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التى ينادى فيها : يا خيل الله اركبى ، وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرءوس ، وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها ، هى نعمة الله عليك ، وغراسك فى الجنة ، ومحصلات محضرك يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا ، وهى مجوزاتك على الصراط ، وهى مثقلات الميزان ، وهى درجات الرضوان ، فاشكر الله عليهما كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر .

ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : (لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما أركب) . وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع فى اللحاق بالغبار ، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار . ما استعمل الله فى القيام بالحق إلا خير الخلق ، وقد عرف ما جرى فى سير الأولين وفى أنباء النبيين ، وأن الله تعالى حرض نبيه ﷺ على أن يهتدى بهداهم ، ويسلك سبيلهم ويقتدى بأولى العزم منهم ، وما الجنة بثمن ، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا ؛ وكأن ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم . وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يضعف به جسمه ويضر مزاجه . والأمة بنيان ، وهو أبقاه الله قاعدته ، والله يثبت تلك القاعدة القائمة فى نصرة الحق . ومما يستحسن من وصايا الفرس : « إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز » وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع ،

ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لا نصرف همه وكفى خطبه ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه ، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هو بإيمانه . وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلا على قوة إلا على قوته . فهنالك الفرج ميعاده ، واللطف ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقل متى نصر الله ، وليصبر فإنما خلق للصبر ، بل ليشكر فالشكر فى موضع الصبر أعلى درجات الشكر ، وليقل لمن ابتلى أنت المعافى ، وليرض عن الله سبحانه ، فان الراضى عن الله هو المسلم الراضى . فأما أخبار فتنة بلاد العجم ، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ، « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

☆ ☆ ☆

فأنت ترى أن لرسائل القاضى الفاضل بجانب أهميتها الأدبية ، أهمية تاريخية . فهى تسجل لنا فى دقة ووضوح الحالة النفسية والسياسية والاجتماعية والحربية والأخلاقية التى كان مسلمو مصر والشام يتقلبون فيها ويعيشون فى أكنافها . ويدلنا مضمون هذه الرسالة على أنها كتبت فى فترة ضيق شديد ألم بالمسلمين ، فأطال القاضى الكلام عن الصبر ومزاياه ، وضرب لذلك الأمثال بقول عمر وبحكم الفرس وبغير ذلك مما ساقه من الشواهد والعبر وهو يخشى على السلطان مما يحمل من الهموم ، فيشير عليه بأن يرعى جسمه وصحته ، لأن فى حياته حياة المسلمين ، وفى بقائه ما يكفل النصر للإسلام وأهله . ويذكر للسلطان بألا مانع من مهادنة العدو على شريطة ألا ينزل له عن بلد من بلدان المسلمين ، ولا ثغر من ثغورهم .

وقد امتاز القاضى الفاضل بتفكير سليم ورأى سديد ونظر صائب ، لذلك كانت رسائله موضع اهتمام السلطان ولها عنده المحل الأول .

نرى مما تقدم أن الرسائل فى عصر الحروب الصليبية كانت منبعثة عن عواطف قوية وشعور فياض . وشتان بين هذه الرسائل وبين ما كان شائعا قبيل هذه الحروب .

٣

الوثائق السياسية

نعنى بالوثائق السياسية المنشورات والأوامر والمراسيم التى كانت تصدر من ملوك المسلمين وحكامهم خلال هذه الحروب ، وكذلك الاتفاقات التى كانت تبرم بين ملوك المسلمين وملوك الصليبيين . وكان من الطبيعى أن تكثر هذه الوثاق فى فترة الحروب الصليبية كثرة عظيمة . وقد جمع محمد بن المكرم وهو أحد كتاب الإنشاء فى أيام المنصور قلاوون وصاحب لسان العرب عدداً كبيراً منها فى كتاب سماه « تذكرة اللبيب ، ونزهة الأديب » .

ونلاحظ أن العاطفة الدينية قد تجلت فى كثير من هذه الوثائق السياسية ، ونرى أن الكاتب ينتهز كل فرصة ويغتنم كل مناسبة للإشادة بفضائل الإسلام التى لا تحصى ، وبمزايا الملة المحمدية التى لا تستقصى ، كما يذكر من عيوب الديانات الأخرى لا سيما المسيحية كل ما يعرفه ويفرغ فى ذلك جهده . ولنضرب للقارىء مثالا لما نقول وهو

فقرة من مرسوم بتحويل السنة القبطية إلى السنة العربية ، كتبه القاضى الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى وهو :

...... وكان الله تعالى قد أجرى أمر هذه الأمة على تاريخ منزه من اللبس ، موقر عن الكبس ، وصرح فى كتابه العزيز بتحريمه ، وذكر ما فيه من تأخير وقت النسىء وتقديمه . والأمة المحمدية لا ينبغى أن يدركها الكسر كما أن الشمس لا ينبغى أن تدرك القمر ، وسننها بين الحق والباطل فارقة ، وسنتها أبدا سابقة والسنون بعدها لاحقة ، يتعاورها الكسر الذى يزحزح أوقات العبادات عن وضعها ، ولا يدرك عملها إلا من دق نظره واستفرغت فى الحساب فكره ، والسنة العربية تقطع بخناجر أهلتها الاشتباه ، وترد شهورها حالية بعقودها موسومة الجباه ، وإذا تقاعست السنة الشمسية عن أن تطأ أعقابها ، وتواطىء حسابها اجتذبت قراها قسرا وأوجبت لحقها ذكرا وتزوجت سنة الشمس سنة الهلال وكان الهلال بينهما مهرا ، فسنتهم المؤنثة ، وسنتنا المذكرة ، وآية الهلال هنا دون آية الليل هى المبصرة ، وفى السنة العربية إلى ما فيها من عربية الإفصاح وراحة الإيضاح الزيادة التى تظهر فى كل ثلاث وثلاثين سنة توفى على عدد الأمم قطعا . وقد أشار الله بقوله : (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) . وفى هذه السنة الزائدة زيادة من لطائف السعادة ، ووظائف العبادة لأن أهل ملة الإسلام يمتازون على كل ملة بسنة فى نظير تلك المدة ، قصدوا صلاتها ، وأدوا زكاتها ، وحجوا فيها البيت العتيق الكريم ، وصاموا فيها الشهر العظيم ، واستوجبوا فيها الأجور الجليلة ، وأنست فيها أسماعهم بالأعمار الطويلة ، ومخالفوهم فيها قد عطلت صحائفهم فى عدوانهم وإن كانت عاطلة ، وخلت مواقفهم فى أديانهم وإن لم تكن قط آهلة .

فأنت ترى أن الكاتب اتخذ من أمر صلاح الدين بتحويل السنة القبطية إلى السنة العربية فى دواوين الحكومة ومصالحها - فرصة لإطراء الإسلام والمسلمين ، والتغنى بما كتبه الله لهم من السعادة والهناءة والخير العميم . وشرع يعدد مناقب السنة القمرية ومزاياها ويذكر أن الله فضلها على السنة الشمسية ، ولم يدخر وسعا فى الزراية بالمسيحية والمسيحيين .

☆ ☆ ☆

وصدر مرسوم بتولية أحد القواد ثغر عسقلان جاء فيه :

« ...... وكانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - ثغر الإسلام الذى لا ثغر له فى الشام سواه ، والرباط الذى من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه . وهو فى عيون الكفار - خذلهم الله - نكنة . وأسباب طمعهم فيه منقطعة بمحاماته منبتة ، ونحن نوفر اهتمامنا عليه رعاية لمكانه المكين ، وننتصى [1] الكفاة لتوليه توصيلا إلى النكاية فى المشركين . وهو معقل للمسلمين المجاهدين ورد . ومجاوروه قوم لد ، وأمرهم أمر إد . فيجب أن يرتاد لضبطه الندب الذى لا تهتبل غرته ، ويسام لحفظه العضب الذى لا تتقى ضربته . ويختار لصونه الشهم الذى تقف على المصالح همته ، وتنفذ فيها عزمته.

فتقلد هذه الخدمة عارفا قدر ما خولت منها ، وعاملا بتقوى الله وخيفته فى جميع ما تامر به وتنهى .

---

(۱) انتصى : اختار.

... وهذا الثغر لمحله وسمو مقداره ، وقرب العدو منه ودنو داره ، لا يقنع له بمركزيته ، ولا يكتفى فى حقه بمرابطيته وقراريته ، فنحن نسير إليه العساكر المظفره دفعتين فى كل سنة على حكم البدل ، فيرده عسكر جديد مزاح العلة ، كثيف العدة وافر العدة ، يؤثر أن يظهر أثره ويحافظ على ما يطيب به ذكره وخبره ، فبث السرايا وشن الغارات ، وضيق على العدو فسيح النواحى والجهات ، وجهز إليه من يخيفه فى مآمنه ، وابعث عليه من يطرقه فى أحراز أماكنه ، واندب من يطالعك بخفى أخباره ويظهر لك باطن أموره ومستور أسراره ، لتنتهز فيه الفرصة إذ لاحت مخايلها ، وتبادر الغفلة منه إذا ظهرت دلائلها . واجعل للمتطوعين من الكنانيين نصيبا من ثواب الجهاد ، واحملهم على استفراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد . وافعل فى هذا الباب ما تتضاعف به مواد الأجر ، وتنتسخ به الأوزار كما ينتسخ الظلام بضياء الفجر .

فترى من هذه الفقرة عظم أهمية ثغر عسقلان عند المسلمين حتى أن الحامية الإسلامية بها كانت تستبدل بغيرها من حين إلى حين ، وذلك راحة للجند وضمانا لنشاط المدافعين وحفظا لحالتهم النفسية من التدهور والانحطاط . كما أن هذا المرسوم طلب من حاكم الثغر أن يسهر على حمايته من الكفار ، ويبث العيون لتأتيه بأسرارهم فيكون على علم بحركاتهم فلا يؤخذ على غرة .

☆ ☆ ☆

وهذه فقرة من مرسوم صدر بعد جلاء الصليبيين عن الشام بوقت قصير . وبمقتضاه أسندت ولاية الديار الشامية إلى الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى .

الحمدلله الذى جعل الدين فى أيامنا الزاهرة زاهيا بجماله ، ساميا بتقديم من إذا أرهف فى الذب عنه بسيف عزمه غدت الجنة تحت ظلاله ، راقيا على هام الكفر بعزائم من لا يزال تصبح مهابته العدا بطلائع خيله وتبيتهم بطوارق خياله .

وبعد ، فإنه لما أجرانا الله عليه من عوائد نصره ، وأغرانا به من حصد الشرك وحصره ، ومنحنا من بسطة ملك زينت بها أسارير البسيطة وأسرتها ، ووهبنا من فواتح فتوح علت على وجوه الكفر مساءتها وبدت على وجوه الإسلام مسرتها ، لم نزل نؤدى شكر نعم الله بالإحسان إلى عباده ، ونستزيد منها بتفويض أمورهم إلى من يقوم فى الذب عنهم مقام الجيش على انفراده ، فلا نقدم على الرأفة بخلق الله أمرا ، ولا نحابى فى بسطة العدل عنهم زيدا ولا عمرا ، ولا نعدل بهم عمن إذا ركب فى موكب نيابتنا زانه وجمله ، وإذا جلس على بساط عدلنا زاده وكمله ، وإذا رسم بأمرنا أصغت السيوف إلى مراسمه ، وإذا نظر بعين عنايتنا ثغرا أهدى الشنب إلى مباسمه ، وإذا رام فى مصالح الإسلام أمراً قرب على رأيه بعيده ، وإذا رمى فى حماية المماليك عدوا سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده ، وإذا جرد جيشنا إلى أعداء الإسلام جرت قبل اللقاء ذيول هزائمهما ، ورأت الفرار أمنع لها من صوارمها .

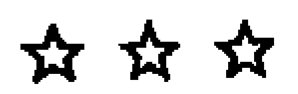
ولما كان الجناب العالى الفلانى هو معنى هذه الفرائد ، وسر هذه الأوصاف التى للشرك فيها مصائب هى عند الإسلام فوائد ، وفارس هذه الحلبة التى أحرزت قصب سبقها . وكفء هذه الرتبة التى أخذها دون الأكفاء بحقها ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجده « وما ليل المجد بنائم » ، يسرى إلى قلوب الأعداء رعبه وهو فى مكانه ، وتؤدى مهابته فى نكاية الكفر فرض الجهاد قبل إمكانه .

ولما كانت المملكة الشامية المحروسة من المماليك الإسلامية بمنزلة القوة فى اليمين ، والواسطة فى العقد الثمين والإدراك فى الصدور والإشراق فى البدور . وبها الأرض المقدسة ، والحصون التى هى نكاية على الأعداء مؤسسة ، ولها الجيوش التى ألفت فى الجهاد السرى ، وألفت لسيوفها فى الجفون الكرى ، ومرت على مقاتل العدا أسنتها وصرفت فى مسالك الحرب أعنتها ، وراعت ملوك الكفر سمعة أمرائها ، وحاطتها أمداد النصر فى حروبها من بين يديها ومن ورائها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت صوارمه للشرك قامعة ، ومراسمه لمصالح الدين والدنيا جامعة ، أن تفوض إليه تفويضا يرفع علمه ، ويمضى فى مصالح الإسلام سيفه وقلمه ، وينشر فى آفاق الممالك الشامية عدله .

بدأ هذا المرسوم بحمد الله وشكره لأنه جعل كلمة الدين هى العليا وهذا أمر طبيعى فقد انقرضت دولة الصليبيين من الشام ونجا الشرق والإسلام من عدوانهم وأمن المسلمون على أنفسهم وبلادهم .

ثم نوه المرسوم بعد ذلك بصفات الوالى المعين وما امتاز به من النزاهة وإيثار العدل والعمل على صالح الرعية مما جعله أهلا لتولى هذا المنصب . ثم تكلم عن بلاد الشام ومنزلتها بالنسبة للبلاد الإسلامية وذكر الأرض المقدسة والحصون والقلاع التى كانت بيد الإفرنج ثم أخذها المسلمون منهم ، وأشاد بالجيوش الإسلامية ومزاياها ، فهى التى أرهبت المشركين وأوقعت فى قلوبهم الرعب وأزالتهم من الشرق .



ننتقل بعد ذلك إلى ذكر نوع آخر من الوثائق السياسية وهو « الهدن » التى كانت تعقد بين ملوك المسلمين والصليبيين ، وكانت تفتح بلفظ « استقرت الهدنة بين فلان وفلان » ويقدم ذكر الملك المسلم . وتكتب من صورتين تخلد نسخة منهما فى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وترسل الأخرى إلى الملك المهادن .

وقد ذكر القلقشندى أن العادة قد جرت . أنه [1] « إذا كتبت الهدنة كتب قرينها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة على التوفية بفصولها وشروطها ، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ممن يأذن له فى عقدها عنه بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

وهذه نسخة هدنة كتبت بين الملك الظاهر « ببيرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب فى رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وستمائة ، وهى :

« استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح « بيبرس الصالحى النجمى » وبين الكبير الهمام فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاسبتار لمدة عشرين سنة متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ / وما بعدها . دار الكتب

على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراها وضياعها وسهلها وجبلها ، وعامرها وغامرها ومزروعها ومعطلها وطرقاتها ومياهها وقلاعها وحصونها - على ما يفصل فى كل مملكة ، ويشرح فى هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة إلى آخرها .

على أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضى التى من نهر العاصى وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفات : عامراً ودائرا ، وبما فيها من الغلات صيفيا وشتويا والعداد وغيرها من الفوائد جميعا - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبى الفتح « بيبرس » ، والنصف لبيت الاسبتار » .

وعلى أن الملك الظاهر يحمى بلد المناصفات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه ، وممن هو فى حكمه وطاعته ، ومن جميع المسلمين الداخلين فى طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاسبتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة فى هذه الهدنة .

وعلى أن يكون أمر فلاحى بلد المناصفات فى الحبس والإطلاق والجباية راجعا إلى نائب مولانا السلطان باتفاق من نائب بيت الاسبتار ، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلما ، وإن كان نصرانيا يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد . وأن يكون الفلاحون الساكنون فى بلاد المناصفات جميعها مطلقين من السخر من الجانبين .

وعلى أن الملك الظاهر لا يأخذ فى بلد المناصفات المذكورة من تركمان ولا عرب ولا أكراد ولا غيرهم عدادا ولاحقا من حقوق بلد المناصفات إلا ويكون النصف منه للملك الظاهر ، والنصف الآخر لبيت الاسبتار » .

انتهى باختصار عن صبح الأعشى [1] .

ويلاحظ أن لغة هذه الوثائق ركيكة جدا وضعيفة إلى أبعد حد . وقد عرض القلقشندى لهذه الملاحظة فقال :

« .. [2] وهذه الوثائق مبتذلة الألفاظ غير رائقة الترتيب ، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام . والعجب من صدور ذلك فى زمن الظاهر « بيبرس » و« المنصور قلاوون » وهما من عظماء الملوك !! وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بنى عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورءوس أرباب البلاغة ! ولعل ذلك إنما وقع لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام فيقع الاتفاق والتراضى بين الجهتين على فصل فصل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهة المسلمين والفرنج بألفاظ مبتذلة غير رائقة طلبا للسرعة ، إلى أن ينتهى بهم الحال فى الاتفاق والتراضى إلى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى فى المسودة ، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولا . فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم فى اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما يوافق عليه الكاتبان فى المسودة » .

---

(١) ج ١٤ / ٣١ وما بعدها - دار الكتب .

(٢) ج ١٤ / ٧٠ وما بعدها - دار الكتب .

٤

المناظرات

ظهر فى أثناء الحروب الصليبية تنافس شديد بين رجال السيف ورجال القلم ، فالأولون يفخرون بانتصاراتهم فى ميادين القتال وساحات الجلاد ويتغنون بجهادهم فى سبيل الله وتضحيتهم بأرواحهم لإعلاء كلمة الدين ، ويذكرون أنهم هم الذين حموا الإسلام وصانوه ، ودافعوا عنه وأيدوه ونصروه وآزروه ورفعوه وأعزوه وأذلوا دولة الشرك والطغيان وحطموا الصلبان ، إلى غير ذلك . وكان رجال القلم يتمتعون بأرفع مناصب الدولة ، وما وصلوا إلى ذلك إلا بالقلم فآنسوا من أنفسهم قوة ومنعة ، فشرعوايردون على رجال السيف ردا عنيفا ، يهدمون مفاخرهم ، وينقضون كبرياءهم ، ويحطمون غلواءهم ويبطلون دعاواهم ، ويقيمون على أنقاض ذلك فضائل حملة الأقلام ومزاياهم ، فاشتد الجدل والنقاش بين الناس فى المجتمعات والأندية حول أفضلية رجال السيف ورجال القلم ، ولكل فريق أنصار ومدافعون .

قال العماد الأصفهانى :

« .. ولست ببعيد فى تقييد هذه المفاخر ، وتشييد هذه المآثر ، من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه - أى صلاح الدين - وأوجبوا الحق عليه ، بل حقى من حقوقهم أوجه وأوجب ، وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أخطى وأخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب ، ومن قسيهم أكسى وأكسب ، ومن جهادهم أسرى وأسرب .

ومدادى من نقعهم أغلى وأغلب ، وقرطاسى من راياتهم أجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها ، وآثارى من الذكر لا تخمل ولا تخمد ، « وما السيف أسوأ ضربة من لسانيا » .

« فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته . والذى أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام سحبا ، ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لا أقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتى فى غد إلا جاهله فهذه الكتب تهب الأعمار الثانية ، وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدى الكاتبة البانية . فانظروا إلى ديوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته ، وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها اسم كسرى فى ديوانه أضعاف ما بقى شخصه فى إيوانه .

☆ ☆ ☆

وشرع الكتاب ينشئون المناظرات الطويلة بين السيف والقلم ، فلجمال الدين بن نباته المصرى محاورة بين السيف والقلم جاء فيها :

« ... فبرز القلم بإفصاحه ، ونشط لارتياحه ، ورقى الأنامل على أعواده ، وقام خطيبا بمحاسنه فى حلة مداده والتفت إلى السيف فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . الحمد لله الذى علم بالقلم ، وشرفه بالقسم ، وخط به ما قدر وقسم ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى قال جف القلم بما هو

كائن . وعلى آله وصحبه ذوى المجد المبين وكل مجد بائن ، صلاة واضحة السطور ، قائمة من أدراج الصدور ، ما نقلت صحف البحار غواديها ، وكتبت أقلام النور على مشارق الدياجى حكمة باريها .

أما بعد : فإن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، ومجداح سبب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا ، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا وسفير الملك المحجب ، وعذيق الملك المرجب ، وزمام أموره السائرة ، وقادمة أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عفاته المتواترة ، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة . به رقم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، وسنة نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل . فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة . وحسبه ما جرى على يده الكريمة من منة .... إن نظمت فوائد العلوم فإنما هو سلكها وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها ، وإن رقمت برود البيان فإنما هو جلالها ، وإن تشعبت فنون الحكم فإنما هو أمانها ومالها ، وإذا انقسمت أمور الممالك فإنما هو عصمها وثمالها . وإن اجتمعت رعايا بحار الأفكار فإنما هو المستخرج دررها من ظلمات مداده ، وإن وعد أوفى بجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النقع . هذا وهو لسان الملوك المخاطب ، ورسيلها لأبكار الفتوح والخاطب ، والمنفق فى تعمير دولها محصول أنفاسه ، والمتحمل أمورها الشاقة على عينه وراسه ، والمتيقظ لجهاد أعدائها والسيف فى جفنه نائم ، والمجهز لبأسها وكرمها جيشى الحروب والمكارم ، والجارى بما أمر الله من العدل والإحسان ، والمسود الناصر ، فكأنما هو لعين الدهر إنسان ، طالما ذب عن حرمها فشد الله أزره ، ورفع ذكره وقام فى المحاماة عن دينها أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ، وقاتل على البعد والصوارم فى القرب وأوتى من معجزات النبوة

نوعا من النصر بالرعب . أقول قولى هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه ، والفخار وكبريائه وأتوكل على الله فيما حكم ، وأسأله التدبير فيما جرى به القلم . ثم أكتفى بما ذكره من أدواته ، وجلس على كرسى دواته ، متمثلا بقول القائل :

قلم يفـــل الجيش وهـــو عرمرم   والبيض مـــا سلت من الأغمـــاد
وهبت لـه الآجام حين تشـــابهـــا   كرم السيـــول وصـــولـــة الآســـاد

فعند ذلك نهض السيف قائماً عجلا ، تلمظ لسانه للقول مرتجلا ، وقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز .

الحمدلله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف ، وشرع حدها فى ذوى العصيان فاغصتهم بداء الحتوف ، وشيد مراتب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وعقد مرصوف ، وأجناهم من ورق حديدها الأخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف ، وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألوف ، وعلى آله وصحبه الذين طالما محوا بريق الصوارم سطور الصفوف ، صلاة عاطرة فى الأنوف حالية بها الأسماع كالشنوف ، وسلم .

أما بعد : فإن السيف زند الحق الورى ، وزنده القوى ، وحده الفارق بين الرشيد والغوى ، والنجم الهادى إلى العز وسبيله ، والثغر الباسم عن تباشير فلوله ، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء ، وجلى شخص الدين الحنيفى وقد جمع جفاء . وأجرى سيوفه بالأباطح ، فأما الحق

فمكث وأما الباطل فذهب جفاء ، وحملته اليد الشريفة النبوية ، وخصته على الأقلام بهذه المزية ، وأوضحت به للحق منهاجا ، وأطلعته فى ليالى النقع والشك سراجا وهاجا . وفتحت باب الدين بمصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجا . فهو ذو الرأى الصائب ، وشهاب العزم الثاقب ، وسماء العز التى زينت من آثاره بزينة الكواكب ، والحد الذى كأنه ماء دافق يخرج عند قطع الأجساد من بين الصلب والترائب ؛ لا تجحد آثاره ولا ينكر قراره ، إذا اشتبت فى الدجى والنقع ناره ، يجمع بين الحالتين : البأس والكرم ، ويصاغ فى طوق الحليتين فهو إما طوق فى نحور الأعداء ، وإما خلخال فى عراقيب أهل النقم ... فهو القوى الاستطاعة ، الطويل العمر إذا قصف سواه فى ساعة ، فما أولاه بطول الإحسان ، وما أجمل ذكره فى أخبار المعمرين ومقاتل الفرسان .... وتشعبت الدول لقائم نصره المنتظر ، وحازت أبكار الفتوح بحده الذكر ، وغدت أيامها به ذات حجول معلومة وغرر ، وشدت به الظهور وحمدت علائقه فى الأمور واتخذته الملوك حرزا لسلطانها ، وحصنا على أوطانها وقطانها ، وجردته على صروف الأقدار فى شأنها ، وندب فما أعيت عليه المصالح ، وباشر اللمم فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال فرق واضح .... يجلس على رءوس الأعداء قهرا ، ويشرح أنباء الشجاعة قائلا للقلم ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

☆ ☆ ☆

وكان هناك فريق من الكتاب لم تؤثر فيهم الخصومة التى نشبت بين رجال السيف ورجال القلم ، فمالوا إلى وضع الأمور فى نصابها ، ونظروا إلى المتخاصمين نظرة مجردة عن الهوى فأحقوا الحق وأبطلوا

الباطل واعترفوا بأن الدولة تقوم على دعامتين السيف والقلم ، ولا يمكن أن يستغنى بأحدهما عن الآخر . ولابن الوردى رسالة تسمى « إصلاح الخصمين » وهى مناظرة بين السيف والقلم والصلح بينهما ، جاء فيها :

لما كان السيف والقلم عدتى ، العمل والقول ، وعمدتى الدول ، فإن عدمتهما دولة فلا حول ، وركنى إسناد الملك المعربين عن المخفوض والمرفوع ... فكرت أيهما أعظم فخرا ، وأعلى قدرا ، فجلست لهما مجلس الحكم والفتوى . ومثلتهما فى الفكر حاضرين للدعوى ، وسويت بين الخصمين فى الإكرام ، واستنطقت لسان حاليهما للكلام .

فقال (القلم) : بسم الله مجريها ومرساها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها . أما بعد حمد الله بارى القلم ومشرفه بالقسم وجعله أول ما خلق ، وجمل الورق بغصنه كما جمل الغصن بالورق . والصلاة على نبيه محمد القائل جفت الأقلام ، وعلى آله وصحبه أعلم المعارف وأعرف الأعلام . فان القلم قصب السباق ، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب فى السبع الطباق ، جرى القضاء والقدر ، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر ، طالما أربى على البيض والسمر فى ضرابها وطعانها ، وقاتل فى البعد والصوارم فى القرب ملء أجفانها ، وماذا يشبه القلم فى طاعة ناسه ، ومشيه لهم على أم راسه .

☆ ☆ ☆

قال (السيف) : بسم الله الخافض الرافع ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع . أما بعد حمد الله الذى أنزل آية السيف فعظم به حرمة الجرح وأمن خيفة الحيف ، والصلاة على نبيه محمد الذى نفذ بالسيف

سطور الطروس ، وأخدمه الأقلام ماشية على الرءوس ، وعلى آله وصحبه الذين أرهفت سيوفهم ، وبنيت بها على كسر الأعداء حروفهم . فإن السيف عظيم الدولة ، شديد الصولة ، محا أسطار البلاغة ، وأساغ ممنوع الإساغة . من اعتمد على غيره فى قهر الأعداء تعب ، وكيف لا ، وفى حده الحد بين الجد واللعب . فإن كان القلم شاهدا فالسيف قاضى ، وإن اقتربت مجادلته بأمر مستقبل قطعه السيف بفعل ماضى . به ظهر الدين ، وهو العدة لقمع المعتدين ، حملته - دون القلم - يد نبينا فشرف بذلك فى الأمم شرفا بينا ، الجنة تحت ظلاله ، ولا سيما حين يستل فترى ودق الدم يخرج من خلاله ، زينت بزينة الكواكب سماء غمده ، وصدق القائل : السيف أصدق أنباء من ضده . لا يعبث به الحامل ، ولا يتناوله كالقلم بأطراف الأنامل . ما هو كالقلم المشبه بقوم عروا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قال الله تعالى على رءوسهم ، فكأن السيف خلق من ماء دافق ، أو كوكب راشق ، مقدرا فى السرد ، فهو كالجوهر الفرد ، لا يشرى كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كما لقائمه المنتظر ، من أثر فى عين أو عين فى أثر ، فهو فى خراب القوم قوام الحرب ، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخل الضرب .

(قال الحكم بين السيف والقلم) : فلما رأيت الحجتين ناهضتين ، والبينتين بينتين متعارضتين ، وعلمت أن لكل واحد منهما نسبة صحيحة إلى هذا المقر الكريم ، رواية مسندة عن حديثه القديم ، لطفت الوسيلة ، ودققت الحيلة ، حتى رددت القلم إلى كنه ، وأغمدت السيف فنام ملء جفنه ، وأخرت بينهما الترجيح ، وسكت عما هو عندى الصحيح ، إلى أن يحكم المقر بينهما بعلمه ، ويسكن سورة غضبهما الوافر ، ولجاجهما المديد ببسيط حلمه ، ويعاملهما بما وقر فى صدره من

الوقار ، وسكن فى قلبه من السكينة ، وإذا كان فى هذه المدينة مالكنا فلا يفتى ومالك فى المدينة .

☆ ☆ ☆

ومن ذلك الوقت حتى عصرنا الحاضر والناس يعقدون المناظرات بين السيف والقلم .

☆ ☆ ☆

وظهر فى أثناء الحروب الصليبية موضوع آخر ثار حوله الجدل ، وكثر فى شأنه النقاش ، وطال بصدده التحاور والتناظر . والموضوع هو : أيهما أفضل مصر أم الشام . وكان الذى أثاره القاضى الفاضل فى كتاب بعث به إلى صلاح الدين وهو بالشام ، وذلك فى عام ٥٧٤ هـ حيث قال فى ذم ماء دمشق ووخمها :

« [١] عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان ، والحقير مما ينال ذلك الجسم الكريم يوقد فى قلوب الأولياء الأثر العظيم ، وقليل قذاة العين غير قليل . وماذا يقول فى بلد لو صحت الحمية من مائه لكانت من أكبر أسباب صحة المحتمى وشفائه ، فإنه ماء يؤكل وبقية المياه تشرب ، ويجد وخامته من ينصف ولا يتعصب » .

وله من كتاب آخر :

---

(١) الروضتين ج ٢ / ٣ .

« فدعونا من بعلبك البلد الأعسر ، ومن رأس عينها الضيقة المحجر ، ومن ثلجها الذى تنفش الجبال بعهنه ، ومن بردها الذى لا يشفع الجمر عنده إلابإذنه ، وعودوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ، فإنها قد علتها وحشة لقطينها ، فسألت مطالع دسوتها عن أقمار سلاطينها . واذكروا النيل الذى وفى لكم فى هذه السنة بنقصه ، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرة لغير جودكم الذى أحصاه الله ولم نحصه ، واذكروا فيضها وماء طوبتها ، فقد كان يقيم الحجة على ثلج الشام ووخمه ، وبتغلغل برده فيسرى إلى قلب العليل وكان جازيا على غير طريق فمه . واذكروا صحة هوائها ، وتعصبه لأيامكم ، حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحة أجسامكم .

وقال فى كتاب آخر :

« وأما أحوالى فإننى لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق ، لتغير مائها وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها ، وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها . ومن لى بمصر فإنى أقنع بما تنبته أرضها من بقلها وقثائها ، وأبيع بردى وما عساه بشربة من مائها ، وأمتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها ، فالطل هائل ولا طائل ، وما كنا نسمع به من تلك الفضائل متضائل ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا فهى بلاد تستجدى ولا تجدى ، وفعل المال بها لازم التعدى » .

وذكر العماد الأصفهانى أن زين الدين على بن نجا الواعظ المشهور ، وهو من أهل دمشق المقيمين فى مصر ، كتب إلى صلاح الدين رسالة يشوقه فيها إلى مصر ونيلها ، ونعميها وسلسبيلها ، ودار ملكها ، ودارة فلكها ، وبحرها وخليجها ونشرها وأريجها ومقسها ومقياسها وقصور

معزها ومنازل عزها وجيزتها وجزيرتها ، وخيرتها وجيرتها وبِرْكَتِها وبَرَكَتِها وعدوتها وعدويتها وتعلق القلوب بقليوبها ، وملتقى البحرين ومرتقى الهرمين ، وروضة جنانها وجنة رضوانها ، ومساجدها وجوامعها ، ومشاهدها ومرابعها ، ونواظر بساتينها ، ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات فضائلها ، ورحاب شوارعها ، وحلاب مشارعها ، وشروق غربيتها ، وغروب شرقيتها ، وطيب طويتها ، ومسار مسراها ، ومجرى فلكها ومرساها ، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها ، وشتاؤها فى الفضل ربيع نضير ، وغبارها عبير ، وماؤها كوثرى ، وترابها عنبرى » . ثم قال العماد :

« وذكر زين الدين الواعظ فى كتابه مادل به على فضيلة تلك الديار ، من الآيات والأخبار والآداب والآثار ، ولو ظفرت به لأوردته بلفظه ، وجلوته بوعظه ، لكننى فقدته ، فعزمت معانيه ، وأحكمت مبانيه » .

فرد صلاح الدين على زين الدين الواعظ برسالة من إنشاء العماد الأصفهانى جاء فيها :

« عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ، ونحن نسلم له المسئلة فى طيبها ، وتوفير نصيبها ، ورقة نسيمها ورائق نسيبها ، لكن لاريب أن الشام أفضل ، وأن أجر ساكنه أجزل ، وأن القلوب إلى قلبه أميل ، وأن الزلال البارد به أعل وأنهل ، وأن الهواء فى صيفه وشتائه أعدل ، وأن الزهر به أشب والنبت به أكهل ، وأن الجمال فيه أكمل ، والكمال فيه أجمل ، وأن القلوب به أروح والروح به أقبل . ودمشق عقيلته الممشوطة ، وعقلته المنشوطة ، وحديقته الناضرة ، وحدقته الناظرة ،

وهى عين إنسانه بل إنسان عينه ، وصيرفى نقوده فى عين نضاره ولجينه ، فمستامها مستهام ، وما على محبها ملام ، وما فى ربوتها ريبة ، وفى كل حبوة حبيبة ، ولكل شائب من نورها شبيبة ، وعلى كل ورقة ورقا، وعلى كل معانقة من قدود البانات عنقا. وشادياتهاتطرى وتطرب ، وساجعاتها بالأوراد تعجم وتعرب ، وكم فيها من جوار ساقيات ، وسواق جاريات ، وأثمار بلا أثمان ، وروح وريحان ، وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وجميع ما فى سورة الرحمن ، ونحن نتلو عليه آلاءها إلى أن يرجع فينا فنتلو على منكرها فبأى آلاء ربكما تكذبان . وقد تمسكنا بالآية والسنة والإجماع ، وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع . أما أقسم الله بدمشق فى قوله (والتين والزيتون) ، والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون . أما قال رسول الله ﷺ (الشام خيرة الله من أرضه يشوق إليها خيرته من عباده) . هذا أوضح برهان قاطع على أنه خير بلاده . أما أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على اختيار السكنى بالشام ؟ ، أما فتح دمشق بكر الإسلام ؟ وما ننكر أن الله تعالى ذكر مصر وسماها أرضا ، فما الذكر والتسمية فى جنب فضيلة القسم ، ولا الإخبار عنها دليلا على الكرم ، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام ، بنقل يوسف الصديق إليها عليه أفضل الصلاة والسلام . ثم المقام بالشام أقرب للرباط ، وأوجب للنشاط ، وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات . وأين قطوب المقطب [1] من سناء سنير ؟ وأين ذرا منف المشرف من ذروة الشرف المنيف المنير ؟ وأين الهرم الهرم من الحرم المحترم ، وبينهما الفرق ما بين الفرق والقدم . وهل للنيل مع طول نيله ، وطول ذيله ، واستطالة سيله ، برد بردى فى

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها المقطم .

نقع الغليل ، ونفع العليل ؟ وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل ، وسيل هذا السلسبيل . وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر ، ظهر عند ذلك قصر القصر ، على أن باب الفراديس فى الحقيقة باب النصر ، وما رأس الطابية ، كباب الجابية ، ولو كان لناسها باناس ، لم يحتاجوا إلى قياس المقياس . ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الإيمان ، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشأن ، وأن مغلها كثير ، وماءها غزير ، وأن عدها نمير وأن ساكنها ملك وأمير . ولكن نقول كما قال المجلس السامى الأجلى الفاضلى أسماه الله : إن دمشق تصلح أن تكون بستانا لمصر ، ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البستان . وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوى ، حتى شرع فى عد المساوى ، ولعله يرجع إلى الحق ، ويعيد سعد إسعاده ووفائه إلى الأوفق ، إن شاء الله .

☆ ☆ ☆

وهكذا شرع الكتاب يؤلفون الرسائل ، وينشئون المقالات ، فمنهم من يفضل مصر ، ومنهم من يفضل الشام . واستمر الناس مدة من الزمن يتحاورون ويتناظرون فى هذا الموضوع .

٥

الحـــديث

كان الملوك الأيوبيون يعنون بسماع الحديث عناية كبيرة . وقد روى القاضى ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان [1] شديد الرغبة فى سماع الحديث . ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يحضره فى ذلك المكان ، من أولاده ومماليكه والمختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتحامى عن الحضور فى مجالسهم ، سعى إليه وسمع عليه . تردد إلى الحافظ السلفى بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة . وكان يحب أن يقرأ الأحاديث بنفسه فكان يستحضرنى فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأ هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه » . بل إن صلاح الدين كان يتبرك بسماع الأحاديث وهو على ظهر جواده فى ميادين القتال وساحات الوغى .

وقد عنى الأيوبيون بإنشاء مدارس خاصة أطلقوا عليها « دور الحديث » ، وعينوا فيها كثيرا ممن عرفوا بسعة الرواية فى الأحاديث .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٩٩ .

كل هذا كان نتيجة لتوقد العاطفة الدينية بين المسلمين ، تلك العاطفة التى جعلتهم يقدسون كل ما أثر عن الرسول والصحابة من أقوال وأعمال ، ويستوحون منها روحا سامية يعتصمون بها فى كفاحهم ضد الصليبيين . ومن ناحية أخرى كانوا يرون فى سماع الحديث وروايته وسيلة تقربهم من الله ورسوله .

وكان الأيوبيون يهتمون بنوع خاص بالأحاديث التى وردت فى جهاد الكفار والمشركين ، ويشجعون الناس على سماعها وتلاوتها وحفظها ، وتأليف الكتب فى كل ماروى عن الرسول فى فضائل الجهاد فى سبيل الله ، والترغيب فيه والدعوة إلى التضحية لإعلاء كلمة الدين بالنفس والمال . فاتخذوا من هذه الأحاديث وسيلة للدعاية للحرب والقتال ضد الصليبيين أعداء الإسلام والمسلمين .

وقد ظهرت كتب كثيرة من هذا القبيل أهمها كتاب « الترغيب والترهيب » للإمام الحافظ زكى [1] الدين بن عبد القوى المنذرى . وفى هذا الكتاب باب كبير عن الجهاد يقع فى جملة فصول .

الفصل الأول : الترغيب فى الرباط فى سبيل الله عز وجل . وقد روى فى ذلك ثمانية عشر حديثا . نذكر منها حديث : « من رابط يوما فى سبيل الله جعل بينه وبين النار سبع خنادق فى كل خندق كسبع سموات وسبع أرضين » .

---

(١) هو الإمام عبد العظيم بن عبد القوى بن عبدالله بن سعد شيخ الإسلام زكى الدين أبو محمد المنذرى الشامى ثم المصري . ولد فى غرة شعبان ٥٨١ هـ وتوفى ٦٥٦ هـ . درس بالجامع الظافرى بالقاهرة ثم ولى مشيخة الدار بالكاملية وانقطع بها ينشر العلم عشرين سنة .

الفصل الثانى : الترغيب فى الحراسة فى سبيل الله . وقد حشد فى ذلك اثنى عشر حديثا منها حديث : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

الفصل الثالث : الترغيب فى النفقة فى سبيل الله وتجهيز الغزاة وخلفهم فى أهلهم . وقد ساق فى ذلك عشرة أحاديث منها : « من جهز غازيا فى سبيل الله فله مثل أجره ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير وأنفق على أهله فله مثل أجره » .

الفصل الرابع : الترغيب فى احتباس الخيل للجهاد لارياء ولا سمعة ، وما جاء فى فضلهما والترغيب فيما يذكر منها ، والنهى عن قص نواصيها لأن فيها الخير والبركة . وقد أورد فى ذلك اثنين وعشرين حديثا منها حديث . « الخيل فى نواصيها الخير معقود أبدا إلى يوم القيامة ، فمن ارتبطها عدة فى سبيل الله ، وأنفق عليها احتسابا فى سبيل الله فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها فلاح فى موازينه يوم القيامة ومن ارتبطها رياء وسمعة ومرحا وفرحا فإن شبعها وجوعها وريها وظمأها وأرواثها وأبوالها خسران فى موازينه يوم القيامة .

الفصل الخامس : الترغيب فى الغدوة فى سبيل الله والروحة وما جاء فى فضل المشى والغبار فى سبيل الله والخوف منه . وقد سجل فى هذا واحدا وعشرين حديثا منها حديث : لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت » . وحديث : « ما من رجل يغبر وجهه فى سبيل الله إلا آمنه الله دخان النار يوم القيامة ، وما من رجل تغبر قدماه فى سبيل الله إلا آمن الله قدميه من النار يوم القيامة » .

الفصل السادس : الترغيب فى سؤال الشهادة فى سبيل الله تعالى . وفيه ثلاثة أحاديث منها : « من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة ، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقا ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد ، ومن جرح فى سبيل الله أو نكت نكتة فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك » .

الفصل السابع : الترغيب فى الرّمى فى سبيل الله وتعلمه والترهيب من تركه بعد ما تعلمه رغبة منه : وفيه عشرون حديثا منها : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاث نفر الجنة : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله . وارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها ، أو قال : كفرها » .

الفصل الثامن : الترغيب فى الجهاد فى سبيل الله وما جاء فى فضل الكلم فيه ، والدعاء عند الصف والقتال . وفيه ثمانية وثلاثون حديثا منها : « من جرح جرحا فى سبيل الله جاء يوم القيامة ريحه كريح المسك ولونه لون الزعفران عليه طابع الشهداء ، ومن سأل الله الشهادة مخلصاً أعطاه الله أجر شهيد ولو مات على فراشه » .

الفصل التاسع : فى إخلاص النية فى الجهاد وما جاء فيمن يريد الأجر والغنيمة والذكر وفضل الغزاة إذا لم يغنموا ، وفيه اثنا عشر حديثا ، منها ما روى من أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ، ثم قال أهاجر معك ، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه . فلما كانت غزاة غنم النبي ﷺ فقسم وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهورهم . فلما جاء دفعوه إليه فقال :

ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك النبى ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال : ما هذا ؟ قال : قسمته لك . قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم ، فأموت ، فأدخل الجنة . فقال : إن تصدق الله يصدقك . فلبثوا قليلا ، ثم نهضوا فى قتال العدو ، فأتى به إلى النبى ﷺ يحمل ، قد أصابه سهم حيث أشار . فقال النبى ﷺ : أهو هو ؟ قالوا : نعم . قال : صدق الله فصدقه ، ثم كفنه النبى ﷺ بجبته التى عليه ، ثم قدمه فصلى عليه ، وكان مما ظهر من صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك فقتل شهيدا . أنا شهيد على ذلك » .

الفصل العاشر : فى الترهيب من الفرار من الزحف وفيه ستة أحاديث منها ما روى أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات فذكر فيه : « وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير حق ، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة ، وتعلم السحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم » .

الفصل الحادى عشر : فى الترغيب فى الغزاة فى البحر وأنها أفضل من عشر غزوات فى البر . وفيه خمسة أحاديث منها : حجة لمن لم يحج خير من عشر غزوات وغزوة لمن قد حج خير من عشر حجج ، وغزوة فى البحر خير من عشر غزوات فى البر . ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ، والمائد فيه كالمتشحط فى دمه » .

الفصل الثانى عشر : فى الترهيب من الغلول والتشديد فيه ، وما جاء فيمن ستر على غال . والغلول هو ما يأخذه أحد الغزاة من الغنيمة مختصا به ولا يحضره إلى أمير الجيش ليقسمه بين الغزاة ، سواء قل أو كثر ، وفيه ثلاثة عشر حديثا . منها ما روى من أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر فذكروا لرسول الله ﷺ ، فقال : صلوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لذلك . فقال إن صاحبكم غل فى سبيل الله ، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوى درهمين .

الفصل الثالث عشر : فى الترغيب فى الشهادة وما جاء فى فضل الشهداء . وقد أورد فى ذلك ثلاثة وأربعين حديثا ، منها ما روى من أن رجلا جاء إلى الصلاة والنبى ﷺ يصلى فقال حين انتهى إلى الصف : اللهم آتنى أفضل ماتؤتى عبادك الصالحين. فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قال : « من المتكلم آنفا » فقال الرجل : أنا يا رسول الله . قال : إذا يعقر جوادك وتستشهد .

الفصل الرابع عشر : فى الترهيب من أن يموت الإنسان ولم يغز ، وفيه ستة أحاديث منها« من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة » .

☆ ☆ ☆

أما بعد فلو أنك ألقيت نظرة على هذه الأحاديث التى سقناها بين يديك لأدركت لأول وهلة أنها موضوعة . وذلك لأنها صيغت فى أسلوب يختلف عما أثر عن الرسول من أساليب القول . فكثير منها ضعيف واهى النسيج والتأليف . ولهذا نرى أنها مكذوبة ، ولا يمنع هذا ورودها فى

بعض كتب الحديث . فإن المحدثين كانوا يقبلون أحاديث الفضائل والمناقب دون بحث أو تمحيص إذ كانوا لا يرون فى روايتها ضررا لأنها لا تمس أصل الدين ولا تتصل بأركان الشريعة . وفضلا عن ذلك فإن لها فوائد محققة . وكان الناس لا يرون حرمة فى وضع مثل هذه الأحاديث ولا فى روايتها . ونحن وإن كنا لانستطيع أن نعرف العصر الذى وضع فيه كل حديث إلا أنه يمكننا أن نقول إن هذه الأحاديث التى وضعت على الرسول فى باب الجهاد أخذت تكثر يوما بعد يوم وتنمو جيلا بعد جيل حتى بلغت الغاية فى عصر الحروب الصليبية .

وأنت ترى أن هذه الأحاديث لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرت ثوابها أو عقابها ونوهت بما يلقاه فاعلها من خير أو شر . فصانع النبل مجزى على صنعته ، وكذا الرامى به . ونواصى الخيل فيها البركة . والحقيقة أن الخيل لا تصلح للقتال إلا إذا احتفظت بنواصيها . وغزاة فى البحر أفضل من عشر غزوات فى البر ... إلى غير ذلك مما سبق ذكره .

وأنت تعلم أن الأيوبيين - وبخاصة صلاح الدين الأيوبى - كانوا لا يدخرون وسعا فى استثارة حمية الشعوب الإسلامية لقتال الصليبيين ، ولم يدعوا فى ذلك وسيلة إلا توسلوا بها . فهل ترى وسيلة فى هذا المقام أقوى من مثل هذه الأحاديث ؟ وهل هناك أقدر من المحدثين على القيام بالدعوى للجهاد والكفاح ؟ ومن هنا نعلم السر الأكبر فى تشجيع الأيوبيين للمحدثين والرواة وإنشائهم دور الحديث فى مصر والشام ورصدهم الأوقاف الكثيرة عليها .

☆ ☆ ☆

وبجانب هذه الأحاديث السابقة كثرت رواية الأحاديث الخاصة بفضائل بيت المقدس وفضل زيارته وفضل الصلاة فيه وفضل السكنى والإقامة والوفاة به . وكذلك الأحاديث التى تنص على أن الحشر يكون بالبيت المقدس والتى تشيد بفضل الصخرة والصلاة إلى جانبها والأحاديث التى تنص على أن الله عرج من بيت المقدس إلى السماء ، وتلك التى تفيد أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة . مثال ذلك ما رواه مكحول عن النبى أنه قال : من زار بيت المقدس شوقا إليه دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء فى الجنة ، وغبطوه بمنزلته من الله تعالى وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس شيعتهم عشرة آلاف من الملائكة يستغفرون لهم ويصلون عليهم ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكا . ومن دخل بيت المقدس طاهرا من الكبائر تلقاه الله بمائة رحمة ، ما منها رحمة إلا ولو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم ، ومن صلى فى بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب و« قل هو الله أحد » خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ وكان له بكل شعرة على جسده حسنة . ومن صلى فى بيت المقدس أربع ركعات مر على الصراط كالبرق ، وأعطى أمانا من الفزع الأكبر يوم القيامة ، ومن صلى فى بيت المقدس ست ركعات أعطى مائة دعوة مستجابة ، أدناها براءة من النار ، ووجبت له الجنة . ومن صلى فى بيت المقدس عشر ركعات كان رفيق داوود وسليمان فى الجنة ، ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات فى بيت المقدس ثلاث مرات ، كان له مثل حسناتهم ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة ، وغفر له ذنوبه كلها .

وما روى عن أنس عن النبى أنه قال : من صلى ببيت المقدس

خمس صلوات نافلة كل صلاة أربع ركعات يقرأ فى الخمس صلوات عشرة آلاف مرة (قل هو الله أحد) فقد اشترى نفسه من الله عز وجل ، ليس للنار عليه سلطان .

وعن مكحول عن النبى أنه قال : لا يسمع أهل السماء من كلام بنى آدم شيئا غير أذان مؤذن بيت المقدس .

وعن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله ﷺ : أرأريت يا رسول الله إن ابتلينا بالبقاء بعدك ، فأين تأمرنا ؟ قال : عليك ببيت المقدس لعل الله يرزقك ذرية تغدو إليه وتروح .

وعن وهب بن منبه عن النبى أنه قال : أهل بيت المقدس جيران الله وحق على الله عز وجل أن لا يعذب جيرانه ، ومن دفن فى بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه .

وعن كعب عن النبى أنه قال : اليوم فى بيت المقدس كألف يوم . والشهر فيه كألف شهر ، والسنة فيه كألف سنة . ومن مات فيه كأنما مات فى السماء . ومن مات حوله فكأنما مات فيه .

وعن أنس بن مالك عن النبى أنه قال : إن الجنة لتحن شوقا إلى بيت المقدس ، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس وهى سرة الأرض .

وعن أبى هريرة عن النبى أنه قال : الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس .

وعن أبى هريرة عن النبى أنه قال : لما أسرى [1] بى إلى بيت

---

(١) قال الذهبى فى ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٦٠ « ..وهذا شىء لا يشك عوام أصحاب الحديث أنه موضوع » .

المقدس مر بى جبريل عليه السلام إلى قبر إبراهيم ، فقال : انزل فصل هاهنا ركعتين ، هاهنا قبر أبيك إبراهيم ، ثم مر بى ببيت لحم فقال : انزل هاهنا فصل ركعتين ، فإن هاهنا ولد أخوك عيسى . ثم أتى بى إلى الصخرة فقال : من هاهنا عرج ربك إلى السماء .

وعن كعب عن النبى أنه قال : لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس ، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما .

وعن خالد بن معدان عن النبى أنه قال : يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زفا إليهما زفا متعلقين بجميع من حج إليهما ، تقول الصخرة مرحبا بالزائرة والمزور إليهما .

هذا مثل من أمثلة الأحاديث التى راجت سوقها فى عصر الحروب الصليبية . وإن نظرة واحدة إليها تدلنا على أنها موضوعة ، وكل شىء فيها ينبىء بأنها مصنوعة ، فأسلوبها ركيك ، وفيها مبالغات تبعد بها كثيرا عن العقل ، وفيها غرابة تضحك الطفل الصغير ، وفى متن بعضها طول يعذر حفظها إلى غير ذلك مما لا يعهد فى الأحاديث الثابتة عن الرسول .

وقد بدأ وضع الأحاديث فى فضائل بيت المقدس فى عهد عبد الملك ابن مروان إبان النزاع الذى وقع بينه وبين ابن الزبير . فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن الحج حتى لا يجتمعوا بابن الزبير ويصبحوا من أعوانه وأتباعه . فبنى قبة الصخرة وكساها فى الشتاء والصيف . وفى هذه الفترة ظهرت الأحاديث المتعلقة ببيت المقدس والصخرة ودمشق وغيرها من مدن الشام ، وأخذت تنمو يوما بعد يوم وذلك بتشجيع من الأمويين الذين كانوا يجزلون العطاء للكذابين والوضاعين .

فلما جاءت الدولة العباسية وحرص رجالها على القضاء على كل ما هو أموى واجتهدوا فى محو كل ما يعيد إلى الذاكرة ملك بنى أمية ذهبت هذه الأحاديث وندرت روايتها .

فلما جاءت الحروب الصليبية اهتم المحدثون برواية هذه الأحاديث وذلك لأن مقتضيات هذه الحروب كانت تتطلب ذلك فاتخذوا منها مادة دسمة فى إذكاء روح الجهاد والتضحية فى سبيل إنقاذ بيت المقدس من أيدى الصليبيين .

نرى مما تقدم أن الحروب الصليبية دفعت الناس إلى الاهتمام بسماع الحديث وروايته والتأليف فيه وبخاصة الأحاديث التى ترغب فى الجهاد والقتال والأحاديث التى تتعرض لفضائل الشام على وجه العموم وبيت المقدس والمسجد الأقصى والصخرة على وجه الخصوص .

أما قبيل الحروب الصليبية فكان الناس فى مصر يدرسون الأحاديث التى تروى عن رجال الشيعة والتى تؤيد البيت الفاطمى وتوطد أركانه . وكذلك كانت الحال فى فلسطين . أما شمال بلاد الشام فكان يموج بكثير من الفرق الدينية كالإسماعيلية والرافضة ولكل فرقة كتب خاصة فى الحديث .

٦

الآداب الدينية

نقصد بالآداب الدينية الأدعية والاستغاثات والمناجاة والمواعظ والأوراد والأذكار وغيرها مما انتشر وشاع فى عهد الحروب الصليبية . ولا شك فى أن الضيق الشديد الذى عاناه المسلمون فى خلال هذه الحروب والمحن الخطيرة التى تعرضوا لها ، قد دفعتهم إلى الابتهال إلى الله أن ينقذهم من شرها وينجيهم من كربها وذلك بعد أن عجزوا فى ردها وضعفت وسائلهم المادية عن دفعها . روى القاضى ابن شداد أنه قال لصلاح الدين عند ما عاد الصليبيون لحصار القدس :

« ... [1] المولى - يعنى صلاح الدين - فى اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، فينبغى أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة فى صحيح الأحاديث ، ونحن فى أبرك موضوع يقدر أن يكون فيه فى يومناً هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشىء خفية ، بحيث لا يشعر أنه منك وتصلى بين الأذان والإقامة ركعتين تناجى فيهما ربك ، وتفوض مقاليد أمورك إليه ، وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

---

(١) الروضتين ج ٢ / ٣ .

فمن هنا نعلم أن الأدعية كثرت فى ساعات الضيق والحرج :

ثم شرع المسلمون يتساءلون عن فائدة الدعاء ، فمنهم من يؤمن بنفعه ، ومنهم من لا يؤمن بذلك ، ويرى أن الدعاء لا يدفع وقوع القدر . فالمؤمنون بالدعاء يقولون إن من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى : « خذوا حذركم » .

وقد كثرت الاستغاثات بالله والرسول والقرآن والأولياء والصالحين . وقد اختلف الناس فيمن يستغاث به ، فمنهم من قال لا يستغاث بغير الله ، ومنهم من قال بجواز الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين وبالأولياء والصالحين . وقد سئل شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية عن رأيه : « فيمن[1] يقول لا يستغاث برسول الله ﷺ ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ... افتونا مأجورين » .

فرد ابن تيمية على هذا السؤال ، فكان مما جاء فى رده قوله :

« ... وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته ، والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله فلا تطلب إلا منه مثل غفران الذنوب وهداية

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ١ / ٤٧٠ ، ٧١ المطبعة الشرفية بمصر .

القلوب وإنزال المطر وإنبات النبات ونحو ذلك ، فهذا مصيب فى ذلك بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضا » .

وظهرت فى ذلك العصر المناجاة ومن أشهرها مناجاة الرحمن ، بآى القرآن ، لمحيى الدين بن عربى الطائى ، ومما جاء فيها :

« أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها ، وشر ما ذرأ فى الأرض ، وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن .

أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده وهمزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون .

يا مالك يوم الدين ، يا من جعل الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . يا من خلق لنا ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم . يا من علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة . يا من له ما فى السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . يا من يحب التوابين ويحب المتطهرين ياحى ياقيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم . يا من وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم .

يا من أنزل الكتاب مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان . يا من لا يخفى عليه شىء فى

الأرض ولا فى النماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

يا مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

وهذه المناجاة مشهورة ومتداولة بين المسلمين .

وقد كثر فى عصر الحروب الصليبية الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب والتذكير والتحذير . من ذلك موعظة جاء فيها :

« يا أيها [1] الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة : فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت . فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل وكثيرها يقل . ودها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء . ثم يقال فلان أوصى ، ولماله أحصى . ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ؛ وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك

---

(١) الإحياء ج ٣ / ٢١١ المطبعة المصرية .

وبكى إخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق . وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء . ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك ، واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك .

هذا مثل من العظات التى كانت تلقى فى المساجد فى خطب الجمع وفى حلقات الوعظ . وكلها تدور حول أمرين اثنين : التزهيد فى الدنيا والحض على تركها والترهيب من الموت وما يلاقيه الإنسان من عذاب القبر وسؤال الملكين وغير ذلك .

ووضعت أدعية خاصة لكل مناسبة من المناسبات . قالوا :

« ... [1] فاذا خرجت من المسجد فقل اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى لسانى نورا ، واجعل فى سمعى نورا ، واجعل فى بصرى نورا ، واجعل خلفى نورا وأمامى نورا واجعل من فوقى نورا . وقل اللهم إنى أسئلك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك فإنى لم أخرج أشرا ولابطرا ولارياء ولاسمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسئلك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل بسم الله : رب أعوذ بك أن أظلم وأن أظلم أو أجهل أو يجهل على . بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله . فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله

---

(١) الإحياء ١ / ٣٣٠ المطبعة المصرية .

فقل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم . اللهم اغفر لى جميع ذنوبى وافتح على أبواب رحمتك . وقدم رجلك اليمنى فى الدخول . فإذا رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيت من ينشد ضالة فى المسجد فقل لاردها الله عليك ، أمر به رسول الله ﷺ ... » .

وقد كان من الممكن أن تزول هذه الأدعية أو تقل تلك المناجاة بانتهاء الظروف التى أوجدتها ، ولكن انتشار التصوف قد مكن لها فى الأرض وثبتها فى قلوب الناس وحفظها من الضياع والنسيان ، فانتقلت من جيل إلى جيل حتى وصلت إلينا وقد أكسبها القدم روعة وأسبغ عليها هيبة .

٧

المنـــاقب

كان عصر الحروب الصليبية عصر اهتمام بتتبع مناقب الرجال والبلدان . فألفت كتب كثيرة فى مناقب الصحابة والتابعين والعباد والزاهدين والأولياء والصالحين والمتنسكين والمتصوفين والفقهاء والمحدثين . وكثر الحديث عن الزهد ولا سيما زهد الخلفاء الراشدين . ورويت فى ذلك الأخبار الكثيرة وحشدت الحكايات المختلفة دون تمييز بين الصحيح والفاسد والسمين والغث وما يقبله العقل وما يرفضه وما يستقيم مع المنطق ومالا يستقيم .

وكأنهم أرادوا أن يتخذوا من ماضى المسلمين الأولين قدوة صالحة لهم وأسوة حسنة توحى إليهم بالكفاح والجهاد فى سبيل الله . فأشادوا بخالد وشجاعته ، وأبى عبيدة وإقدامه ، وعمرو وجرأته ، وتغنوا بالغزوات القادسية ، والوقعات اليرموكية .

☆ ☆ ☆

وكتبوا كثيرا فى مناقب عظماء المسلمين وملوكهم الذين أبلوا بلاء حسنا فى الحروب الصليبية ، مثل عماد الدين زنكى ، ونور الدين ،

ونجم الدين أيوب وصلاح الدين . من ذلك ما نقله صاحب الروضتين عن ابن الأثير وهو :

« حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ، قال : كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس فى المكان المختص به وتقوم فى خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذى يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال أو فى مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنها . وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار . فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر الركوب ويشتغل بمهام الدولة . قال : وإنها قلت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها . فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ ما يكفيها مالها ؟. والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ، إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال لى فبئس الظن ، إنما هى أموال المسلمين ، مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها . ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها ، فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل » .

ويقول العماد الأصفهانى عن صلاح الدين إنه : لا يلبس إلا ما يحل لبسه ، وتطيب به نفسه ، كالكتان والقطن والصوف ، وكسوته يخرجها فى إسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الحظر ، وخلواته مقدسة بالطهر ، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل ، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط ، ولا لفظة فظة

تسخط ، ويغلظ على الكافرين الفاجرين ، ويلين للمؤمنين المتقين ، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد ، ويكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ، ومشاركة القضاة فى القضاء ، أعلم منهم بالأحكام الشرعية ، والأسباب المرضية ، والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان ، بل يعتقد أنه مجالس أخ من الإخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات ، متجاوزا عن الهفوات ، تقيا نقيا ، وفيا صفيا ، يغضى ولا يغضب ، ويبشر ولا يتقطب ، مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا أخجل قائلا ، ولا خيب آملا . وكان يغضب للكبائر ، ولا يغضى عن الصغائر ، ويرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ويأمر بالسداد . فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد . وكان محافظا على الصلوات الخمس فى أوائل أوقاتها ، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى إلا فى جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة . وكان له إمام راتب ، ملازم مواظب ، فإن غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم إذا عرفه تقيا متجنبا للإثم . وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ، ولم يكن إلى المنجم مصغيا ، ولم يزل لقوله ملغيا . ولا يتعيف ولا يتطير ، ولا يتعين ولا يتحير ، بل إذا عزم توكل على الله ، فلا يفضل يوما على يوم ، ولا زمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع وما زال ناصرا للتوحيد ، وقامعا أهل البدع بالتبديد ، شافعى المذهب أصولا وفروعا ، معتقلا له معقولا ومسموعا ، يدنى أهل التنزيه ، ويقصى أهل التشبيه ، ويديم استفادة فقه الفقيه واستزادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون فى عدله والعاملون فى فضله ، والبلاد فى أمنه ، والعباد فى منه » .

ولا شك فى أن هذه الأوصاف مبالغ فيها . فقد أثر عن صلاح الدين أنه كان يفضل حين يشرع فى القتال أيام الجمع سيما أوقات صلاة الجمع تبركا بدعاء الخطباء على المنابر . أما قول العماد بأن كل مماليكه وخواصه بل أمرائه وأجناده أعف من الزهاد والعباد ، فهو قول لم يقم عليه دليل ، ولم ينهض على صحته برهان ، بل لدينا من الشواهد ما يدل على عكس ذلك . فانظر إلى قول القاضى الفاضل من رسالة له إلى صلاح الدين :

« ... [1] والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فى أتباعه - يعنى أتباع صلاح الدين - وشيوع المظالم فى ضياعه ، وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى ... » .

وله من رسالة أخرى :

« ... وحاجة المولى من الإنفاق إلى مالا يسعه التغيير ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه وضياع فرصة واختلاف رأى بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الألسنة بالآراء وبخل الأيدى بالمعونة ... » .

ورأينا أن كثيرا من جنود صلاح الدين تشيعوا للصليبيين لما عندهم من نساء جميلات . وقد شكا ابن جبير مر الشكوى من العمال والمستخدمين الذين مر بهم فى مصر ، فكيف يقال بعد ذلك إن كل مماليك صلاح الدين وخواصه وأمرائه وأجناده أعف من الزهاد والعباد ؟؟

---

(١) الروضتين . ج ٢ / ١٦٦ .

ثم إن صلاح الدين كان فى بداية أمره يخشى من نور الدين ، فلم ينهض لمحاربة الصليبيين ، لأن مصلحته الشخصية كانت تقضى بالإبقاء على دولة الإفرنج لتكون فاصلا بينه وبين نور الدين .

وكثر الحديث عن كرامات الأولياء والصالحين وما يصدر منهم من أعمال متصلة بالحرب كإخبارهم عن أمور تقع فى المستقبل من انتصار المسلمين ودخولهم مدينة كذا أو استيلائهم على حصن كذا .

وقد كان سقوط الرها فى أيدى المسلمين موضوعا نسجت حوله كرامات كثيرة ، منها ما رواه صاحب الروضتين حكاية عن ابن الأثير من أن جماعة معروفين بالصلاح رووا له أنهم رأوا فى يوم فتح الرها الشيخ أبا عبدالله بن على بن مهران الفقيه الشافعى ، وكان من العلماء العاملين والزاهدين فى الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة ، ذكروا عنه أنه غاب عنهم فى زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور، عنده من الارتياح مالم يروه أبدا . فلما قعد معهم قال : حدثنى بعض إخواننا أن أتابك زنكى فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا . ثم قال : ما يضرك يا زنكى ما فعلت بعد اليوم ، يردد هذا القول مرارا . فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا .

قال :وحكى لى بعض العلماء بالأخبار والأنساب ، وهو أعلم من رأيت بها . قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها ، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين . وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان

والقسيسين ، فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرها سير ملك الفرنجة هذا جيشاً فى البحر إلى إفريقية فنهبوا وأسروا وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربى وقد نعس وهو شبيه النائم ، فأيقظه الملك وقال : يافقيه ، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت . أين كان محمد عن نصرتهم ؟ فقال له : كان قد حضر فتح الرها . فتضاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لا تضحكوا فوالله ما قال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين .

وقد نسبوا كثيرا من الكرامات إلى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين .

وقد بلغت ألقاب الملوك فى الفخامة والكثرة فى عهد الحروب الصليبية درجة لم تصل إليها من قبل . فكان يحشر إلى جانب اسم الملك لقب المجاهد المرابط المثاغر معز الإسلام ومذل الشرك والطغيان ومحطم الصلبان ورافع كلمة الإيمان وناصر التوحيد وقامع التثليث وصلاح الدنيا والدين وسيف الله المسلول وحامى الملة المحمدية ومبيد الملة الكفرية ، إلى غير ذلك من النعوت والصفات التى خلقتها تلك الحروب .

وانتشر بين الناس الأسماء التى تضاف إلى الدين مثل نور الدين وسعده وشمسه وبدره وزكيه ونجيه ونصره ومعزه .

واتخذ العلماء لأنفسهم ألقابا تضاف إلى الإسلام حينا وإلى الدين حينا آخر فكنت تسمع حجة الإسلام وضياءه وتاجه وسراجه ، ونوره

وبهاءه وجماله وفخره ، وجلاله وشرفه إلى غير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره .

وانتشر مثل هذا بين القواد والأجناد فظهرت أسماء مثل سيف الإسلام وحسامه ودرعه وسهمه وركنه وكهفه أو سيف الدين وحسامه إلى آخر تلك الأسماء .

☆ ☆ ☆

ولم يبخل كتاب المسلمين بذكر بعض ما شاهدوا من مناقب الصليبيين قال ابن جبير :

« ..... وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين ... ورحلنا من تبنين دمرها الله سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، وسكانها كلهم مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة . وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا . ومساكنهم بأيديهم وجميع أموالهم لهم وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع . وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق ، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى بجور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله ، فإلى الله المشتكى من هذه الحال » .

وقد قال عند تقرير المكوس على المسافرين ببلاد الصليبين وذلك فى معرض الموازنة بين عمال المكوس عند المسلمين وأمثالهم عند الصليبيين مانصه :

« ... وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل ... » .

ثم قال عن عكا : « وكانت عكا ملتقى تجار المسلمين والإفرنج من جميع الآفاق ، وكان بشرقى عكا مسجد بقى محرابه على حاله ووضع الإفرنج فى شرقيه محرابا لهم فالمسلم والكافر يجتمعان فيه يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه وهو بأيدى النصارى معظم محفوظ » .

وقال عن صور :

«وأهلها ألين فى الكفر طبائع ، وأجرى إلى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع فخلائقهم أسجح ، ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن » .

وقد نوه كتاب كثيرون بشجاعة الإفرنج وإقدامهم وصبرهم ومصابرتهم وجهدهم وجهادهم وجلدهم وجلادهم ، وكرهم وفرهم وتضحيتهم النفس والنفيس فى سبيل الدفاع عن معتقداتهم يستوى فى ذلك الشيب والشبان والرجال وربات الحجال . ففى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ شيء كثير من هذا القبيل ، فقد أثنى على شجاعتهم وطبهم . وفى بعض رسائل القاضى الفاضل والعماد وفيما كتب على لسان صلاح الدين إلى سلطان بلاد المغرب مدح كثير للصليبيين الذين خرجوا من بلادهم مع بعد المسافة بينها وبين الشرق وصعوبة المواصلات وتسابقوا لتخليص قبر المسيح دون أن يدعوهم الداعى أو يسعى فى أثرهم الساعى ، ولم يحتاجوا إلى ملك يسوقهم ولا أمير يقودهم بل لبوا

دعوة بطرقهم وخرجوا مسرعين فى السير نحو هدفهم الذى يقصدون ، وقد تنافس فى ذلك منهم المتنافسون .

وقد شاع فى ذلك الوقت الحديث عن مناقب بعض بلدان الشام ولا سيما بيت المقدس ودمشق وعسقلان ، ووضعت فى ذلك الكتب وألفت الرسائل وأنشئت المقامات .

فمن فضائل بيت المقدس أنه أحد القبلتين وبه المسجد الأقصى الذى هو ثالث الحرمين . إليه تشد الرحال ويكثر النزول والارتحال . وفى الأرض المقدسة تحشر الخلائق ليوم العرض ، ويبسط الله تعالى الصخرة الشريفة حتى تكون كعرض السماء والأرض . وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب ، ويضرب بينهم بسور له باب ، باطنه من قبله الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وسيد البقاع بيت المقدس ، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس ، وصخرة بيت المقدس من صخور الجنة . وأن هذه الصخرة كان عليها عرش الله ثم عرشه فزاولها حتى صيرها كما ترى . وأن سفينة [1] نوح مرت ببيت المقدس ، والصلاة عن يمين الصخرة وشمالها تفضل الصلاة فى مكان آخر ألف مرة ، وأن الله قال لصخرة بيت المقدس عليك أضع عرشى وإليك أحشر خلقى ، ولأفجرن أنهارك خمرا وعسلا ولبنا .

وقد أسرف الكتاب فى الحديث عن بيت المقدس والصخرة إسرافا كبيرا ، وأوردوا فى هذا المقام ما لا يقبله العقل كأنهم أرادوا أن يحملوا الناس على عبادة هذه الصخرة من دون الله ، فأثاروا بعملهم هذا كثيرا من نقد المفكرين . وقد حمل ابن تيمية عليهم حملة شديدة ، فمما قاله فى هذا الصدد :

---

(١) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام - لشهاب الدين المقدسى - مخطوط

« ... أما [1] الصخرة فلم يصل عندها عمر رضى الله عنه ولا الصحابة ، ولا كان على عهد الخلفاء الراشدين عليها قبة بل كانت مكشوفة فى خلافة عمر وعثمان وعلى ومعاوية ويزيد ومروان ، ولكن لما تولى ابنه عبد الملك الشام ووقعت بينه وبين ابن الزبير الفتنة كان الناس يحجون فيجتمعون بابن الزبير ، فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن ابن الزبير فبنى القبة على الصخرة وكساها فى الشتاء والصيف ليرغب الناس فى زيارة بيت المقدس ويشتغلوا بذلك عن اجتماعهم بابن الزبير . وأما أهل العلم والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظمون الصخرة ، فإنها قبلة منسوخة كما أن يوم السبت كان عيدا فى شريعة موسى عليه السلام ، ثم نسخ فى شريعة محمد ﷺ بيوم الجمعة ، فليس للمسلمين أن يخصوا يوم السبت ويوم الأحد بعبادة كما تفعل اليهود والنصارى . وكذلك الصخرة إنما يعظمها اليهود وبعض النصارى . وما يذكره بعض الجهال فيها من أن هناك أثر قدم النبى ﷺ وأثر عمامته وغير ذلك فكله كذب . وأكذب منه من يظن أنه موضع قدم الرب . وكذلك المكان الذى يذكر أنه مهد عيسى عليه السلام كذب ، وإنما كان موضوع معمودية النصارى . وكذلك من زعم أن هناك الصراط والميزان أو أن السور الذى يضرب به بين الجنة والنار هو ذلك الحائط المبنى شرقى المسجد وكذلك تعظيم السلسلة أو موضعها ليس مشروعا » .

ثم قال : « ... [2] وليس السفر إليه - يعنى بيت المقدس - من الحج قربة . وقول القائل قدس الله حجتك قول باطل لا أصل له كما

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ج ٢ ص ٥٣ وما بعدها . المطبعة الشرفية بمصر

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

يروى من زارنى وزار أبى (إبراهيم) فى عام واحد ضمنت له الجنة ، فإن هذا كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث » .

وقد اعتقد الصليبيون أن قبة الصخرة بنيت فى العصر الرومانى ، وأنها جزء من كنيسة القيامة ، لذلك أبقوا عليها ولم يلحقوا بها ضررا . والذى جعلهم يعتقدون ذلك هو أن القبة مبنية على الطراز الرومانى . وقد ذهب بعض المستشرقين هذا المذهب وذكروا أن قصة بناء عبد الملك للقبة هى قصة مختلقة وضعها المسلمون فى عصر الحروب الصليبية ، وأيدوا زعمهم هذا بأن هذه القصة لم تذكر فى كتب التاريخ التى وضعت قبل الحروب الصليبية . فرد عليهم قوم آخرون بأن اليعقوبى ذكر فى تاريخه بناء عبد الملك للقبة . وأن هذا الخليفة الأموى حينما أراد بناء القبة أحضر عمالا من بلاد الروم تولوا تشييدها على النمط الرومانى .

ويلاحظ أن اليعقوبى هو المؤرخ الوحيد على ما نعلم الذى سجل قصة بناء القبة . أما المؤرخون الآخرون فإنهم أهملوا هذا الموضوع إهمالا تاما ، وربما كان مرجع ذلك إلى السياسة العباسية التى عملت على محو آثار الأمويين من ذاكرة المسلمين .

☆ ☆ ☆

وفى مناقب دمشق يقول ابن شكر[1] : « دمشق[2] نزهة الأبصار ، وعروس الأمصار ، ومجرى الأنهار ، ومغرس الأشجار ، ومعرس السفار ،

---

(١) هو عبدالله بن على بن الحسين تلقى العلم بدمشق وعاش متنقلا بين مصر والشام (٥٤٨ - ٦٢٢ هـ)

(٢) نقلا عن الروضتين ص ٥٦ ج ٢ .

ومعبد الأبرار، المستغفرين بالأسحار، ظلها الممدود ، ومقامها المحمود ، وماؤها المسكوب ، وعيبها المسلوب ، ومحاسنها المجموعة ، وفضائلها المروية المسموعة ، ودرجتها المرفوعة ، وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ونسيمها العليل ، وهجيرها الأصيل ، وماؤها السلسبيل . وقد شرفها الله تعالى بالذكر فى كتابه ، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبابه ، فقال تعالى فى كتابه المبين : (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) . ولم تزل مقر البركات ، ومعدن النبوات ، ومنزل الرسالات ، ومسكن أرباب الكرمات . وورد فى تفضيل بقعتها من الأخبار مالا يشك فى صحة إسناده .

وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

٨

المثـــالب

كان العداء الشديد بين المسلمين والصليبيين دافعا لكتاب المسلمين على تتبع مثالب خصومهم . فمن لم يستطع أن ينال من الإفرنج بالسيف نال منهم بالقلم . وقد زاد فى حقد المسلمين على الإفرنج ما ارتكبه هؤلاء من القتل والنهب والسلب ، حتى إن اسم الإفرنج ماكان يذكر إلا مقرونا باللعن . فيقال « الإفرنج لعنهم الله أو خذلهم الله » وإذا ذكرت مدينة من المدن التى تخضع لحكم الإفرنج قيل « دمرها الله » أو « خربها الله » .

وكان للصليبيين بعض النقائض والعيوب فتتبعها كتاب المسلمين وسجلوها . ومن هؤلاء « أسامة بن منقذ » الذى روى ما شاهده من عيوب الإفرنج ، فمن ذلك قوله :

« ... وليس عندهم (أى الإفرنج) شىء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه ، خلاها مع المتحدث ومشى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له « معز » داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى

الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجى يبيع الخمر للتجار . يأخذ فى قنينة من النبيذ وينادى عليه ويقول : فلان التاجر قد فتح بتية من هذا الخمر . من أراد منها شيئا فهو فى موضع كذا وكذا . وأجرته عن ندائه النبيذ الذى فى تلك القنينة . فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش ، فقال له : « أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ » قال : « كنت تعبان ، دخلت أستريح » ، فسأل : « فكيف دخلت إلى فراشى ؟» قال : « وجدت فراشا مفروشا نمت فيه » . قال : « والمرأة نائمة معك ؟» ، قال : « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟» قال : « وحق دينى إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » فكان هذا نكره ومبلغ غيرته » .

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامى يقال له « سالم » من أهل المعرة فى حمام لوالدى رحمه الله ، قال : فتحت حماما فى المعرة أتعيش فيها . فدخل إليها فارس منهم وهم ينكرون على من يشد فى وسطه المئزر فى الحمام ، فمد يده فجذب مئزرى من وسطى رماه . فرآنى وأنا قريب عهد بحلق عانتى ، فقال سالم : فتقربت منه ، فمد يده على عانتى ، وقال : « سالم جيد ! وحق دينى اعمل لى كذا » واستلقى على ظهره وله مثل لحيته فى ذلك الموضع فحلقته فمريده عليه فاستوطأه ، فقال : سالم بحق دينك اعمل للداما . (والداما بلسانهم : الست) يعنى امرأته . وقال لغلام له : « قل للداما تجىء » ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها فاستلقت على ظهرها ، وقال : اعمل كما عملت لى » فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرنى . فشكرني ووهبنى حق خدمتى . فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهم غيرة ولا نخوة ،

وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة .

ومما يقارب هذا أننى دخلت الحمام بمدينة صور فجلست فى خلوة فيها . فقال لى بعض غلمانى فى الحمام : « معنا امرأة » فلما خرجت جلست على المصاطب وإذا التى كانت فى الحمام قد خرجت وهى مقابلى قد لبست ثيابها وهى واقفة مع أبيها ولم أتحقق أنها امرأة . فقلت لواحد من أصحابى : « بالله أبصر هذه امرأة هى » . وأنا أقصد أن يسأل عنها . فمضى وأنا أراه رفع ذيلها وطلع فيها فالتفت إلى أبوها وقال : هذه ابنتى ماتت أمها ، وما لها من يغسل رأسها فأدخلتها معى الحمام غسلت رأسها ، قلت : جيد ما عملت . هذا لك فيه ثواب » .

هذا نوع من المثالب التى سجلها كتاب المسلمين لخصومهم .

☆ ☆ ☆

وأمر آخر عابه كتاب المسلمين على الإفرنج هو قسوتهم وغلظتهم وبطشهم وكيدهم وإمعانهم فى جلب الضرر والأذية للمسلمين وإسرافهم فى البطش والفتك وغلوهم فى التخريب والتدمير وبأسهم فى القتال والنزال .

قال العماد الأصفهانى :

.. والكفار قد خشنت عرائكهم واتسعت ممالكهم واستبصروا فى الضلال ، واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت ، وقاتلوا جندا ورعية واستباحوا الأنفس متورعين فلا ترى أعجب من أن

ترى استباحة ورعية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلى مزورر الشفاة على القطوب بلا بشر ولا مرح ، شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون ، زرقا كأنما عيونهم من حديد فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها إلى غروبهم ، وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم ، تستعيذ المردة من مردتهم ، ويدعى للنار بالعون على الإطلاع على أفئدتهم ، فظاظ غلاظ ، جهنميون . كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال : وقودها الناس والحجارة ، وإلا فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التى هى كالجلمود فى الجمود ... »

وكانت وقعة حطين ووقوع القدس فى أيدى المسلمين مما أطلق أقلام الكتاب بإظهار الشماتة والسرور بانهزام أعدائهم وأعداء الدين .

قال العماد الأصفهانى فى حوادث سنة ٥٨٣ هـ :

.. وخلصت بمنحة الله من المحنة ، الأرض المقدسة المتمحنة . وكفى الله شر الشرك ، وحكم على دماء الكفرة بالسفك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخذلت الملة النصرانية ، وانتقم التوحيد من التثليث .

وقال فى فتح القدس : « تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وقضينا من حق هذا البيت ما وجب . وجاء القدس إلى

القدس وزال الرجس وذهب ، وتولى فيه الإسلام وتولى عنه الكفر ، وعظم الأجر وفخم الفخر ، وطاب النشر ، وزاد البشر ، ومحى الرجس وثبت الطهر ، وهلك المشرك ، وذل البطرك وأقصى من المسجد الأقصى الساجد إلى الشمس ، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس » .

ثم قال : « ... فما أسر البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر ، وإجراء الإسلام فيه لغسل أوضار الكفر وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة .... ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه ، وطهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون ... ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد للشمس ، وسكن العلماء والفقهاء فى موطن البطرك والقس ، وأبدل الناقوس بالأذان ، بل الكفر بالإيمان ... وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة وعادت الكنائس مدارس ، وآيات التثليث بها دوارس ووجوه الإيمان باشرة ، ووجوه أهل الصليب عوابس ، ومحت أيامن هذه الأيام تلك الليالى الدوامس ... » .

وقال عند عقد الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين :

« والكفر مفلول الغرب ، مخذول الحزب ، مجبول على الرعب ، مغلول بقيد السلم عن الحرب . فإن الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم - لإبقاء عزة الثغور الإسلامية - بالذلة . وقد استمرت الحال إلى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون إذا أحسوا بالمكنة ، فإن الغدر فى طباعهم مركوز ، والسوء فى غرائزهم مغروز .... » .

وقوله عن المركيس : « وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأقوى شياطينه ، وأضرى سراحينه ، وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه ،

وأنهش صلاله ، وأفحش ضلاله ، وأعوى أعوانه ، وأخون إخوانه ، وأبغى بغاته وأجفى جفاته وأرعى حماته وأحمى رعاته وشر شراره ، وأنكر نكاره ، وأفجر فجاره ، وأروغ ثعالبه وألسب عقاربه ، وأحنث معاهديه ، وأنكث معاقديه ، وهو الطاغية الداهية الذى خلقت له ولأمثاله الهاوية ....» .

وقد وصف نساء الإفرنج فقال :

وصلت فى مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنهخا متزينة . قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجرائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الأشقياء ، وترافدن على الإرفاق والإرفاد ، وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية ، زاهية هازية ، عاطية متعاطية خاظية خاطية ، متغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نارية متلهبة ، منتقشة متخضبة ، تائقة شائقة ، فاتقة رائقة ، راتقة فاتقة ، راقعة خارقة ، مارقة رامقة ، قاسرة سارقة ، فارجة فاجرة ، فاتنة فاترة ، مشتهاة متشهية ، ملهاة متلهية ، متفننة متفنية ، ناشية منتشية ، متشوقة متسوقة ، مقترحة ، محترقة ، متحببة متعشقة ، حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء ، غناء لفاء ، زرقاء ورقاء ، متخرقة خرقاء ، تسحب غفارتها ، وتسحر بنضارتها نظارتها ، وتتثنى كأنها غصن ، وتتجلى كأنها حصن ، وتميس كأنها قضيب ، وتزيف وعلى لبتها صليب . وهى بائعة شكرها بشكرها ، باغية كسرها فى سكرها ، فوصلن وقد سبلن أنفسهن . وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن . وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن ، وأنهن لا يمتنعن من العزبان ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب ، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب .

وفتحن أبواب الملاذ ، وسبلن ما بين الأفخاذ ، وبحن بالإباحة ، ورحن إلى الراحة ، وأزحن علة السماحة ، ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق ، وتفجرن بينابيع الفجور ، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور ، وعرضن الإمتاع بالمتاع ، ودعون الوقاح إلى الوقاع ، وركبن الصدور على الأعجاز ، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز ، ودمن على تقريب خلاخلهن من الأقراط ، ورمن فرشهن على بساط النشاط ، وتهدفن للسهام وتحللن للحرام ، وتعرضن للطعان ، وتضرعن للأخدان ، ومددن الرواق ، وحللن حين عقدن النطاق ، وصرن مضارب للأوتاد ، واستدعين النصول منهن إلى الأغماد ، وسوين أراضيهن للغراس ، واستنهضن الحراب إلى التراس واستنفرن المحاريث إلى الحرث ، ومكن المناقير من البحث ، وأذن للرءوس فى دخول الدهاليز ، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز ، وقربن الأشطان من الركايا ، وفوقن النبال فى أعجاس الحنايا ، وقطعن التكك ، وطبعن السكك ، وضمن الأطيار فى أوكار الأوراك ، وجمعن قرون الكباش النطاح فى الشباك ، ورفعن الحجر عن المصون ، وترفعن عن ستر المكنون ، ولففن الساق بالساق ، وشفين غليل العشاق ، وكثرن الضباب فى الوجار ، وأطلعن الأشرار على الأسرار وطرقن الأقلام إلىالأدوية ، والسيول إلى الأودية ، والجداول إلى الغدران ، والمناصل إلى الأجفان . والسبائك إلى البوائق ، والزنانير إلى المناطق ، والأحطاب إلى التنانير ، وذوى الإجرام إلى المطامير ، والصيارف إلى الدنانير ، والأعناق إلى البطون ، والأقذاء إلى العيون ، وتشاجرن على الأشجار ، وتساقطن على الثمار ، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، ولا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة ، وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية ، وأبق من المماليك

الأغبياء والمدابير الجهلاء ، جماعة جد بهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضى اللذة بالذلة ، ومنهم من ندب على الزلة فتحيل فى النقلة ، فإن يد من لا يرتد لا تمتد ، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد . وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس إذ كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج .

لا شك فى أن العماد تحامل أكثر مما يجب ، وقد حرص على أن يظهر لنا مقدرته البيانية فلم يترك لفظة ساقطة ، ولا كلمة نابية ، ولا عبارة مثيرة ، ولا وصفا جارحا إلا حشده فى هذا المقام .

☆ ☆ ☆

وكان تتبع مثالب الإفرنج على هذا النحو حافزا لبعض الكتاب على تتبع مثالب الأقباط والتشنيع بهم والحط من سمعتهم بحق وبغير حق . وكانت الوظائف الحكومية وبخاصة التى تتعلق بجباية الأموال مقصورة على النصارى وذلك لمعرفتهم بها وخبرتهم . وكان الأيوبيون مع اضطهادهم للأقباط وتنكيلهم بهم وتضييقهم عليهم - يحتفظون بالكتاب من النصارى ، لشدة حاجتهم إليهم ، وكان هؤلاء الكتاب موضعا لطعن شديد وسخط عظيم من كثيرين . فأنشئت فى مثالبهم المقالات ووضعت الرسائل وألفت الكتب .

وممن كتبوا فى هذا الموضوع شيخ الإسلام أبو المظفر صدر الدين الدمشقى (٥٧٢ - ٦٥٢ هـ) . قال فى كتابه [١] تقويم النديم :

---

(١) مخطوط ؟ .

« ... ولا قبطيا يلبس فى النهار زى الرهبان وفى الليل مصبغات الألوان من البرتيقى والعنابى الغالية الأثمان ويبكى على الوسادة بحضور الندمان .

مغـــالـــط ليس لـــه حيلـــة إلا انتظـــــار الـــوقت والحين

ينقلون بتقرير قطع مصانعة مستخدم فى البلدان ، ويترجلون فى تحصيل ما يرتشونه من الجند والفرسان ... ويوهمون النصح للمسلمين وهم عبيد عبدة الأوثان ، يخرجون التذاكير بالمحال والبهتان ، ويهملون الحق الواضح بالبرهان ، ويجلبون النار إلى قرصهم ويحرقون قرص السلطان . لايخرجون إلا لمن أحضر الصرة أو حل الهيمان ، ولا يكتبون وصولا تقديا إلا بأباليج السكر والخرفان مدمنون أكل الرشا وأقفيتهم إلى الصفع سندان .

وإذا الصفـع دار فى القـوم ولـو ه رءوسا مثـل الحـديـد صـلابـا

حصلوا من الأمناء المئين والألوف ، وزخرفوا الأرض والحيطان والسقوف وحلوا دار المعاملات بالمخرج والمردود والموقوف ... يجعلون العتيق مستجدا والمستجد عتيقا والعبد الرقيق حرا والحر عبدا رقيقا ، والغائب حاضرا والحاضر غائبا والمحارب جبانا والجبان محاربا .

أعيـذك بـالرحمن من شر كـاتب لــــه قلم زان وآخر ســــارق

يقول : انهب ما قدرت عليه ولا تجزع ، وخذ ما شئت ولا تفزع ، ومد يدك ودع تقطع ، ما دام فى القوس منزع ، واغتنم لذة المصانعات .

لا أقـــال المسيـح عثرة قبطى إذا لم يمت قتيـــل النعـــــال

شاركوا الأمراء فى المعايش والأخباز ، واستغنوا بقدر ما حصل لأستاذيتهم من الحاجة والإعواز ، وانفردوا بلذات قبلهم ودبرهم هذا بمسعود وهذا بقيماز ...»

☆ ☆ ☆

على أن كتاب المسلمين وقد تتبعوا مثالب الإفرنج والأقباط ، لم يغفلوا مثالب إخوانهم فى الدين . من ذلك ما أورده شيخ الإسلام صدر الدين الدمشقى فى كتابه السالف الذكر واصفا بعض أهل عصره ، وهو :

« ... ولا أرباب عمائم وطيالس تبطن الخلاعة وأظهر العدالة كل منهم ينكر على الناس أفعالهم وينسى أفعاله ... ويحلل الحرام ويحرم حلاله ، ويأكل عذار لحيته ويمشمش سباله ، ولا لفَ على صالح عمامته ، ولاِ حل إلا على حرام سرواله .

متورعون فإن بدت كـأس الطلى　　　خلعـوا التقى وتنـاولـوا الأقـداحـا

يتسترون بالفروة وسارية ، ويهتكون بحب غلام وعشق جارية ، وينزعون ثياب النسك العارية ويرخصون مسراتهم بأثمان غالية ، ويتناهبون اللذات فما يغنيهم القليل ولا يكفيهم كافية . ويجعلون ما كان سرا بينهم من أحوالهم علانية ، فإذا دبت بهم نشوة الطرب جعلوا الطوالس على الكوالك ، وجمعوا شمل العمائم بالشماسك ولبسوا الشاشات وألبسوا المماليك القلانس والترائك » .

وقال فيمن يظهر الزهد ويبطن خلافه :

« ... يخون السلطان وينافق الإخوان ، ويلوط بالصبيان ويغامز

الغلمان ويزنى مع النسوان ويغتاب حتى ثدى أمه فكيف يسلم منه إنسان ؟ ويكرع فى الليل الأقداح سرا ، وإذا قيل له شربت قط يا فلان ، قال أعوذ بالله من الشيطان ، ويحلف أنه ما شرب فى عمره وقد كذب والله ومان ، وجنث فى الأيمان ، يأكل الدنيا بالدين ، ويلقى المعاصى بجميع جوارحه والقلب فى الكمين ، ويستحل فروج المسلمات ، وظهور اليتامى وأموال المساكين ، فقد أتعب الكرام الكاتبين ، وأرضى قرناء الشياطين ... وهو يسلك جادة الرياء والنفاق ، ويتزى بزى العباد ويفعل فعل الفساق فأولئك لا دين لهم ولا دنيا ولا خلاق . وسكناهم قعر الجحيم تحت سبع طباق ... » .

ونقل صاحب الروضتين عن العماد الأصفهانى فى حوداث سنة ٥٧٧ هـ ما نصه :

« وفى [١] هذه السنة وصل السلطان من دمشق المعلم خطيب المزة وكان قد زور على السلطان مثالا يتضمن منالا ، ورفعه إلى عز الدين فرخشاه ، فما خفى تزويره عليه ، وهم بالإيقاع به ، فقصد السلطان بمصر وأطلعه على حاله » .

ثم قال : « وكان [٢] له - يعنى السلطان - إمام يصلى به وهو يكتب مثل خطه ، فأطلق به أموالا ، وأصلح وأنجح بتزويره لأصدقائه أموالا . وما يشك صاحب ديوان ولا متولى خزانة فى أنه صحيح . فلما دام سنين انكشف وشارف التلف وجلس إخوة السلطان وأمراؤه عنده

---

(١) الروضتين ج ٢ / ٢٦ .

(٢) الروضتين ٢٩ / ٢١ .

يغرونه به فقلت له بالعجمية سرا تهبه للقرآن ، فقال نعم . فنفس من خناقه وأمر بإطلاقه وأبقى عليه خيره ، حتى استبدله بغيره » .

هذه بعض شواهد من مثالب المسلمين التى سجلها كتابهم ، أتينا بها على سبيل التمثيل .

وهكذا كانت الحروب الصليبية دافعا للكتاب على نقد بعض أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ، وقد أطلعونا بهذا على كثير من عادات الإفرنج وأخلاقهم فى العصور الوسطى .

٩

الرد على النصارى واليهود وأهل البدع والأهواء

سبق أن ذكرنا أن فريقا من المسلمين كانوا يتقربون إلى الله بتأليف الكتب في الرد على النصارى واليهود وأهل البدع والأهواء . قال ابن قيم الجوزية [١] :

« ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان والسيف والسنان والقلب والجنان . وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان ... » .

ولهذا ألف ابن قيم الجوزية [٢] كتابا سماه « هداية الحيارى ، من اليهود والنصارى » . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة الحجة وسطوع البرهان . وفيه ما يدل على سعة اطلاع المؤلف بتاريخ الديانة المسيحية والمجامع الكنيسة التى عقدت لفض الخلافات الدينية بين المسيحيين ، وعلى إلمامه إلماما تاما بما جاء فى التوراة والإنجيل ، كما يدل على سعة تفكير المؤلف وقوة منطقه وقدرته على الإقناع والإفحام .

---

(١) هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى ، وهو مطبوع فى مصر .

(٢) هو أبو عبدالله بن بكر أيوب الزرعى المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلى المتوفى سنة ٧٥٠هـ .

بدأ المؤلف كتابه بتمهيد عام جاء فيه :

« ... [1] وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه من الإخلاص فى السر والإعلان ، ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان ، مع إيثار طاعته على طاعة الشيطان ، وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه فى النار . أسس على عبادة النيران ، وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان ، أو دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان ، والصور المدهونة والسقوف والحيطان ، وأن رب العالمين نزل عن كرسى عظمته فالتحم ببطن أنثى وأقام هناك مدة من الزمان بين دم الطمث فى ظلمات الأحشاء تحت ملتقى الأعكان ، ثم خرج صبيا رضيعا يشب شيئا فشيئا ويبكى ويأكل ويشرب ويبول وينام وينقلب مع الصبيان . ثم أودع فى المكتب بين صبيان اليهود يتعلم ما ينبغى للإنسان ، هذا وقد قطعت منه الغلفة حين الختان ، ثم جعل اليهود يطردونه ويشردونه من مكان إلى مكان ، ثم قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذل والهوان ، فعقدوا على رأسه من الشوك تاجا من أقبح التيجان . وأركبوه قصبة ليس لها لجام ولا عنان ، ثم ساقوه إلى خشبة الصلب مصفوعا مبصوقا فى وجهه وهم خلفه وأمامه وعن شمائله وعن الأيمان ، ثم أركبوه ذلك المركب الذى تقشعر منه القلوب مع الأبدان ، ثم شدت بالحبال يداه والرجلان ، ثم خالطها تلك المسامير التى تكسر العظام وتمزق اللحمان ، وهو يستغيث يا قوم ارحمونى فلا يرحمه منهم إنسان ، هذا ومدبر العالم العلوى والسفلى الذى يسأله من فى السموات

---

(١) ص ٢ ، ٣ من الكتاب المذكور .

والأرض كل يوم هو فى شأن ، ثم مات ودفن فى التراب تحت صم الجنادل والصوان ، ثم قام من القبر وصعد إلى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان » .

ثم بعد ذلك يشرع فى المناقشة وإقامة الحجة فيقول :

« ... وإن أوجبتم له الإلهية من قول شعيا فيما زعمتم ها هى العذراء تحبل وتلد ابنا اسمه عمانويل ، وعمانويل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربية « إلهنا معنا » فقد شهد له النبى أنه إله .. قيل لكم بعد ثبوت هذا الكلام وتفسيره لا يدل على أن العذراء ولدت رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ، فإنه قال : « تلد ابنا » ، وهذا دليل على أنه ابن من جملة البنين ، ليس هو رب العالمين .

وأما قوله ويدعى اسمه عمانويل فإنما يدل على أنه يسمى بهذا الاسم كما يسمى الناس أبناءهم بأنواع من الصفات والأسماء والأفعال والجمل المركبة من اسمين أو اسم وفعل . وكثير من أهل الكتاب يسمون أولادهم عمانويل . ومن علمائهم من يقول المراد بالعذراء ههنا غير مريم . ويذكر فى ذلك قصة ويدل على أن هذا المسيح لا يعرف اسمه عمانويل وإن كان ذلك اسمه فكونه إلهنا معنا أو بالله حسبى أو الله وحده ونحو ذلك . وقد حرف بعض المثلثة عباد الصليب هذه الكلمة وقال معناها الله معنا ، ورد عليهم بعض من أنصف من علمائهم وحكم رشده على هواه وهداه الله للحق وبصره من عماه وقال أهذا هو القائل : أنا الرب ولا إله غيرى أنا أحيى وأنا أميت وأخلق وأرزق أم هو القائل لله : إنك أنت الإله الحق وحدك الذى أرسلت اليسوع المسيح ؟ قال والأول باطل قطعا ، والثانى هو الذى شهد به الإنجيل ويجب تصديق الإنجيل وتكذيب من

زعم أن المسيح إله معبود . قال : وليس المسيح مخصوصا بهذا الاسم فإن عمانويل اسم تسمى به النصارى واليهود أولادهم . قال : وهذا موجود فى عصرنا هذا ومعنى هذه التسمية بينهم شريف القدر. قال : وكذلك السريان يسمون أولادهم عمانويل ، والمسلمون وغيرهم يقولون للرجل الله معك فإذا سمى الرجل بقوله : الله معك كان هذا تبركا بمعنى هذا الاسم .

وإن أوجبتم له الإلهية بقول حبقوق فيما حكيتموه عنه إن الله فى الأرض يتراءى ويختلط مع الناس ويمشى معهم . ويقول أرميا أيضا بعد هذا الله يظهر فى الأرض وينقلب مع البشر: قيل لكم هذا بعد احتياجه إلى ثبوت نبوة هذين الشخصين أولا ، وإلى ثبوت هذا النقل عنهما ثانيا ، وإلى مطابقة الترجمة من غير تحريف - وهذه ثلاث مقدمات يعز عليكم إثباتها - لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، وأنه إله حق ليس بمخلوق ولا مصنوع ، ففى التوراة ما هو من هذا الجنس وأبلغ ولم يدل ذلك على أن موسى إله ولا أنه خارج عن جملة العبيد ، وقوله يتراءى مثل تجلى وظهر واستعلن ونحو ذلك ألفاظ التوراة وغيرها من الكتب الإلهية . وقد ذكر فى التوراة أن الله تجلى وتراءى لإبراهيم وغيره من الأنبياء ، ولم يدل ذلك على الإلهية لأحد منهم ولم يزل فى عرف الناس ومخاطبتهم أن يقولوا فلان معنا وهو بين أظهرنا ولم يمت إذا كان عمله وسنته وسيرته بينهم ووصاياه يعمل بها بينهم . وكذلك يقول القائل لمن مات والده : ما مات من خلف مثلك . وأنا والدك ... الخ .

« وفى [1] إنجيل لوقا حين دعا الله فأحيا ولد المرأة ، فقالوا إن هذا النبى لعظيم ، وأن الله قد تفقد أمته . وفى إنجيل يوحنا أن المسيح أعلن صوته فى البيت وقال لليهود : قد عرفتمونى وموضعى ولن آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق وأنتم تجهلونه ، إنه منى وأنا منه وهو بعثنى ، فما زاد فى دعواه على ما ادعاه الأنبياء . فأمسكت المثلثة قوله إنى منه وقالوا إله حق من إله حق . وفى القرآن رسول من الله ، وقال هود : ولكنى رسول من رب العالمين ، وكذلك قال صالح . ولكن أمة الضلال كما أخبر الله عنهم يتبعون المتشابه ، ويردون المحكم . وفى الإنجيل أيضاً إنه قال لليهود وقد قالوا له نحن أبناء الله فقال : لو كان الله أباكم لأطعتمونى لأنى رسول الله ، خرجت مقبلا ، ولم أقبل من ذاتى ، ولكن هو بعثنى لكنكم لا تقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى ، إنما أنتم أبناء الشيطان ، وتريدون إتمام شهواته .

« يا [2] معاشر المثلثة عباد الصليب ، ما الذى دلكم على ألوهية المسيح ؟ فإن كنتم استدللتم عليها بالقبض من أعدائه عليه وسوقه إلى خشبة الصليب وعلى رأسه تاج من الشوك وهم يبصقون فى وجهه ويصفعونه ثم أركبوه ذلك المركب الشنيع وشدوا يديه ورجليه بالحبال ، وضربوا فيها المسامير ، وهو يستغيث ويقلق ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه فما أقبحه من استدلال عند أمثالكم ممن هم أضل من الأنعام وهم عار على جميع الأنام . وإن قلتم إنما استدللنا على كونه إلها بأنه لم يولد من البشر ، ولو كان مخلوقا لكان مولودا من البشر . فان كان الاستدلال صحيحا فآدم إله المسيح وهو أحق من أن يكون إلها له لأنه

---

(١) ص ١٣٩ المرجع السابق .

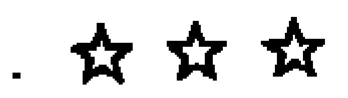
(٢) ص ١٤٠ من المصدر السابق .

لا أم له ولا أب والمسيح له أم ، وحواء أيضا اجعلوها إلها خامسا لأنها لا أم لها وهى أعجب من خلق المسيح والله سبحانه قد نوع خلق آدم وبنيه إظهاراً لقدرته وأنه يفعل ما يشاء ، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر لا من أنثى وخلق عبده المسيح من أنثى لا من ذكر ، وخلق سائر الأنواع من ذكر وأنثى .

وإن قلتم استدللنا على كونه إلها بأنه أحيا الموتى ولا يحييهم إلا الله ، فاجعلوا موسى إلها آخر فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا ما يقاربه ، وهو جعل الخشبة حيوانا عظيما ثعبانا . فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولا . فإن قلتم هذا غير إحياء الموتى ، فهذا اليسع النبى أتى بإحياء الموتى ، وكذلك هم يقرون بذلك . وإيليا النبى أيضا أحيا صبيا بإذن الله . وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه . وفى كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين . فهل صار أحد منهم إلها بذلك ؟؟؟ » .

☆ ☆ ☆

وهكذا أفرغ المؤلف جهده فى إبطال ألوهية المسيح وفى إثبات أنه بشر وأنه نبى . واتخذ أدلته على ذلك مما ورد فى الإنجيل من أقوال تدعم رأيه وتسند دعواه .



وقد رد البوصيرى [1] على النصارى وتعرض لإبطال ألوهية المسيح

---

(١) انظر ديوان البوصيرى – مخطوط .

فقال : « قوله فى إنجيل لوقا إنه لم يقتل أحد من الأنبياء فى وطنه فكيف يقتلوننى ؟ وقوله حين خرج من السامرية الحق أنه لم يكرم أحد من الأنبياء فى وطنه . فهذا دليل أنه ما جعل نفسه إلا نبيا . وكقوله فى إنجيل مرقص إن رجلا أقبل عليه وقال : أيها المعلم الصالح أى خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال له المسيح : لم قلت لى صالحا ، إنما الصالح هو الله وحده . وفى إنجيل يوحنا أن اليهود لما أرادوا القبض عليه وعلم بذلك رفع بصره إلى السماء ، وقال قد دنا الوقت ياإلهى فشرفنى لديك واجعل لى سبيلا إلى أن أملك كل تملكتنى الحياة الدائمة ، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بكَ إلها واحدا وبالمسيح الذى بعثت فقد عظمتك على أهل الأرض واحتملت ما أمرتنى به فشرفنى لديك . وكفى بذلك تذللا لله وعبودية وسؤالا واعترافا وائتمارا بأمر الله سبحانه وتعالى ! وكقوله لتلاميذه : « لا تنسوا أباكم فى الأرض فإن أباكم الذى فى السماء وحده » وفى إنجيل لوقا حين أحيا الميت بباب مدينة فام حين أشفق لأمه لشدة حزنها عليه ، فقال الناس « إن هذا لنبى عظيم » ... فلو كان المسيح ادعى أنه إله لما قيل عنه خلاف ما ادعاه فى معرض الشكر والتصديق . وكقوله فى إنجيل يوحنا : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا لكننى أجيبكم بما أسمع لأنى لست أنفذ إرادتى بل إرادة الذى بعثنى . وكقوله فى إنجيل يوحنا أيضا لليهود قد عرفتمونى وموضعى ولم آت من ذاتى ، ولكنى بعثنى بالحق وأنتم تجهلونه . فإن قلت إنى أجهله كنت كاذبا مثلكم ، وأنا أعلم أنى نبيه وأنه بعثنى » .

ثم تناول البوصيرى موضوع صلب المسيح فقال :

« وليس عند النصارى ولا اليهود خبر يأتون به ولا رواية صحيحة أن

المسيح صلب ، فإن أحدا ما حضره من أصحابه عندما ما أخذ شبيهه ، ولا كانت اليهود يعرفونه ، وإنما دلهم عليه رجل يقال له بوذا الإسخريوطى ، وكان فيمن آمن بالمسيح وارتد عنه واعطوه على تعرفيهم به ثلاثين درهما ، ثم بداله ورد الدراهم وندم ، وأن اليهود جاءوا إلى المكان الذى فيه المسيح فخرج إليهم رجل فقالوا له أنت يسوع فقال : نعم ، فأخذوه ومضوا ، وكانوا يستخبرونه ويقولون « أنت هو المسيح » ، فيقول « أنتم تقولون » . ومضوا به يوم الجمعة ، وقالت النصارى إنه صلب فى يوم الجمعة فى الساعة التاسعة ، وقالت اليهود إنه أقام عندهم محبوسا أربعين يوما ، وهم يستخبرونه ويسألونه إن كان هو وأن يظهر لهم آية فلم يجبهم إلى ماسألوه لا فى حال أخذه ولا فى حال صلبه ...»

☆ ☆ ☆

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب قيم يقع فى ١٠٢٤ صفحة من الحجم المتوسط اسمه « الجواب الصحيح ، لمن بدل دين المسيح » ألفه ردا على كتاب ورد [1] من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديما وحديثا من الحجج السمعية والعقلية . قال :

« فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب .» وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا وعقدا وحلا » .

---

(١) الجواب الصحيح ج ١ / ١٩ مطبعة النيل .

ومما جاء فى رده على النصارى قوله :

« [1] .. والتوراة هى أصح الكتب ، وأشهرها عند اليهود والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى حتى فى نفس الكلمات العشر . ذكر فى نسخة السامرة منها من أمر استقبال الطور ما ليس فى نسخة اليهود والنصارى . وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب فان عند السامرة نسخا متعددة . وكذلك رأينا فى الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة فى كثير من الألفاظ والمعانى ، يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود ، ليست من زبور داود عليه السلام .

وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة . فإن قيل فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها . قيل النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لانسخ فيه » .

وتناول ابن تيمية موضوع صلب المسيح فناقشه مناقشة عنيفة وفند حكمة وقوع الصلب تفنيدا بديعا . قال :

« ... [2] والنصارى يقولون إن المسيح الذى هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس . قالوا فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم . قالوا ومكن أعداءه من أخذه وضربه والبصاق فى وجهه ووضع الشوك على رأسه وصلبه وأظهر

---

(١) الجواب الصحيح ج ـ / ١٩ - مطبعة النيل .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

الجزع من الموت وصار يقول يا إلهى لم سلطت أعدائى على ، ليخفى بذلك عن إبليس فلا يعرف أنه الله أو ابن الله . ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين . فيحتج عليه الرب حينئذ ويقول بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحى ؟ فيقول له إبليس : بخطيئتك فيقول : ناسوتى لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تأخذ أرواحهم إلى جهنم . وأنا لاخطيئة لى . قالوا : فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم . وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه . فمن هذا قوله فقد قدح فى علم الرب وحكمته وعدله قدحا ما قدحه فيه أحد . وذلك من وجوه : أحدها أن يقال إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم وهم قالوا إنما أخذهم بذنب آدم . الثانى أن يقال من خلق من بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء وهم أيضا يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين فكيف جاز تمكن إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح ؟ . الوجه الثالث أن يقال : أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم . إما أن يكون ظلما من إبليس وإما أن يكون عدلا . فإن كان عدلا فلا لوم على إبليس ، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذى يستحقه بل يجب تمكينه من المتقدمين والمتأخرين . وإن كان ظلما فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح ؟؟ . فإن قيل لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز ، وإن قيل قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق

بين دفعه فى زمان دون زمان . أو جاز ذلك جاز فى كل زمان ، وإن امتنع امتنع فى كل زمان . الوجه الرابع أن إبليس إن كان معذورا قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا يلام عليه . وإن لم يكن معذورا استحق العقوبة ولا حاجة أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه . الوجه الخامس : إنه بتقدير أنه لم تقم عليه حجة قبل الصلب فلم يقم عليه الصلب فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوت هو ناسوت الرب وأنت يارب قد أذنت لى أن آخذ جميع ذرية آدم فأؤديهم إلى الجحيم ، وهذا واحد منهم وما علمت أنك أو ابنك اتحد به ، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور فى ذلك فلا يجوز أن تظلمنى . الوجه السادس : أن تقول إن إبليس يقول حينئذ يارب فهذا الناسوت الواحد أخطأت فى أخذ روحه لكن سائر بنى آدم الذين بعده لى أن أحبس أرواحهم فى جهنم كما حبست أرواح بنى آدم الذين كانوا قبل المسيح ، إما بذنب أبيهم وإما بخطاياهم أنفسهم . وحينئذ فإن كان ما يقوله النصارى حقا فلا حجة لله على إبليس . الوجه السابع : أن يقال هب أن آدم أذنب وبنوه أذنبوا بتزيين الشيطان فعقوبة بنى آدم على ذنوبهم هى إلى الله أو إلى إبليس ؟ فهل يقول عاقل إن إبليس له أن يغوى بنى آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعا بغير إذن من الله له فى ذلك ؟ وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل ما فى العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل إبليس لم يفعله الله شيئا من ذلك ، ولا عاقب أحداً على ذنب ؟ »

☆ ☆ ☆

وألفت فى هذا العصر كتب كثيرة فى الرد على أهل الأهواء والبدع كالنصيرية والجهمية والقدرية والمعطلة والمشبهة والدرزية والحلولية

والاتحادية وغير ذلك من الفرق . وممن كتبوا كثيرا فى ذلك الموضوع الغزالى وكتبه أشهر من أن تذكر . وكذلك ابن تيمية فقد رد على كثير من الفرق ، وألف ابن قيم الجوزية كتابين فى هذا الموضوع أحدهما « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » . والثانى « إغاثة اللهفان ، فى مصايد الشيطان » .

☆ ☆ ☆

وشرع فريق من كتاب المسلمين يهاجم أرباب الديانات الأخرى بطريقة غير مباشرة وذلك بالكتابة فى فضائل القرآن ومناقبه وبلاغته وإعجازه ، وبيانه وتبيينه ودرره وجواهره . وكانوا ينتهزون الفرص والمناسبات فيسوقون الطعن فى الأديان الأخرى بعامة والمسيحية بخاصة . ومن الكتب التى ظهرت فى هذا الصدد كتاب « جواهر القرآن للغزالى » . وكتاب « فضائل القرآن » لابن كثير ، وقد تكلم فيه عن كيفية نزول الوحى وانفراد النبى بأفضل المعجزات ، وعجز العرب العرباء عن معارضة القرآن . وعرض فى أثناء ذلك للتوراة والإنجيل ونوه باختلاف بعض نسخها عن بعضها الآخر .

وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلا ممتعا فى كتابه « إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان » بين فيه أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ومما جاء فى هذا الفصل قوله :

« ... وقد[1] تقدم أن جماع أمراض القلب هى أمراض الشبهات والشهوات . والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية

---

(١) ٢٤ طبع المطبعة الميمنية بمصر .

ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه . وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات الميعاد والنبوات ورد النحلْ الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله ، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول » .

فأنت ترى مما تقدم أن عصر الحروب الصليبية كان عصر نضال وجلاد بالقلم ، كما كان عصر نزال وقتال بالسيف ، وترى أن المسلمين لم يدخروا وسعا فى الذود عن دينهم بأسنة الأقلام ، فلا غرو إذا نشط التأليف فى هذا الميدان نشاطا كبيرا .

١٠

القصـــص

كان من الطبيعى أن تروج سوق القصص فى عهد الحروب الصليبية وذلك لتوافر المواد التى تقوم عليها وتنوع العناصر التى تنسج منها . وكانت العاطفة الدينية وسقوط القدس فى أيدى المسلمين فى ليلة المعراج مما دفع القصاص إلى تناول موضوع الإسراء والمعراج فى قصصهم وزادوا فى ذلك من خيالهم شيئاً كثيرا . كما أنهم وضعوا القصص الطويلة فى مولد الرسول وبعثته ، وما أجراه الله على يديه من المعجزات . وألفت قصص كثيرة وحكايات طويلة حول الأولياء والأقطاب والأبدال وما يأتونه من الكرامات والعجائب . هذا فى ميدان القصص الدينى .

☆ ☆ ☆

فإذا انتقلنا إلى الميدان العام للقصص وجدنا أن الحروب الصليبية قد أضفت عليها ثوبا حزينا . وشاهدنا أثر الكفاح بين المسلمين والإفرنج واضحا جليا . وكان هذا الكفاح ينتهى دائما بانتصار المسلمين على أعداء الدين وظفر الإسلام وانهزام النصرانية ، ولنضرب مثلا لذلك « حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية » وهى جزء من قصص ألف ليلة وليلة .

بدأت هذه القصة حزينة باكية إذ خرج الشاب على نور الدين من بيت أبيه بالقاهرة هاربا إلى الإسكندرية . وهناك وردت جارية جميلة هى بنت ملك فرنسا وعرضت للبيع ، فاشتراها نور الدين بألف دينار مع أن خيار أولاد الفرنج لم يكن ثمنهم يزيد على مائة دينار كما أخبره بذلك العطار الذى كان هذا الشاب نازلا فى داره .

وتصور لنا هذه القصة حال بعض النساء الفرنجيات فى ذلك العصر فمريم هذه تعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة . وتعلمت جميع الصنائع مثل الزركشة والخياطة والحياكة كما أنها أتقنت جميع صنائع الرجال والنساء حتى صارت فريدة زمانها ووحيدة عصرها وأوانها .

وحدث أن خرجت فى رحلة بحرية إلى جزيرة من الجزر لزيارة أحد الأديرة فقابلها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين فى سبيل الله فأخذوا جميع ما فى المركب من البطارقة والبنات والأموال والتحف وذهبوا إلى مدينة « القيروان » وعرضوا الأسرى للبيع فكانت مريم من نصيب رجل أعجمى اشتراها وعرض عليها الإسلام فأسلمت وعلمها العبادات فتعلمت من ذلك الأعجمى فى تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها ، وحفظها القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والأحاديث النبوية ، ثم قدم بها إلى الإسكندرية وباعها لمن ترغب فيه فوقع اختيارها على على نور الدين إذ كان شابا على درجة كبيرة من الجمال والفتنة .

وقد حزن أبوها حزنا شديدا وبعث وراءها المراكب بها البطارقة والفرسان والرجال والأبطال ليفتشوا عليها فى بلاد المسلمين فطال بهم الأمر على غير جدوى . ولكن والدها لم ييأس فأرسل رجلا أعور اليمين

أعرج الشمال . وكان هذا الرجل من أعظم وزراء الملك ، وكان جبارا عنيدا ذا حيل وخدع وأمره أن يبحث عنها في جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بملء مركب ذهبا . ففتش عليها ذلك الملعون فى جزائر البحار وسائر المدن فلم يقع لها على خبر إلى أن وصل إلى ثغر الإسكندرية ، وسأل عنها فعلم أنها عند على نور الدين المصرى . وحدث أن شاهدت مريم هذا الوزير الأعرج فعرفت أنه ما جاء إلا فى طلبها فأخذت تبكى وتنوح ، وشرعت تحذر زوجها من هذا الوزير الذى جاء ليحملها إلى والدها . ولكن الحذر لم يمنع من وقوع القدر فاستطاع هذا الإفرنجى عدو الدين أن ينصب الشراك ويظفر ببغيته ، ومن ثم أخذ نور الدين المسكين يلطم على خدوده ويبكى بكاء مرا حتى أوشك على الموت . ولكن الله أدركه فوجد مركبا كانت على سفر إلى بلاد تلك الجارية وفيها مائة من التجار المسلمين المؤمنين . ولما قطعت المركب مدة واحد وخمسين يوما خرج عليها القرصان فنهبوا المركب وأسروا جميع من فيها ، ونقلوهم إلى مدينة إفرنجة وعرضوهم على الملك ، وكان نور الدين من جملتهم ثم أمر الملك بإشارة من رجال الدولة والبطارقة بضرب رقاب هؤلاء التجار وذلك تطهيراً لبنته التى تنجست من المسلمين ولم ينج من أولئك الأسرى سوى نور الدين ، فقد وهبه الملك فى اللحظة الأخيرة إلى سيدة عجوز ليعمل خادما فى إحدى الكنائس .

ولم يمض قليل على وجوده بتلك الكنسية حتى التقى بمحبوبته مريم . وهنا تعطينا القصة فكرة عن شجاعة المرأة الأوربية وإقدامها وذكائها وحسن تفكيرها ولا عجب فى ذلك فقد رأى الشرقيون نساء الإفرنج وهن يحاربن جنبا إلى جنب مع الرجال ويبدين من الشجاعة ما يبعث على الدهشة .

واستطاعت مريم أن تهرب مع زوجها نور الدين فى مركب أبيها وتتجه مسرعة إلى الإسكندرية . وهنا يبدو فساد تفكير زوجها الشرقى ، فإنه أبى عليها أن تخرج إلى المدينة سافرة وتركها وحيدة فى المركب وخرج إلى المدينة ليحضر لها نقابا وحبرة . وفى تلك الأثناء وصل نفر من الإفرنج الذين قدموا وراءها مسرعين فوجدوها فى المركب فحملوها ورجعوا بها إلى بلادها فلما رآها أبوها قال لها :

« ويلك يا خائنة ! كيف تركت دين الآباء والأجداد وحصن المسيح الذى عليه الاعتماد واتبعت دين السواحين يعنى دين الإسلام الذى قام بالسيف على رغم الأصنام » .

وهم بقتلها لولا أن وزيره الأعرج عرض عليه أن يتزوجها ويبنى لها قصرا عالى الجدران حتى لا يستطيع أحد من السارقين أن يصعد على سطحه . ومتى فرغ من بنيانه ذبح على بابه ثلاثين من المسلمين ، وجعلهم قربانا للمسيح عنه وعنها ، فقبل الملك ذلك .

أما نور الدين فإنه رجع إلى البحر فلم ير للمركب أثرا ، وسمع قوما يقولون ما بقى لمدينة الإسكندرية حرمة حتى صار الافرنج يدخلونها ويخطفون من فيها ويعودون إلى بلادهم على هينة ، ولا يخرج وراءهم أحد من المسلمين ولا من العساكر الغازين . فأدرك نور الدين حقيقة الأمر واستقل مركبا كانت متجهة إلى بلاد إفرنجة وما كادت المركب تسير قليلا حتى هجم عليها قوم من الإفرنج وأسروا جميع من فيها وحملوها إلى ملك إفرنجة فذبحهم إلا نور الدين فقد كان أخره شفقة به ورحمة لصغر سنه ، فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة وسأله عن اسمه فأنكره وادعى اسما غيره . وفى تلك اللحظة وصل الوزير الأعرج وطلب

من الملك أن يمنحه ثلاثين أسيرا ليذبحهم على عتبة قصره وفاء بنذره . ولم يكن قد بقى من الأسرى سوى نور الدين فسلمه الملك للوزير الذى صفده بالسلاسل والأغلال وحبسه فى الأصطبل ريثما يجتمع لديه العدد المطلوب من الأسرى ليذبحهم جملة واحدة .

ومن ثم استطاع نور الدين أن يتقابل مع مريم ويرسما خطة للهرب . وفى ليلة استقل كل منهما جوادا كريما واتجها مسرعين إلى إحدى الغابات . ولما أقبل الصباح اكتشف الملك أمرهما فسار وراءهما بنفسه ومعه أبناؤه الثلاثة ونفر من الجنود الشجعان . ومن العجب أن القصة تمثل لنا على نور الدين المصرى جبانا رعديدا وتمثل لنا مريم فى صورة عنترة العبسى . فقد استطاعت هذه الفتاة أن تقتل إخوتها الثلاثة . وهنا تمثل لنا القصة الصراع العنيف بين الإسلام والنصرانية . فقد حدث أن تقدم منها أخوها الأكبر وقال لها :

« يا مريم ! أما يكفى ما جرى منك حيث تركت دين الآباء والأجداد واتبعت دين السياحين فى البلاد .؟ »

ثم قال :

« وحق المسيح والدين الصحيح إن لم ترجعى إلى دين أبائك وأجدادك من الملوك وتسلكى أحسن السلوك لأقتلنك شر قتلة ، وأمثل بك أقبح مثلة » فضحكت مريم من كلام أخيها ، وقالت :

« هيهات هيهات أن يعود ما فات ، أو يعيش من مات ، بل أجرعك أشد الحسرات ، أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبدالله الذى عم هداه ، فإنه هو الدين الحق ، فلا أترك الهدى ولو سقيت كئوس الردى » .

قتلت مريم أخاها الأكبر ثم نادت : « هل من مقاتل ، هل من مناجز ، لا يبرز لى اليوم كسلان ولا عاجز ، ولا يبرز لى إلا أبطال أعداء الدين لأسقيهم كأس العذاب المهين . يا عبدة الأوثان وذوى الكفر والطغيان ، هذا يوم تبيض فيه وجوه أهل الإيمان وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن » . وانتهت القصة بانتصار مريم على والدها وبقائها مع زوجها المسلم على الرغم من المحاولات الجبارة التى بذلها والدها لاسترجاعها . وعاد نور الدين إلى القاهرة فخرج الناس للقائه وفرح به أهله أشد الفرح ، وعاش مع زوجه فى سعادة وهناء .

فنرى من هذه القصة وأمثالها أن القاص كان يصرف همه إلى تملق عواطف الجمهور ، فمريم تضحى بأهلها وبلادها وتقتل إخوتها وترد على أخيها الأكبر ردا عنيفا حينما تعرض للدين الإسلامى ، وذلك فى سبيل زوجها المسلم الذى أحبها وأحبته وأخلص لها وأخلصت له .

☆ ☆ ☆

وقصة أخرى من قصص ألف ليلة وليلة يظهر فيها أثر الحروب الصليبية أكثر وضوحا وجلاء مما تقدم . تلك هى « قصة الصعيدى وزوجته الإفرنجية » .

وتتلخص هذه القصة فى أن رجلا من أهالى الصعيد زرع مقدارا من الكتان ، ولم يوفق إلى بيعه فى مصر فنصحه بعض الناس بالذهاب إلى عكا لعله يربح فيه ربحا عظيما . وكانت عكا فى ذلك الوقت بيد الإفرنج فعمل بهذه النصيحة وشد رحاله إلى هذه المدينة . وهناك جاءته امرأة إفرنجية لتشترى منه كتانا ، وكانت تسير بغير نقاب على عادة نساء الافرنج فرأى من جمالها ما بهر عقله وسحر لبه فباع لها شيئا من

الكتان وتساهل معها فى الثمن ، فأخذته وانصرفت . ثم عادت إليه بعد أيام فاشترت منه مقدارا آخر وتساهل معها أكثر مما تساهل فى المرة الأولى فكررت مجيئها إليه وعرفت أنه يحبها وكانت عادتها أن تمشى مع عجوز ، فقال للعجوز التى معها إنى شغلت بهذه المرأة الجميلة وسألها أن تمكنه من أن يتصل بها ، فطلبت منه خمسين دينارا فأجابها إلى ذلك ، ثم انصرف إلى بيته ، وأعد ما قدر عليه من مأكل ومشرب وشمع وحلوى . وكانت داره مطلة على البحر ، والزمن صيفا . فاتخذ من سطح الدار مكانا لهذه السهرة . وأتته هذه الفرنجية فلما فرغا من الأكل والشرب ، وكان القمر يرسل أشعته الفضية على سطح الدار تذكر العقاب الذى أعده الله لمن يرتكب مثل هذه الفاحشة فأنبه ضميره فعف عنها ولم يرتكب معها فاحشة ما . فلما طلع الصباح انصرفت الفرنجية غاضبة ، وخرج هو إلى موضع تجارته فعبرت عليه صاحبته مع المرأة العجوز وكأنها القمر ، فندم التاجر على الفرصة التى ضاعت منه ، وشرع يلوم نفسه سرا . ثم لحق العجوز وسألها أن ترجع إليه بتلك الحسناء ، فقالت له : وحق المسيح ما ترجع إليك إلا بمائة دينار ، فرضى الرجل بدفع هذا المبلغ . فلما أتته الفرنجية ليلا فى داره عف عنها كما عف فى المرة الأولى ، ثم ذهب فى الصباح إلى موضعه فمرت عليه العجوز فسألها أن ترجعها إليه فطلبت منه خمسمائة دينار فعزم على أن يدفع هذا المبلغ فيخسر ثمن الكتان جميعه ويفدى نفسه بذلك . فما شعر إلا والمنادى ينادى ويقول :

« يا معاشر المسلمين إن الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين جمعة ليقضوا أشغالهم وينصرفوا إلى بلادهم »

فانقطعت الإفرنجية عنه وأخذ الرجل فى تحصيل ثمن الكتان ، وخرج من عكا وقلبه يشتعل بحب هذه الفرنجية التى سلبت عقله وماله .

ثم ذهب إلى دمشق ومعه أحمال من البضاعة التى اشتراها من عكا فباعها وربح فيها مبلغا كبيرا من المال ، وذلك لانقطاع وصولها بسبب انقضاء مدة الهدنة . وأصبح بعد ذلك يتجر فى جوارى السبى ليذهب كما قال ما بقى عالقا بقلبه من حب تلك الفرنجية . ومضى عليه ثلاث سنوات وهو بتلك الحال . وجرى للملك الناصر مع الإفرنج ما جرى من الوقائع ونصره الله عليهم وأسر جميع ملوكهم ، وفتح بلاد الساحل . فاتفق أن جاءه رجل وطلب منه جارية للملك الناصر ، وكان عنده جارية حسناء فعرضها عليه فاشتراها بمائة دينار ، ولكن رسول صلاح الدين لم يدفع لصاحبنا التاجر سوى تسعين دينارا وأراد أن يعطيه العشرة الباقية فلم يجد فى خزينة السلطان لا قليلا ولا كثيرا ، لأن الأموال كلها انفقت فى حرب الإفرنج فأخبر السلطان بذلك ، فقال :

« امضوا به إلى الخزانة التى فيها السبى وخيروه بين بنات الإفرنج ليأخذ واحدة منهن فى العشرة دنانير » فلما ذهب إلى الخزانة وقعت عينه على الجارية الإفرنجية التى كان قد تعلق بها فى عكا وعرفها حق المعرفة ، وكانت امرأة فارس من فرسان الإفرنج فأخذها وانصرف إلى خيمته ، وقال لها « أتعرفيننى ؟ » قالت « لا » قال أنا صاحبك الذى كنت أتاجر فى الكتان وقد جرى لى معك ما جرى وأخذت منى الذهب وقلت : ما بقيت تنظرنى إلا بخمسمائة دينار . وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير قالت : « هذا سر دينك الصحيح . أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » . فأسلمت وحسن إسلامها . ثم ذهب التاجر إلى ابن شداد القاضى فعقد له عليها .

فلم تمض أيام حتى جاء رسول السلطان يطلب الأسارى والسبى ليردهم إلى ملوك الفرنجة ، وذلك بمقتضى اتفاق حدث بين المسلمين وأعدائهم ، فرد كل من كان أسيراً من الرجال والنساء ، ولم يبق سوى هذه المرأة التى أسلمت وتزوجها تاجر الكتان . فنودى عليها وقال رسل السلطان إن امرأة الفارس فلان لم تحضر وطلبوها وشددوا فى ذلك . فوقع تاجر الكتان فى شدة وتغير لونه ، وكاد يقضى نحبه ، ولكن زوجته الإفرنجية التى أسلمت رفضت أن تفارق زوجها المسلم ، وقالت للسلطان إنها قد أسلمت وحملت ولا تستسيغ العود إلى بلادها . وكان بعض الفرنجة حاضرا فسمع كلامها ولم يجد مفرا من قبول الأمر الواقع . وهكذا رجع التاجر بزوجته ظافرا مسرورا . ورحل إلى بلاده بالصعيد وأقام بها ورزق منها أولادا بيض الوجوه بياضا مشربا بحمرة وكان هو أسمر اللون .

☆ ☆ ☆

وقد توخى القاص أن يظهر التاجر المسلم فى صورة رجل عفيف ، يوسوس له الشيطان بعمل السوء ويحاول أن يوقعه فى الخطيئة ، ولكن الرجل يتذكر دينه وما يأمره به من اجتناب الكبائر فيرجع إلى صوابه ويتمسك بأهداب دينه فكأفاه الله على ذلك بأن ساق له هذه الفرنجية فأخذها بثمن بخس دراهم معدودات وتمتع بها بطريق حلال مشروع . ولما ذكرها بنفسه قالت له هذا سر دينك الصحيح وأسلمت وأبت أن تعود إلى أهلها وترجع إلى وطنها وآثرت أن تعيش مسلمة مع زوجها المسلم فى بلاد المسلمين .

☆ ☆ ☆

وقد ظهر فى القصص التى وضعت فى ذلك العصر ضروب السحر والطلاسم والأرصاد كما اجتهد القصاص فى ذكر فضائل الجهاد والكفاح فى سبيل الله وبيان مزاياه ، وقد بدا ذلك واضحا وضوحا تاما فى قصة سيف بن ذى يزن الذى كان يسير بجيوشه غازيا محاربا الكفار والمشركين مناديا الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وخذل من كفر . يا لدين الخليل إبراهيم أبى الأنبياء وسيد البشر . وقد نزل فى إحدى غزواته فى وسط وادى الإقليم الخامس وأمر مسابق العيار أن ينادى بالإيمان فى تلك الوديان ويضعوا فى الكفرة السيف والسنان وقد أحاطت بالوادى الإنس والجان ، فالذى رمى سلاحه وأسلم نجا والذى أصر على الكفر هلك . وما زال الأمر كذلك إلى أن مضى هذا النهار وأسلم أهل الوادى بعد ما قتل منهم أزيد من نصفهم . ثم أمر الملك بالنزول فى ذلك الوادى ليقيم فيه النهار والليل حتى ترتاح الرجال والخيل ، وقال الحمد لله لقد قضيت الأشغال وملكت الملعونين أهل الضلال .

وهكذا طفق سيف بن ذى يزن ينتقل من إقليم إلى آخر ناشرا الإسلام ماحقا الكفر والطغيان وقد نصره الله نصرا عزيزا مؤزرا فلم يقف أمامه إنس ولا جان .

وقد اتخذ الأيوبيون من القصص وسيلة لنشر الدعوة إلى قتال الصليبيين فعينوا القصاص فى المساجد وفى صفوف الجيش ، ليقصوا على الناس أخبار المسلمين الأولين الذين أبلوا بلاء حسنا فى سبيل نشر الإسلام ، فانتصروا على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية انتصاراً تاما ، فحطموا الأولى وقضوا عليها قضاء مبرما ، واقتطعوا من الثانية كل ممتلكاتها فى آسيا وإفريقية .

وكان القصاص يذكرون للناس سير الأولين فيشعلون فى القلوب نار الرغبة فى التضحية والذود عن حياض الدين .

١١

النوادر والنكات

خلفت الحروب الصليبية التى لبثت مائتى سنة كثيرا من النوادر والطرائف ، وقد وعت كتب التاريخ والأدب التى أُلفت فى ذلك العصر قدرا كبيرا منها ، فروى لنا أسامة فى كتاب ـ الاعتبار ـ ما وقع له فى حياته من العجائب مع الإفرنج . قال :

« فمن جفاء أخلاقهم ـ قبحهم الله ـ أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى ، وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى ، وفيه الداوية [1] وهم أصدقائى ، يخلون لى المسجد الصغير أصلى فيه . فدخلته يوما فكبرت ووقفت فى الصلاة فهجم على واحد من الإفرنج ، مسكنى ورد وجهى إلى الشرق وقال : « كذا صل ! » فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عنى ـ وعدت أنا إلى الصلاة ، فاغتفلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ، ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : « كذا صل !» فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلى ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام وما رأى من يصلّى إلى غير الشرق » فقلت :

---

(١) الداوية (templers) أو الديوية قوم من الإفرنج كانوا يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمتنعون عن الزواج . وقد أقاموا فى هيكل سليمان فسموا الهيكلية أو الداوية . وقد امتازوا بالشجاعة والإقدام والتضحية . وكانوا قساة غلاظا .

« حسبى من الصلاة !! » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة » .

☆ ☆ ☆

الله طفل :

« ورأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين - رحمه الله - وهو فى الصخرة ، فقال : « تريد تبصر الله صغير » قال : « نعم » فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير فى حجرها فقال : « هذا الله صغير » تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .»

☆ ☆ ☆

كردى يتأبط رأس أخيه :

« ومن عجب ما جرى فى تلك الوقعة بالإفرنج أنه كان فى عسكر حماة أخوان كرديان اسم الواحد بدر ، واسم الآخر عناز . وكان هذا عناز ضعيف النظر . فلما كسر الإفرنج وقتلوا قطعوا رءوسهم وشدوها فى سموط خيولهم ، وقطع عناز رأسا وشده فى سموطه فرآه قوم من معسكر حماة فقالوا له : « يا عناز أى شيء هذا الرأس معك ؟. قال : سبحان الله لما جرى بينى وبينه حتى قتله » قالوا : « يا رجل هذا رأس أخيك بدر ! » . فنظره وتأمله فإذا هو رأس أخيه ، فاستحى من الناس وخرج من حماة ، فما ندرى أين قصد ولا عدنا سمعنا له خبرا . وكان أخوه بدر قتل فى تلك الموقعة ، قتله الإفرنج خذلهم الله » .

شيزرية تأسر ثلاثة إفرنج :

« وفى شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها نصرة خرجت مع الناس أخذت إفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر ، وغادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج . فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم ، وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم » .

أسيرة مسلمة تغرق نفسها :

« وكان فى جند الجسر رجل كردى يقال له « أبو الجيش » له بنت اسمها « رفول » قد سباها الإفرنج ، وهو قد توسوس يقول لكل من لقيه يوما « سبيت رفول » فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا فى جانب الماء سوادا فقلنا لبعض الغلمان : اسبح أبصر ما هذا السواد . فمضى إليه فإذا ذلك السواد « رفول » عليها ثوب أزرق ، وقد رمت نفسها من على فرس الإفرنجى الذى أخذها فغرقت ،وعلق ثوبها فى شجرة صفصاف فسكنت لوعة أبيها أبى الجيش . »

☆ ☆ ☆

وللقاضى ابن شداد كتاب أطلق عليه اسم « النوادر السلطانية » حشد فيه كثيرا من طرائف ما حدث فى ميادين القتال . من ذلك قوله :

...وكان الإفرنج خذلهم الله ـ قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن تدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزى الإفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الجنازير على سطح البطسة

بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان ، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم فى الحراقات والشوانى ، وقالوا لهم : نراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم . فقالوا : أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ فقالوا : لم نأخذ البلد بعد . فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر وقد أتت بطسة أخرى فى هوائنا فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد ، وكان وراءهم بطسة إفرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدة العسكر فنظروها فرأوها فقصدوها ينذرونها فاشتدت البطسة الإسلامية فى السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيما .

☆ ☆ ☆

ومن نوادر هذه الوقعة (وقعة عكا) ومحاسنها أن عواما مسلما يقال له عيسى وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو . وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر . وعام فى البحر فجرى عليه أمر أهلكه ، وأبطأ خبره عنا فاستشعرنا هلاكه ، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر فى البلد إذ هو قد قذف شيئا غريقا فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين . فما رئى من أدى الأمانة فى حال حياته ، وقد ردها فى مماته إلا هذا الرجل .

☆ ☆ ☆

هذه النوادر التى سقنا شيئا منها على سبيل المثال قد وقعت فعلا فسجلها الكتاب كما رأوها أو كما سمعوا بها .

وهناك نوع آخر من النوادر ظهر فى خلال هذه الحروب ، نوع اخترع اختراعا وابتداع ابتداعا ووضع للهزء والسخرية والضحك والتسلية . ومن هذا القبيل ما روى عن « الأمير بهاء الدين قراقوش [١] » . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك عند الكلام عن الحالة الاجتماعية إبان الحروب الصليبية ، وفيه يقول العماد الأصفهانى :

« ... غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته وفرط جموده ، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده » وقد تولى مصر نيابة عن صلاح الدين أثناء تغيبه فى الشام . وعهد إليه بالإشراف على تحصين القاهرة فجد فى إنشاء القلاع وشيد سورا كبيرا حول مدينة القاهرة . وكانت ظروف الحرب تقضى عليه بأن يكون شديدا قاسيا فسخر عددا عظيما من العمال فى بناء هذا السور ، وكان يجلب له الأحجار من جهات بعيدة فى الصعيد مع أن أحجار جبل المقطم كانت تصلح لذلك .

وينسب إليه اضطهاد النصارى والتضييق عليهم ، ومصادرة كثير من أموالهم .

وقد رماه بعض معاصريه بالغباء وعدم الفهم . كما عرف بجهله بالأدب وبعده عن أهله لذلك انتقم منه أحد أدباء عصره وهو ابن مماتى [٢] فوضع حوله كتابا سماه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » ملأه بالنوادر المضحكة وزعم أن « قراقوش » هو صاحبها أو هو الذى صدرت

---

(١) معناه العقاب ، بضم العين (قرا : أسود ، قوش : طائر) توفى سنة ٥٩٧ هـ .

(٢) كان ناظر الدواوين بالديار المصرية . وأصله من نصارى أسيوط توفى بحلب عام ٦٠٦ ترجمته فى وفيات الأعيان ج ١ ومعجم الأدباء ج ٦ .

عنه . فاذا قرأها الناس أغرقوا فى الضحك وأطلقوا ألسنتهم بهجاء « بهاء الدين » وذمه .

وقد أفلح ابن مماتى فيما قصد إليه من التشنيع على هذا الرجل . ثم جاء السيوطى فيما بعد فألقى محاضرة فى الجامع الطولونى أطلق عليها نفس الاسم الذى وضعه ابن مماتى لكتابه .

قال السيوطى : « سئلت [1] فى درسى بالجامع الطولونى عن « قراقوش » وهل له أصل فى التاريخ أم لا ، وهل ما يعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا فجمعت فيه الأوراق فى تلك الليلة وحررتها فى ساعات قليلة وكذا أصل وجوده » . ثم ساق النوادر الآتية وقد نقلها عن ابن مماتى أنه ـ أى قراقوش ـ نشر قميصه فوقع من على الحبل ؛ فتصدق بألف درهم . وقال : لو كنت لابسه تكسرت .

وإنه كان فى كل سنة يتصدق بمال جزيل . فلما انتهت الصدقة انهت إليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له . فقال : أما الصدقة السنة نفدت ولكن إذا كانت السنة الآتية فتعالى نرسم لك بكفن إن شاء الله تعالى . فتوجهت تتعجب من قوله .

وأنه وجد كردى يعمل فى حمارة فقال : حدوه فحدوه ، وقال حدوا الحمارة ، فقيل له إنها حمارة خرساء لا عقل لها ، فقال حدوها لأن لها الغرض لو اشتهت رفسته برجلها أو عضته بفمها أو هربت منه . حدوها لا تطمع فيها الزناة فحدوها .

---

(١) انظر الفاشوش ، فى أحكام قراقوش ، للسيوطى ـ مخطوط .

وأن امرأة شكت له زوجها أنه يأتيها من خلف . فقال : جزاه الله خيرا . ثم ألبسه خلعة وطاف به فى شوارع المدينة والمشاعلى ينادى عليه : هذا جزاء رجل قنع بثقب زوجته عن أولاد الناس حتى مات الرجل من الخجل .

وأن رجلين اشتكيا له رجلا كوسجا أنه ضربهما ونتف لحاهما . فرآه وهو لا لحية له وهما كبيرا اللحية . فقال : بل أنتما نتفتما لحيته ، ورسم بحبسهما حتى تطلع لحيته ، فسألا فضل الرجل وصالحاه حتى دخل الرجل وقال تركت أجرى على الله ، فأطلقهما .

وأنه أراد مجامعة جارية فلم يقم ذكره عليها فغضب . وقال : والله لأبيعن هذا واشترى غيره .

وأن جنديا ترك فى مركب وكان فيها فلاح وزوجته فضربها (أى ضرب الجندى زوجة الفلاح) فسقطت وكانت فى تسعة أشهر ، فشكا الفلاح له (أى قراقوش) فقال للجندى : خذها عندك وأطعمها واسقها حتى تصير فى تسعة أشهر أعدها لزوجها . فقال الفلاح : يا مولاى تركت أجرى على الله ، وأخذ زوجته وذهب .

وأن شخصا شكا له مماطلة غريمه . فقال : يا مولانا : إنى رجل فقير وإذا حصلت شيئا آتيه به فلا أجده ، فاذا صرفته جاء وطالبنى ، فقال قراقوش : احبسوا صاحب الحق حتى يصير المدين إذا حصل شيئا يجد له موضعا معلوما يدفع له فيه . فقال صاحب الحق : يا مولاى تركت أجرى على الله .

وأنه طار له باز فقال : اقفلوا باب النصر وباب زويلة فإن الباز لا يجد له موضعاً يطير منه .

وأنه تسابق مع كردى وكل منهما على فرس فسبقه الكردى . فقال للركبدار : لا تطعمه شيئا فى هذا الأسبوع . فقال له : كان يموت . فقال له ثانيا : علق عليه ولا تقل له إنى قلت لك ذلك حتى لا يظن أننا حلفنا باطلا .

وأنه كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما فزاد الدين عليه وما مات والده . فاتفق مع الغرماء على أن يدفنوا والده بالحياة فدخل هو والدائنون عليه وحملوه وغسلوه وكفنوه ووضعوه فى النعش وهو يصيح فلا يغاث . وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله فلما وصلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان مارا فنزل وصلى عليه . فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله جاءنى الفرج ، فجلس فى التابوت . وقال : يا مولانا السلطان خلص حقى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة . فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال : كذب على يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك . فقال للحاضرين : أتشهدون به ، فقالوا : نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جئت أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ! روح اندفن بلا صفاقة ، اندفن لئلا تطمع فينا الموتى ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم . فحملوه ودفنوه بالحياة فى ذمة قراقوش . وقد ختم السيوطى هذه النادرة بقوله : نسأل الله العفو والعافية » .

تلك هى المحاضرة التى ألقاها السيوطى فى الجامع الطولونى حينما سئل عن شخصية « قراقوش » .

ونلاحظ أن هذه النوادر لا تمثل شخصية الحاكم الظالم ، إنما هى

تمثل شخصية الرجل الأحمق الغبى المأفون . وهى على كل حال ضرب من الأدب الساخر الذى نشأ في عصر الحروب الصليبية .

وقد سار اسم « قراقوش » بفضل هذه النوادر فى الآفاق وامتدت شهرته فى طول البلاد وعرضها وتداولته ألسنة العامة فحرفوه وقالوا « قراقوس » و « أرجوز » وأطلقوه فى معرض الاستهزاء . واتخذوا نوعا خاصا من اللعب دعوه « أراجوز » كانوا وما زالوا حتى عصرنا هذا يعرضونه فى الموالد والمسارح العامية للتمثيل ويحركونه بشكل معين وينطقونه بالنكت والفكاهات ويجرون على يديه أعمالا هزلية تدل تارة على الحمق وأخرى على البله والخرق ، فيغرق الحاضرون فى الضحك ويطربون مما يشاهدون طربا عظيما ، ويقبلون على رؤية هذه اللعبة إقبالا كبيرا ينسون معه هموم الحياة وأعباءها .

١٢

الوصــــف

راجت سوق الأدب الوصفى فى عصر الحروب الصليبية رواجا كبيرا واتخذه كتاب كثيرون مجالا لإظهار قوتهم البيانية ومقدرتهم البلاغية ، فحشدوا فيه كثيرا من أنواع الجناس والطباق والتورية والاقتباس والاستعارة والتشبيه وغير ذلك . وأمدتهم ظروف الحرب بشتى الموضوعات ، فوصفوا المعارك والغزوات والقلاع والحصون وأدوات القتال وآلات النزال ومعدات الهجوم والحصار ، واستسلام المدن والقرى وانتصار المسلمين وانهزام الكفار . كما وصفوا بعض عادات الإفرنج وتقاليدهم وحفلاتهم وأعراسهم ، ومأكلهم وملبسهم ومهارتهم فى الصيد والفروسية . ووصفوا نساء الإفرنج وهن يحاربن فى ميادين القتال ويناضلن أشد نضال فى ساحات الجلاد والنزال .

١

وصف قران :

سجل ابن جبير فى رحلته إلى المشرق وصفا لحفلة زفاف أقامها الإفرنج فقال : « ...[1] ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٠٨ طبع أوربا .

جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل ذلك منتظم وهى رافلة فى حليها وحللها تمشى فترا فى فتر ، مشى الحمامة أو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر . وأمامها جلة رجالها من النصاري فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن فى أرفل الحلى والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة .

ولا شك فى أن لهذا الوصف قيمة تاريخية عظيمة ، فهو يعطينا فكرة عن حفلات الزفاف عند الأوربيين فى تلك العصور .



النظام عند الصليبيين :

وقد سجل صاحب الروضتين منظرا رائعا لتحرك جيش صليبى من جهة إلى جهة ، ومن هذا الوصف ندرك إلى أى حد كان الصليبيون يحافظون على النظام فى الجيش كما نرى ما امتازوا به من شجاعة فائقة . قال :

« ... [1] وفى تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون فى الساحل بالفارس والراجل ، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل . وكانت الرجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون وهم يرمون بالرنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم . ولقد شاهدتهم وفى ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمال ، هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة لا غير . وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام : الأول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدمة ، والانكبار والفرنسيسية معه فى الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة ، وفى وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على ما وصفته من قبل يسير أيضا فى وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيرا رفيقا ، ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا . وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم . فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع .

---

(١) الروضتين ج ٣ / ١٩٠ .

ولهذا الوصف أهمية تاريخية لا تخفى على أحد . وكثيرا ما كانت شجاعة الصليبيين وصبرهم على مكاره الحرب وشدائدها مثار إعجاب من كتاب المسلمين الذين أثنوا على أعدائهم فى مواطن كثيرة .

٣

الصليبيات :

وللعماد الأصفهانى وصف مؤثر للنساء الصليبيات وما كن يبذلنه فى سبيل الدفاع عن دينهن من نفس ونفيس .

قال : « ووصلت [1] أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر ، وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم ، وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المئونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها » .

« وفى الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس ، وكن فى زى الرجال ويبرزن فى حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذى أضلهن وعن نهج النهى أزلهن . وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كسوة ، فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة استبين واشترين . وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن

---

(١) الفتح القسى ٢٣٠ طـ ليدن .

يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ، ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء ، وأنه لا بقاء له إلا بالفناء وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء ، فانظر إلى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء » .

فأنت ترى من هذا أن المرأة الأوربية قد غادرت بلادها وركبت أخطار السفر وتحملت مشاقه وأعباءه مع بعد المسافة وصعوبة سبل المواصلات وأقبلت نحو المشرق لتشارك الرجل فى القتال والنضال .

٤

وصف القلاع والحصون :

كان الكتاب يتخذون من وصف القلاع والحصون ميدانا لإظهار قدرتهم فى فنون البلاغة وأنواع البيان ولنضرب لذلك مثلا ما كتبه القاضى الفاضل فى وصف قلعة نجم :

« ... هى نجم فى سحاب ، وعقاب فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر أن لا يحلها بقرعه ، بادية عصمة صافحها الزمن على أن لايروعها بخلعه . فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع حمص فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب . فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جدريا بضربها ، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها فاتسع الخرق على الراقع ، وسقط سعده على الطالع إلى مولد من هو إليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا» .

فأول ما يلاحظه القارىء فى هذا الوصف كثرة التشبيهات والاستعارات والحرص على السجع .

وقال الشهاب [1] محمود يصف حصنا :

« قد تقرط بالنجوم ، وتفرط بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله فى التخوم . تخال الشمس إذا علت أنها تنقل فى أبراجه ، ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة فى سراجه . لا يعلوه من مسمى الطيور غير نسر الفلك ومرزمه ، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين شمسه والمقل التى تطرف من أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ تتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقلت فى مصابه ، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر ، ويتخيل الفكر صورة الترقى إليه ثم لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الأودية خنادق لاتعلم منها الشهور إلا بأنصافها ، ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها ، وطالما لمحت الأحلام أن تخيل فتحه لمن سلف فى المنام فكم ذى جيوش قد أمات بغصة ، وذى سطوات أعمل فى أمره الفكر فلم يفز من نظره على البعد بفرصة » .

٥

فتح بيت المقدس :

ووصف القاضى الفاضل فتح بيت المقدس فقال :

« زاول المدينة من جانب فإذا هو أودية عميقة ولجج وعر غريقة

---

(١) ستأتى ترجمته فيما بعد .

وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ، وقدم المنجنيقات التى تتولى عقاب الحصون عصيها وحبالها ، ؤأوتر لهم قسيها التى تضرب ولا تفارق سهامها ولا سهامها نصالها ، فصافحت السور فإذا سهامها فى ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر بشرى من المنجنيق تخلد اخلاده إلى الأرض وتعلوه علوه إلى السماء ، فشج مرابع أبراجها وأسمع صوت عجيجها ورفع منار عجاجها وأسفر النقاب عن الخراب النقاب ، وأعاد الحجر إلى خلقته الأولى من التراب ، ومضغ سرد حجارته بأنياب مغولة ، وأظهر من صناعته الكثيفة ما يدل على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه إلى أن كادت ترق لمقتله » .

وهذا وصف جميل تظهر فيه الصياغة الفنية فى أجلى مظاهرها . ومن الصور البديعة التى ساقها الفاضل تشبيه السهام بالسواك تستاك به ثنايا شرفات الحصون والقلاع . وتشبيه وقوع السهام على الأسوار بالمصافحة .

☆ ☆ ☆

وقال فى هذا المقام :

فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماؤها نبل الوبال ، وتملأ أرضها بالنكاية والنكال ، وتهد بساريات حجارتها راسيات الجبال ، وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار ، وتوسع مجال الدوائر فى الديار ، وتخطف بخطافاتها أعمار الأغمار ، وتطير حمامها بكتب الحمام ، وتديم إغراء سهامها فى أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكشف النقابون نقاب السور

المحجوب فتهدم بنيانه ، وتداعت أركانه بتظاهر المنجنيقات عليها والنقابين .

وقد أكثر الفاضل هنا من الجناس والاستعارة .

٦

وصف المنجنيق :

ووصف القاضي المنجنيق فقال :

فسلمت كأنها بنان ، ونضنضت كأنها مرنان ، واهتزت كأنها جان ، وتقومت كأنها سنان ، وانعطفت كأنها عنان ، وأقدمت كأنها شجاع وأحجمت كأنها جبان ، ورمت رءوسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الرءوس المحلقة ، فأعادتهم إلى الخلقة الأولى مخلقة وغير مخلقة .

١٣

التــأليف

استطعنا أن نرى مما تقدم أن الحروب الصليبية أحدثت حركة عنيفة فى ميدان التأليف . وقد أشرنا فى غير هذا الموضع إلى قوم من المسلمين عجزوا عن الجهاد بالسيف فحملوا أقلامهم واتخذوا من التأليف ميدانا للكفاح والنزال والذود عن الدين الحنيف . ومن هؤلاء ابن منير [١] الإسكندرى الذي تتبع تفسير الزمحشرى للقرآن ورد على أقواله التى كانت تمثل آراء المعتزلة . قال ابن منير :

« ... [٢] ولا أجد فى تأخرى عن حضور الغزاة عذرا إلا صرف الهمة للتحذير من هذا المصنف ـ يعنى تفسير الكشاف للزمخشرى ـ فإنى تفقهت فى أصل الدين وقواعد العقائد مؤيدا بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء . وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه ، بلغنا الله الخير ووفقنا لما يرضيه ، وجعل أعمالنا خاصة لوجهه الكريم » .

وقال ابن قيم الجوزية :

« ... [٣] ومن بعض حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه

---

(١) هو الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية وفاضلها المشهور المتوفى سنة ٦٨٣ هـ .

(٢) هامش الكشاف ج ١ ص ٥٧٢ سورة التوبة .

(٣) مقدمة كتاب هداية الحيارى من اليهود والنصارى .

ورسوله ودينه ، ومجاهدتهم بالحجه والبيان والسيف والسنان ، والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان » .

وقال فى موضع آخر :

« ... [1] والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان ، ولهذا أمر به تعالى فى السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارا وتعذيرا ، فقال تعالى : (ولا تطع الكافرين وجاهدهم جهادا كبيرا) وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين فى المقام والمسير ، فقال تعالى : (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق » .

فلا عجب والحالة هذه أن ظهرت كتب كثيرة فى الرد على اليهود والنصارى والمعتزلة والمجوس والدروز . فألف ابن قيم الجوزية كتاب « هداية الحيارى من اليهود والنصارى » كما ألف كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » وكتاب « إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان » . وقد رد ابن تيمية على كثير من الفرق ولا سيما المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة . كما رد على النصارى فى كتاب دعاه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » وقد سبقت الإشارة إليه . ولحجة الإسلام الغزالى مؤلفات كثيرة فى الرد على أهل البدع والأهواء والزنادقة والملحدين .

وشرع كتاب كثيرون يؤلفون الكتب فى مزايا التوحيد وفضائل

---

(١) مقدمة القصيدة الكافية الشافية لابن قيم الجوزية . المطبعة الخيرية بمصر .

الإسلام والقرآن . فظهر كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، وكتاب فى التوحيد له ، وكتاب فضائل القرآن لابن كثير [1] القرشى الدمشقى وغير هذا كثير .

وكان لاشتداد العاطفة الدينية أثره فى توجيه التأليف وجهة معينة فى هذا العصر . فظهرت كتب كثيرة فى السيرة النبوية ، وتوسع المؤلفون فى تناول الحديث عن مولد الرسول ومعجزاته وإسرائه ومعراجه ووضعت فى ذلك كتب لا تحصى عدا .

وقد شجع الأيوبيون التأليف والمؤلفين تشجعيا كبيرا . ذكر القاضى ابن شداد فى كتاب « النوادر [2] السلطانية » ما نصه :

« ... وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه - يعنى صلاح الدين - يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا من أخبار الجهاد . ولقد ألفت له كتب عدة فى الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » .

فنرى مما تقدم ان الدعاية للحرب كانت من أهم الأسباب التى دفعت الملوك الأيوبيين لتشجيع حركة التأليف ولا سيما ما كان محرضا على قتال الكفار أعداء الإسلام والمسلمين . فلا غزو أن ظهرت كتب كثيرة تحث على الجهاد وترغب فيه . وليس هناك من شك فى أن الدعاية للجهاد قد سيطرت على جميع مؤلفى ذلك العصر . فإذا وضع

---

(١) مطبوع .

(٢) ص ١٧ ط الآداب بمصر .

أحدهم كتابا فى الأدب أفرد بابا خاصا للشجاعة وأخبار الشجعان فى عهد الرسول والصحابه . وخصص بابا آخر للجهاد وثوابه وحشد فى هذا الباب كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحرض على الدفاع عن الدين وقتال المشركين . واتخذ المؤلفون من سيرة المسلمين الأولين مادة غزيرة لبث روح الحماس والغيرة على الدين ، فألفت كتب كثيرة فى مناقب الخلفاء الراشدين . وممن كتبوا فى هذا الموضوع شيخ الإسلام موفق [١] الدين المقدسى الحنبلى الذى وضع كتاب (منهج القاصدين ، فى فضائل الخلفاء الراشدين) . وابن الخطيب [٢] صاحب كتاب « مناقب الإمام الشافعى » . والنووى [٣] صاحب كتاب « مناقب الإمام الشافعى ومن غلى أثره من العلماء والمصنفين » ، وابن خميس [٤] الشافعى صاحب كتاب « مناقب الأبرار ، ومحاسن الأخيار » جمع فيه مائة ترجمة من تراجم الصوفية والصالحين . وكمال [٥] الدين بن طلحة صاحب كتاب « مناقب السول ، فى مناقب آل الرسول » . وسبط [٦] ابن الجوزى صاحب كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » . وهو فى سبعة عشر مجلدا . وأسامة بن منقذ صاحب كتاب « مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز » وكتاب « مختصر مناقب عمر بن الخطاب » . اختصرهما من كتابين لابن الجوزى . وعلى [٧] بن سرور

---

(١) (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) .

(٢) توفى سنة ٦٠٦ هـ .

(٣) ولد بدمشق ١٣١ وتوفى بها ٦٧٦ هـ .

(٤) توفى ٥٥٢ هـ .

(٥) توفى بحلب ٦٥٤ هـ .

(٦) توفى ٦٥٤ هـ .

(٧) ٥٤١ - ٦٠٠ هـ

الدمشقى الصالحى الحنبلى صاحب كتاب «المحنة عن إمام أهل السنة وقائدهم إلى الجنة أحمد بن حنبل الشيبانى » . ومحمد [1] بن القاسم الحسينى صاحب كتاب « مجمع الأخبار فى مناقب الأخيار » وصفى [2] الدين الحنفى صاحب كتاب « القول الجلى فى ترجمة ابن تيمية الحنبلى » وغير ذلك مما يضيق بذكره هذا الكتاب .

كما ظهرت كتب كثيرة فى فضائل الشام والقدس والمسجد الأقصى . ومثال ذلك كتاب « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » لأحمد [3] بن محمد المقدسى الشافعى ضمنه ما ورد من الأخبار والآثار فى القدس والشام وجعله على قسمين : الأول فى فضائل الشام وبيان حدوده . والثانى فى فضائل المسجد الأقصى . وكتاب « فضائل الشام » للسمعانى [4] .

ووجد المؤرخون فى الملوك الأيوبيين وملوك الدولة الأتابكية بالشام مادة خصبة للتأليف ، فظهرت كتب كثيرة فى مناقبهم وفضائلهم وجهادهم وكفاحهم . قال صاحب كتاب الروضتين [5] :

« .. وقد سبقنى إلى تدوين مآثرهما (نور الدين وصلاح الدين) جماعة من العلماء والأكابر الفضلاء . فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم على ابن الحسن الدمشقى فى تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكى رحمه الله ، ولأجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه فى خطبته .

---

(١) توفى بدمشق ٦٧٦ هـ .

(٢) ٦٦١ - ٧٢٨ هـ .

(٣) المتوفى ٧٦٥ هـ .

(٤) المتوفى ٥٦٢ هـ .

(٥) ج ١ / ٤ .

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى [1] فى مذيل التاريخ الدمشقى قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى - عرف بابن الأثير - مجلدة فى الأيام الأتابكية كلها وماجرى فيها وفيه شىء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرعة عنها . وصنف القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلى - عرف بابن شداد - قاضى حلب مجلدة فى الأيام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح ، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى . وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن حامد الأصفهانى كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعانى الصحيحة أحدهما « الفتح القسى [2] » اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . والثانى « البرق الشامى [3] » ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة صلاح الدين ، وهى سنة تسع وثمانين فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية ، إلا أن العماد فى كتابيه طويل النفس فى السجع والوصف يمل الناظر فيه » فألف أبو شامة المقدسى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ، بدأه من سنة ٥٨٣ وانتهى إلى سنة

---

(١) الشهير بابن القلانسى .

(٢) مطبوع ومتداول .

(٣) موجود باكسفورد وهو فى سبعة مجلدات .

(٤) ذكر أبو شامة المقدسى فى الروضتين كتبا أخرى للعماد منها كتاب « خطفة البارق وعطفة الشارق » .

٥٨٦ هـ . وقد اعتمد فى كتابه كثيرًا على كتب العماد الأصفهانى وابن الأثير وابن شداد وكتابه مفيد جدا . وبه مقدار كبير من الشعر ، ومقدار من رسائل القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى . وقد ألف كتابا آخر سماه « الذيل [1] على الروضتين » وفيه تراجم مختصرة لمن ورد ذكرهم فى كتاب الروضتين من الأدباء والشعراء والعلماء والمؤرخين . ويلاحظ أن المقدسى لم يذكر هنا للعماد سوى كتابين مع أنه فى ثنايا كتاب الروضتين أشار إلى كتب أخرى للعماد .

قال فى ص ٢١٨ ج ٢ ما نصه :

« ... وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى التى أشار إليها فى آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين فقد وقفت عليها »

وقال فى ص ٢٣٣ من الجزء المذكور ما نصه :

« وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه (خطفة البارق وعطفة الشارق) ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفى هو رحمه الله فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة » .

وظهرت كتب أخرى غير ما تقدم منها كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ويعرف بتاريخ الواصلين للقاضى [2] جمال الدين بن واصل الحموى . و « الدر الثمين فى سيرة نور الدين » لابن قاضى شهبة الأسدى الدمشقى المتوفى ٨٧٤ هـ .

---

(١) منه صورة شمسية بدار الكتب المصرية . وقد طبع حديثا .

(٢) توفى سنة ٢٩٧ وتوجد نسخة من كتابه المذكور مأخوذة بالتصوير الشمسى ومحفوظة بدار الكتب المصرية فى جزأين .

وما زالت أخبار الدولتين النورية والصلاحية وأخبار دولة المماليك وأخبار الحروب الصليبية موضوعا للمؤرخين ، وما زالت الكتب تؤلف فى تاريخ تلك العصور وتجد إقبالا كبيرا من الجمهور .

ونضج علم التاريخ بوجه عام وألفت فيه كتب ضخمة ما زلنا ننتفع بما وصل إلينا منها وسنظل كذلك ، ومن هذه الكتب « الكامل لابن الأثير » و « تاريخ دول الإسلام [1] » للذهبى ، و « تاريخ دمشق لابن عساكر [2] » ، و « البداية والنهاية » لابن كثير [3] ، و « المختصر فى تاريخ البشر » لأبى الفدا [4] ، و « تتمة المختصر فى أخبار البشر » لابن الوردى [5] ، و « عيون التواريخ » لابن شاكر الحلبى [6] ، و « التبر المسبوك فى تواريخ الملوك » تأليف الملك عماد الدين الأيوبى [7] صاحب حماة . وغير هذا مما يتعذر إحصاؤه .

ووضعت كتب كثيرة فى مناقب الأولياء والصالحين . مثال ذلك مناقب عبد الرحيم القناوى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ . ومناقب أحمد البدوى وابراهيم الدسوقى وابن الفارض وغيرهم .

ويلاحظ أن الكتب التى ظهرت فى القرن الأول من بدء الحروب الصليبية كانت فى أغلبها تحمل سيما الجد والوقار وذلك أمر طبيعى ،

---

(١) ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ .

(٢) ٤٩٩ - ٥٧١ هـ .

(٣) توفى ٧٧٤ هـ .

(٤) توفى ٧٤٨ هـ .

(٥) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

(٦) ٧٦٢ - ٧٣٢ هـ .

(٧) توفى سنة ٦٢٢ هـ .

فالحياة كانت في تلك الفترة عابسة فيها عناء وتعب ، وخوف وجزع ، وألم وحزن ، وبكاء وعويل . لذلك اتجه كثير من المؤلفين فى مؤلفاتهم وجهة إصلاحية واتخذوا الأدب وسيلة للإصلاح والتهذيب ، وطريقا للتعليم والتثقيف وبابا للوعظ والإرشاد . وقد ظهر ما يقصدون إليه من التأليف من العناوين التى اختاروها لكتبهم فصرت تسمع « الاعتبار » و « لباب الآداب » وكلاهما لأسامة بن منقذ ، و « الآداب النافعة » لابن شمس [1] الخلافة الأفضلى وغير ذلك .

فإذا ألقينا نظرة على كتاب « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ وجدناه يتضمن الكلام عن الوصايا . ثم السياسة والكرم والشجاعة والآداب وكتمان السر وأداء الأمانة والتواضع وحسن الجوار وفضائل الصمت وحفظ اللسان والقناعة والحياء والصبر والنهى عن الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف والتحذير من الظلم والإحسان وفعل الخير والصبر على الأذى ومداراة الناس وحفظ التجارب وغلبة العادة . ثم الكلام عن البلاغة فيسوق ألفاظا من كلام النبى والصحابة وغيرهم . ثم يورد شعرا فى مختلف الأغراض . ثم يأتى بأقوال من كلام الحكماء ونوادر فيثاغورس وسيخانس وسليمان وأفلاطون .

وأهم باب فى الكتاب هو باب الشجاعة . وقد أورد فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدعو إلى الجهاد .

ثم ساق فصلا فيما ورد من أسماء الشجاعة والشجاع . ثم تكلم عمن اشتهر بالفتك فى الجاهلية والإسلام فى عصر الرسول وبعده وتكلم عن سعد بن أبى وقاص وحروبه ضد الفرس وانتصاره فى وقعة القادسية ، ثم

(١) توفى سنة ٦٢٢ هـ .

ساق بعض قصص عن عنترة العبسى ، وأورد شعرا كثيرا فى التحريض على القتال والكفاح والجلاد لشعراء الجاهلية وشعراء الخوارج . وتكلم قليلا عن وقعة « صفين » . ثم ذكر خالد بن الوليد وما قيل فيه من عبارات المدح والثناء . ثم تكلم عن بعض المعارك التى نشبت بين قومه وبين الاسماعيلية عند قلعة شيزر ، ثم ذكر بعض النوادر التى ظهرت فيها جرأة المسلمين فى حروبهم ضد الروم وساق شيئا مما حكى عن أبى دلف ومغامراته . وتكلم عن الشجاعة عند أفلاطون وهى قسمان : شجاعة تظهر فى الحرب والطعان ، وأخرى أدبية تتجلى فى إبداء الرأى واستعذاب الموت فى سبيل الدفاع عن المبدأ . وتكلم عن شجاعة سقراط حين تجرع السم ومات . وساق شعرا كثيرا فى التمدح بالإقدام والاستهانة بالموت الزؤام . وتكلم عن الفند الزمانى وشعره الذى أنشده فى حرب بكر وتغلب ، وذكر دريد بن الصمة ومغامراته وأتى بشىء من شعره ، وذكر زيد الخيل وكفاحه وأتى ببعض قصائده التى نظمها فى هذا الغرض ، وقطرى بن الفجاءة وأتى بشىء من شعره فى الحماسة والإقدام .

وهذا الفصل من أهم فصول الكتاب . ولا شك فى أن وضع ذلك الكتاب على هذا النحو كان من وحى الحروب الصليبية ، فالكتاب لا يخرج عن شيئين : الأول الدعوة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة التى يقوم عليها كيان الشعوب . وقد كان المسلمون فى عصر أسامة فى حاجة شديدة إلى واعظ يذكر وينذر وقد سبق أن تكلمنا عن ذلك حينما تناولنا الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . الشىء الثانى هو الدعوة إلى الجهاد وقد سلك فى سبيل ذلك طرقا مختلفة وسبلا شتى . فلجأ إلى الدين يذكر به ويحذر . وإلى ماضى المسلمين المجيد ففيه ما يستثير النفوس ويبعث فيها الحمية . وإلى أخبار المستعذبين الموت فى سبيل

الدفاع عن معتقداتهم والذود عن آرائهم ، واتخذ من أخبار الخوارج مجالا للقول فى هذا المقام .

☆ ☆ ☆

وظهرت كتب كثيرة فى علم السياسة وتدبير شئون الرعية . ومنها كتاب « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » لأبى الفضائل عبد الرحمن ابن عبدالله من علماء القرن السادس . ألفه للسلطان صلاح الدين . وهو يحتوى على طرائف من الحكمة والأدب وأصول من السياسة وتدبير الرعية ومعرفة المملكة وقواعد التدبير وقسمة الفىء والغنيمة على الأجناد وما على الجيش من حقوق الجهاد . وقد نبه فيه المؤلف على الشيم الكريمة والأخلاق الذميمة وأشار فيه إلى فضل المشورة والحث عليها وكيفية مصابرة الأعداء ، وسياسة الجيش وأودعه من الأمثال ما يسبق إلى الذهن شواهد صحتها ومعالم أدلتها مع نوادر من الأخبار وشواهد من الأشعار .

ومن أهم أبواب هذا الكتاب الباب الخامس عشر ، إذ فيه تكلم المؤلف عما ينبغى لأهل الجيش وما يلزمهم من حقوق الجهاد إذا توجه الملك بالجيش إلى قتال المشركين . وهذه الحقوق قسمان : أحدهما حق الله تعالى . والثانى حق الملك . فأما حق الله تعالى فأربعة أشياء : أحدهما مصابرة العدو عند التقاء الصفين ولا ينهزم الجنود من مثليهم فما دون فإن الله تعالى فى الأصل فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين . ثم إن الله تعالى بعد ذلك خفف عن المسلمين لما شق عليهم الأمر فأوجب على كل مسلم أن يقاتل رجلين . ثم إن الله حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد أمرين إما متحرف لقتال فيأوى

للاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم .

الثانى : أن يقصد بقتاله نصرة دين الله وإبطال كلمة من خالفه من الأديان فيكون عند الاعتقاد حائزا لثواب الله تعالى ومطيعا له فى أمره ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل من الغنيمة فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين .

الثالث : أن يؤدى الأمانة فيما حازه من الغنائم لا يغل منها شيئاً بل يحملها جميعا إلى المغنم لتقسم بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة لأن لكل واحد منهم فيها حقا .

الرابع : أن لا يرعى فى نصرة دين الله تعالى ذا قرابة أو مودة فإن حق الله تعالى أوجب ونصرة دينه ألزم .

وأما ما يلزم الجيش من حق الملك فأربعة أشياء :

أحدهما الطاعة . وثانيها أن يفوضوا أمرهم إليه . وثالثها المسارعة إلى امتثال أمره ونهيه . ورابعها أن لا ينازعوه فى شيء من قسمة الغنائم إذا قسمها بينهم .

ولا ريب فى أن الظروف التى أحاطت بالمؤلف قد أوحت إليه بما كتبه عن الجيش ونظامه والجنود وواجباتهم وحقوقهم .

☆ ☆ ☆

وكان المؤلفون يبدءون مقدمات كتبهم بحمد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . والشهادة بأن

محمدا عبده ورسوله الذى جاء والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم . قال ابن قيم الجوزية فى مقدمة قصيدته النونية المعروفة بـ « الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية » .

« .... أرسله بالهدى ودين الحق بين يدى الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . أرسله على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، ودروس من الكتب ، والكفر قد اضطرمت ناره وتطايرت فى الآفاق شراره . وقد استوجب أهل الأرض أن يحل بهم العقاب وقد نظر الجبار تبارك وتعالى إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . وقد استند كل قوم إلى ظلم آرائهم وحكموا على الله سبحانه وتعالى بمقالاتهم الباطلة وأهوائهم ، وليل الكفر مدلهم ظلامه ، شديد قتامه ، وسبل الحق عافية آثارها ، مطموسة أعلامها ، ففلق الله سبحانه بمحمد ﷺ صبح الإيمان فأضاء حتى ملأ الآفاق نورا وأطلع به شمس الرسالة فى حنادس الظلم سراجا منيرا فهدى الله به من الضلالة ، وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى وأرشد به من الغى وكثر به بعد القلة وأعز به بعد الذلة وأغنى به بعد العيلة واستنقذ به من الهلكة وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ... »

وكانوا بجانب هذا يحمدون الله الذى جعل الأمة المحمدية أفضل أمم الأرض وأنعم عليها بنعمة الوحدانية ونور الإسلام .

قال الذهبى فى مقدمة كتابه ميزان الاعتدال :

« .... وأرسل رسله الكرام بأصدق الكلام وأبين التحرير ، وختمهم بالسيد أبى القاسم البشير النذير السراج المنير فأرسله رحمة للعالمين من

نار السعير ، وحفظ شريعته من التبديل والتغيير ، وصير أمته خير أمة أخرجت للناس فيا حبذا التصيير . وجعل فيهم أئمة ونقادا يدققون فى النقير والقطمير ، ويتبصرون فى ضبط آثار نبيهم أتم التبصير .... »

هذا موجز عن حركة التأليف فى عصر الحروب الصليبية .

الفصل الثانى

أشهر الكتاب

إن الكتاب والمؤلفين الذين ظهروا فى عصر الحروب الصليبية أكثر من أن يحيط بهم العد . لذلك سنقصر الكلام على خمسة من مشاهير الرجال الذين نبغوا فى تلك الأيام وطارت شهرتهم فى الآفاق كل مطار .

١

القاضى الفاضل

٥٢٥ ـ ٥٩٦ هـ

اسمه :

هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد البيسانى اللخمى العسقلانى المولد المصرى الدار المعروف بالقاضى الفاضل ، الملقب مجير الدين .

نشأته وقدومه إلى مصر :

وكان والده متوليا القضاء بعسقلان فبعث ولده الفاضل إلى مصر فاتصل بأبى الفتح بن قادوس واستفاد منه كثيرا ثم ظهرت مواهبه فى فن الإنشاء فعين فى ديوان ثغر الإسكندرية ، وما زال يرقى بجده واجتهاده . حتى وصل إلى مرتبة الوزارة فى أيام صلاح الدين ، وبقى فى هذا المنصب أيام الملك العزيز بن صلاح الدين ، ثم ابنه الملك المنصور إلى أن توفى فجأة سنة ٥٩٦ هـ ودفن بسفح المقطم .

مواهبه وصفاته :

امتاز القاضى الفاضل برأى سديد ونظر سليم وعقل راجح وفكر ثاقب لذلك كان صلاح الدين يستشيره فى أمور الحرب والسلم ويستضىء بآرائه ويعمل بمشورته ونصائحه . وقد عهد إليه فى تدبير شئون البلاد أثناء تغيبه فى الشام . وكان القاضى مخلصا لسيده إخلاصا كبيرا ، غيورا على مصلحة الإسلام والمسلمين فبذل مجهودات عظيمة فى تجهيز العساكر وتعمير الأسطول وحمل المال والمؤن ومعدات القتال . وكان يوالى السلطان برسائله مشيرا وناصحا منذرا ومذكرا ، محذراً ومبصرا ، حاثا على الصبر فى الكفاح . محرضا على الاستمرار فى قتال الصليبيين . وكان السلطان يجد فى رسائله مشجعا على تحمل أعباء الجهاد ، وحافزا على مواصلة النضال والجلاد .

وكان بجانب هذا ساهرا على مصلحة البلاد الداخلية ، يصرف عنايته فى تصريف أمورها ، ويراقب دقيقها وجليلها ، ويقضى على دسائس الدساسين وكيد الكائدين الذين كانوا يتآمرون على قلب دولة صلاح الدين مستعينين على ذلك بالصليبيين .

هذه مواهبه فى ميدان السياسة والحكم ، أما مواهبه فى الكتابة والإنشاء فقد تغنى بها كثيرون . قال العماد الأصفهانى :

« ... وكانت كتابته كتائب النصر ؛ وبراعته رائعة الدهر ويراعته بارية البرية ، وعبارته نافثة فى عقد السحر . وكانت بلاغته للدولة مجملة ، وللمملكة مكملة ، وللعصر الصلاحى على سائر الأعصار مفضلة . ومفتتحاته فى الفتوحات البديعة بديعة ومخترعاته فى الصنائع المخترعة صنيعة ، وإنما نسجت على منواله ومزجت من جرياله ورويت بزلاله . وهو الذى نسخ أساليب القدماء بما قدمه من الأساليب ، وأعربه من الإبداع وأبدعه من الغريب . وما ألفيته كرر دعاء ذكره فى مكاتبته ولا ردد لفظا فى مخاطبته بل تأتى فصوله مبتكرة مبتدعة ، مبتدهة لا مفتكرة ، بالعرف والعرفان معرفة لا نكرة » .

وقال صاحب نهاية الأرب :

« ... [1] إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت . وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها وبين يديه استقرت بها نواها . فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة والفاضل بغير إطالة . وقد أنصف بعض الكتاب فيه ، ونطق من تفضيله بملء فيه ، حيث قال : كل فاضل بعد الفاضل فضله ، وكل عرف له فضله .. »

---

(١) ج ١ / ٨ دار الكتب .

الطريقة الفاضليّة :

وقد نهج القاضى فى الكتابة نهجا خاصا فأسرف فى العناية بالألفاظ أسرافا كبيرا وابتكر فى الإنشاء تلك الطريقة الفاضلية وهى تنحصر فى التزام السجع كشىء لابد منه ، والإفراط فى التشبيه والاستعارة والمجاز والجناس والطباق والتورية والاقتباس والمطابقة وغير ذلك من محسنات الألفاظ التى فتن بها أهل عصره واتبعها من جاء من بعده . وكان الفاضل قويا فى العربية متمكنا من اللغة واسع الحفظ بارعا مجودا ينفث قلمه السحر ويتلاعب بالألفاظ ويلبس المعنى الجليل اللفظ الجميل . لذلك كان انتاجه متين النسج رصين التأليف . ولكن الذى جاءوا بعده لم يكونوا فى قوته فضعفت كتابتهم ووهت أساليبهم وسخفت معانيهم وركت تعبيراتهم ، وأتى إنتاجهم خاليا من كل قيمة أدبية ، مجردا من كل صبغة بيانية .

وكان الفاضل لا يتقيد بالمحسنات اللفظية فى كثير من الرسائل الحكومية التى يبعث بها إلى السلطان فى الشام ، إذ كان همه الأول إخبار سيده بأمور البلاد وشؤونها الاجتماعية والاقتصادية . ولكنه فى غير هذه الرسائل كان يميل إلى المحسنات اللفظية كل الميل .

وكان يستخدم كل مواهبه البيانية فى الوصف . فإذا وصف قلعة أو حصنا أو آلة من آلات الحرب أو دخول المسلمين بلدا من البلاد حشد من التشبيهات والاستعارات كل ما فى وسعه حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ هذا الوصف أنه لم يغادر تشبيها مناسبا إلا أتى به .

إكرامه للأدباء والشعراء :

وقد التف حوله كثير من الأدباء والشعراء ومدحوه بالقصائد الطوال وأشادوا بفضائله وتغنوا بمناقبه ، وكان الفاضل جواداً كريما فكان الأدباء والكتاب بظله يقيلون ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون ، وبعز حمى حمايته يعزون .

وممن مدحه من الشعراء ابن سناء الملك وله فيه قصائد كثيرة جاء فى إحداها :

عبد الرحيم على البرية رحمة	أمنت بصحبتها حلول عقابها
يا سائلا عنه وعن أسبابه	نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم أن فيصل خطبه	بخطا يراعته وفصل خطابها
ولقد علت رتب الأجل عن الورى	بسمو منصبها وطول نصابها
وأتته خاطبة إليه وزارة	ولطالما أعيت على خطابها
مال الزمان لغيره إذ رامها	تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من آرابها	وارجع وراءك لست من أربابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا	ذلت من الأيام شمس صعابها
وأتت سعادته إلى أبوابه	لا كالذى يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها	لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يقول ونفسه	مشغولة بالذكر فى محرابها
فى الصوم والصلوات أتعب نفسه	وضمان راحته على إتعابها
وتعجل الإقلاع عن لذاته	ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها	منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها	عمالها بذالها وهابها

وقال آخر :

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي	فلا ينتحله كل عضب ولهذم
وإن كان فيه للأسنة والظبى	مساعدة فالفضل للمتقدم
تشير على الإسلام منك فراسة	لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها	قواطع تبر أو نوافذ أسهم
ألا حبذا فتح نشرت لواءه	وقلت لخيل الله يا خيل أقدمى
وقمت وقد نام الأنام مناجيا	بمولاى نَبجٌ المسلمين وسلم

☆ ☆ ☆

إنتاجه الأدبى :

عرف القاضى بغزارة إنتاجه الأدبى . وقد كانت ظروف الحرب تحتم عليه كرئيس للحكومة وقائم بأعبائها أن يكثر من تحرير الرسائل فى شتى الأمور إلى الملوك والأمراء والقواد والحكام والنواب . وقد ظل مدة طويلة يصرف أمور البلاد فلا عجب إذا قيل إن رسائله لو جمعت لأربت على مائة مجلد . قال العماد الأصفهانى :

« ... إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة ، خير بضاعة . أين قس فى مقام حصافته ؟ ومن حاتم وعمرو فى سماحته وحماسته ؟؟ . »

ومن سوء الحظ أن رسائله قد ضاع معظمها ولم يصلنا إلا جزء يسير منها . وفى دار الكتب المصرية ثلاثة مجاميع من مختارات رسائل القاضى وهى :

١ ـ الفاضل من كلام القاضى الفاضل ، وهى مختارات من رسائل القاضى جمعها ابن نباته المصرى وصدرها بمقدمة جاء فيها : « ... فهذه فقر جليلة النماء والانتماء ، وكلمات طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . اخترتها من مبتكرات سيدنا القاضى الفاضل رحمه الله اختيارا يقوم عنى بوصفه ، وينأى عن الدر بعطفه ... »

٢ ـ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . جمع العلامة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . قال فى مقدمته : « أما بعد لقد جمعت فى هذا الكتاب من رسائل القاضى الأجل الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله ما ينتفع به المبتدى ويتذكر به المنتهى ، والخير أردت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت » . وهو فى ٤٩ ورقة من الحجم الصغير .

٣ – فصوص الفصول وعقود العقول ، جمع ابن سناء الملك . جاء فى مقدمته : « ... وهذا الكتاب لاناقة لى فيه ولا جمل ، ولا إعمال ولا عمل ولا شكر ولا حمد وإن كان كله شكرى وحمدى ، وما فيه شيء من عندى ، وإن كان سببه كله من عندى . لأنه فصوص فصول ، وعقود عقول ، وفقر وفكر . وغرر وبدر ، مقصورة على ذكرى وشكرى ، ومدحى وحمدى ، ووصفى وتعظيمى وتقريظى وتفخيمى والإشارة إلى والنص على ، من الناطق الذي لا ينطق عن الهوى والصادق الذى لا يغلط إذا روى أو روى ، الأجل الفاضل أبى عبد الرحيم بن على البيسانى رضى الله عنه ... » . وختم هذه المختارات بقوله : « ... هذا ما أخرجته من الصحف المكرمة المرفوعة وأبحتها للمجتنين لأنها من ثمار الجنة فيجب أن تكون لا مقطوعة ولا ممنوعة ... » وعدة هذه المختارات ١٠٢ ورقة من الحجم المتوسط .

٤ ـ ووصل إلينا بعض رسائل له فى كتب متفرقة مثل نهاية الأرب وصبح الأعشى والروضتين والنكت العصرية وغيرها .

٥ ـ وله ديوان شعر منه نسخة شمسية فى دار الكتب المصرية . وشعره ضعيف لا قيمة له على الإطلاق .

ولرسائل القاضى الفاضل فوق قيمتها الأدبية قيمة تاريخية كبيرة . فقد سجلت كثيرا من أحوال المسلمين الاجتماعية والأزمات العسكرية التى تعرضوا لها خلال هذه الحروب . وهى مرآة للحالة النفسية للمسلمين فى مصر والشام فى ذلك العصر وذلك بما تنطوى عليه من التفاؤل والتشاؤم وما يتجلى فيها من الحزن أو الفرح . ولنضرب لذلك مثلا قوله فى رسالة إلى صلاح الدين :

١

« .. المملوك ينهى أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته . والمعاصى فى كل مكان بادية ، والمظالم فى كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه . وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة فى رضاه ، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه فى غضبه .

بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة ، بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد ، وتتصدع بذكرها الأكباد . والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فى أتباعه ، وشيوع المظالم فى

ضياعه ، وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى وبالغفلة عن مرمتهما وبفقدهما فى أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة لا يؤمن سقوطها ، وافتضاح القدرة فى العجز عن إعادتها ، والمرمة أقرب تناولا من الإنشاء والتجديد . ولا شبهة أن مولانا عز نصره فى أشغال شاغلة وأمور متشددة وقضايا غير واحدة ولا متعددة ، ولكن قد ابتلى الناس فصبروا ، وأضجرتهم الأيام فما ضجروا . وأى عبادة أعظم من عبادته التى تقام بها والناس عنها قعود ، وصبر فى طلب جنتها على نار الحرب والوقت [1] ذواتى الوقود ، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل فى الأمور الخطيرة ، ولا يقدم بالعديد القليل على العدد الكثير . فالمولى إذا أقبل كان واحدا وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق ولايطمع بأن يقوم به الألف. وليذكر نوبة الرملة التى كان وقوعها من الله سبحانه أدبا لا غضبا وتوفيقا لا اتفاقا ، ولا يكره المولى أن تطول مدة البلاء بهذا العدو فثوابه يطول ، وحسناته تزيد وأثره فى الاسلام يبقى وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها ، والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامة جنده وبالأعداء فى أعدائه كجهاده لصاحب صيدا فى الإفرنج فهو جهاد قد أربى فيه رأى المولى فرجح ، والحديد بالحديد يفلح . وأكيد ما قوبل به العدو سلاحه ، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه ، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب ، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب .

---

(١) كان الفصل صيفا .

٢

وله من رسالة أخرى :

وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما ارجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الانفاق إلى مالا يسعه التدبير ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه ، وضياع فرصة واختلاف رأى بين المتشاورين من الجماعة وجود الألسنة بالآراء وبخل الأيدى بالمعونة وانفراد المولى بالتعب واشتراك الناس فى الراحة . وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذرا فى القعود وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس فهذه الأمور وإن كانت شدائد وزائدات على العوائد فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر وحسن الصبر ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر . ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى وعروة عزمه أوثق العرى لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها . فليس إلا التجرد للدعاء والتجلد للقضاء فلابد من قدر مفعول ودعاء مقبول ومن الأمثال المنظومة :

نحن الـذين إذا علـوا لم يبطروا يوم الهيـاج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ثم معاذ الله أن نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب

على الصبر . وإذا كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل المولى لابد منه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا . فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره وتملأ صدره ، فلا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم . وهذا على دين ما غلب بَكثرة ولا نصر بثروة إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (واشتدى أزمة تنفرجى) والغمرات تذهب ثم تجىء ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم فإنه ما ابتلى إلا بذنب .

٣

ومن رسالة له إلى أمير حلب :

... والله تعالى يجمع كلمة المسلمين على يد سلطاننا ولا يخلينا منه ومن بنيه حلى زماننا ، وشنوف إيماننا ، ويسعدنا من أكابرهم بتيجان رءوسنا ومن أصاغرهم بخواتم أيماننا .

ولو تفرغت العزمة الفلانية لهذا الكلب العدو فترجم كلبه ، وتكف غربه وتذيقه وبال أمره ، وتطفىء شرار شره ، وتعجل له عاقبة خسره ، فقد غاظ المسلمين وعضهم ، وفل جموعهم وفضهم ، وما وجد من يكفى فيه ويكفه ، ويشفى الغليل منه بما يشفه . ولو جعل السلطان عز نصره غزو هذا الطاغية مغزاه ، وبلاده مستقر عسكره ومثواه ، لأخذ الله الكافر بطغواه ، ولأبقى ذكرا ، وأجرى فى الصحيفة أجرا ، ولأطفأ الحقد الواقد ، بالحديد البارد ، وغنم المغنم البارد ، وسدد الله ذلك العزم

الصادر والسهم الصارد ، فلا بد أن يجرى سيدنا هذا الذكر ولو لما أحتسبه أنا من الأجر ، وما أورده المجلس عن فلان من صفو شربه وأمن سربه واستقراره تحت الظل الظليل السلطانى ، جعله الله ساكنا ، وأحله منه حرما آمنا ، ومن معافاته فى نفسه وولده وجماعته ، وأهل ولائه وولايته ، فقد شكرت له هذه البشرى ، وفرحت بما يسر الله ذلك المولى له من اليسرى ، غير أنى أريد أن أسمع أخباره منه لا عنه ، وبمباشرته لا باستنابته ، فلا عرفت مودته من المودات الكسالى ، ولا أقلامه إلا بلبس السواد على أنها مسرورة سارة لا ثكالى ...

٤

وله من رسالة أخرى :

ورد كتاب الحضرة السامية - أحسن الله لها المعونة ، ويسر لها العواقب المأمونة ، وأنجدها على حرب الفئة الكافرة الملعونة ، بخبر خروج الخارج من قلعة كذا ، وما صرح به من الخوف الذى ملأ الصدور والاستحثاث فى مسير العسكر المنصور . وكل ضيقة وردت على القلوب ففزعت إلى ربها فرجت فرجة . وأذكى لها اليقين سرجه ولم تشرك معه غيره مستعانا ، ولم تدع من خلقه إنسانا . فما الضيقة وإن كانت وعرة إلا ميسرة . لا جرم أن هذا الكتاب أعقبه وصول نهضة فلاح - نصر الله نهضاته ، وأدى عنه مفترضاته . فانتهض العساكر ، وقوتل العدو الكافر فنفس ذلك الخناق ، وتماسكت الأرماق ، وما أحسب أن الأمر يتمادى مع القوم بل أقول : لا كرب على الإسلام بعد اليوم ، تتوافى بمشيئة الله ولاة الأطراف ، ويزول من نفس العدو وسمعه ما استشعره بين المسلمين

من الخلاف ، ويجتمعون إن شاء الله على عدوهم ، ويذهب الله بأهل دينه ما كان من فساد أعدائه فى أرضه وعلوهم ، وقد شممنا رائحة الهدنة بطلب الرسول ، وبخبر هلاك ملك الألمان الذى هو بسيف الله مقتول ، والموت سيف الله على الرقاب مسلول .

٥

وله من رسالة أخرى :

[١] يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . وصلت بشرى المجلس السامى أعلاه الله وشيده ، وأسعده وأصعده وشكر مشهده ، وأنجح مقصده ، وملأ بالحسنات أمسه ويومه وغده ، وأهلك وعادى أعداءه وحسده ، واجتب بسيفه زرع الكفار وذراه وحصده بما من الله سبحانه من نصرة المسلمين عند لقاء عدوهم ، وماوليهم الله من القوة والإظهار ، وما قذف فى قلوب الكفر من الخوف والحذار ، وشرح القضية شرحا شرح الصدور ، واستوى فيها الغياب مع الحضور ، فكانت البشارة منه وكانت المباشرة له ، وما كل من بشر باشر ، ولا كل من عار عاور ، ولا كل من خبر عن السيوف لقيها بوجهه ، ولا كل من حدث عن الرماح عانقها بصدره . فنفعه الله بالاسلام كما نفع الإسلام به ، وأتم النعمة عليه كما أتمها فيه ، وتقبل جهاده الذى جلا به الكربات وابتغى فيه القربات . ويتوقع إن هان العدو فى العيون وظهر منه غير ما كان فى الظنون ، أن يكسر الله بكم مصافه ويفتح عليكم بلاده ، ويطهر بسيوفكم الشام وييسر بنصركم الإسلام ، ويشرف بيوم نصركم الأيام ،

---

(١) نهاية الأرب ٥ / ١٤٨ دار الكتب .

والخير يغتنم إذا عنت فرصة ، ويصاد إذا أمكن الصائد قنصه ، والجهاد فرض على المطيق تقتضيه عزائمه ، ولا تقتضيه رخصه . وقد حضر المولى وحضر كل خير ، وحضر ما يكفى أمر العدو ولو لم يكن إلا رأيه لا غير ، فكيف وفى يده من العضب مثل ما فى صدره من القلب : كلاهما حديد لا تكل مضاربه ، ولا تخونه ضرائبه ، ولا تفنى إذا عدت عجائبه .

فكم من يوم أغر محجل الأطراف ، وليلة فى سبيل الله دهماء الأهوال بيضاء الأوصاف . والنفوس واثقة بأن الظفر على يده يجرى والمبشر من جهته يسر ويسرى . والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

٦

وله من رسالة أخرى :

... وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه ، فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه ، والنبى ﷺ يطالبه بحسن الخلافة فى أمته . والسلف الصالح من هذه الأمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى ، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد ، وبقية الأمة تطالبه بالأمن فى سربهم والاستقامة فى كسبهم ، والخفارة فى سلبهم . ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله إليها ، ولمعالى الأمور أعانه الله عليها . وإذا عدد ما يراد منه فلابد أن يعدد ما يسر عليه . فهل عدم من الله تعالى قط نصره ؟؟ وهل استمرت به قط عسرة ؟؟ وهل تمت لعدو قط عليه كرة ؟؟ وهل بات قط إلا راجيا ؟؟ وهل أصبح إلا راضيا ؟؟ ألا يعلم أن الله تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره ؟؟ ألا

يحصى من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ؟؟ وهل تعرف راية قوتل تحتها فى سبيل الله إلا رايته ؟؟ وهل يعرف مال ينفق فى سبيل الله إلا ماله ؟؟ وهل يسمع فى مجلسه إلا كتاب الله يتلى وسنة رسول الله ﷺ تقرأ ؟؟ أو يرى به إلا الخيل تعرض والسلاح يقلب ؟؟ لا أقداح الشاربيين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولا سعايات النمامين . ويحق إذا توفر حظ مولانا أبقاه الله على تشبيه الملوك فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن مجلسه أولى بأن يكون مسجدا من كل مجلس . ولا غرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضوال ، وأن تتبع كما تتبع الطرائد ، ولينصرن الله من ينصره ، ولعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذله الله عاث وشعث وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده . لو قرن أهل عكا وكذلك يفعلون بمشيئة الله ولو كان ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ، ولا لحقهم بعدهم لاحق . فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه . فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم ، ومالكا قام يرعاهم فأقعد ما يروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبإخوته ويتقدم إلى الأهوال . أما مماليكه وأمراؤه وعسكره وحملته فكأنه منهم مكان بسم الله من الكتاب ، ومكان الإمام من المحراب ، ومكان النواصى من وجوه الصواهل ، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل ، وخير ما كان إذا لم تظن نفس بنفس خيرا . وأغير ما كان على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى . وقد اطمأنت القلوب إلى أن الله سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التى كان العدو أججها . فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله إلا أن الإسلام قد رضى بما يسخط الكفر ولا يسمع من قصصه الذى هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا

وعليه السلام : « قضى الأمر » . فأما ملك الألمان فقد سلبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى فى منامه على كوكب وأعلم به مولانا فى ضمن رسالة . فقال أبقاه الله « قد قبلت البشرى » . وصورة الرؤيا أن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال : « اكتب كتابا ببشارة ملك الألمان » . فقلت حتى أفكر ، فقال الرسول : « اكتب بأن الله قد سلب ملك الألمان ما أضيف إليه » . فالمشهور أن ملك الألمان خرج فى مائتى ألف وأنه الآن فى دون خمسة آلاف .

☆ ☆ ☆

وفاته :

توفى القاضى الفاضل فى داره بالقاهرة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر سنة ٥٩٦ وفى ذلك يقول العماد الأصفهانى :

« وفى هذه السنة (٥٩٦) تمت الرزية الكبرى والبلية العظمى وفجيعةُ أهل الفضل بالدين والدنيا وذلك بانتقال القاضى الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء فى داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء ... وذكر أنه ليلة الثلاثاء فى مدرسته صلى العشاء ، وجلس مع الفقيه سلامة مدرسها وتحدث معه ما شاء ، وشوهد من كل ليلة أبش ، وأبسم وأهش ، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان ، وقال لغلامه : رتب حوائج الحمام وعرفنى حين أقضى منى المنام فوافاه سحراً للإعلام فما اكترث بصوت الغلام ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام ، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام . فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت فعرف أن القدر له باغت فلبث يومه لا يسمع له إلا أنين خفى علم منه أنه بعهد الله وفى .

٢

العمـــاد الأصفهـانى

٥١٩ ـ ٥٩٧

اسمه :

هو أبو عبدالله محمد بن صفى الدين الملقب عماد الدين الاصفهانى . ويعرف بابن أخى العزيز نسبة إلى عمه عزيز الدين صاحب تكريت . ولد بأصبهان فى عام ٥١٩ هـ كما ذكر ابن خلكان .

نشأته :

نشأ فى أصبهان وأتى بغداد فى حداثته ، ودخل المدرسة النظامية ، وتعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد ، فولاه النظر فى البصرة فواسط .

رحيله إلى دمشق :

قال ابن كثير فى « البداية [1] والنهاية » حوداث سنة ٥٦٢ هـ

« وفيها فى شعبان منها كان قدوم العماد الكاتب من بغداد إلى

---

(١) ج ١٢ / ٢٥٣ ـ السعادة بمصر .

دمشق ... فأنزله قاضى القضاة كمال الدين الشهرزورى بالمدرسة النورية الشافعية داخل باب الفرج فنسبت إليه لسكناه بها فيقال لها العمادية . ثم ولى تدريسها فى سنة ٥٦٧ هـ . وأول من جاء للسلام عليه نجم الدين أيوب ، كانت له به معرفة من تكريت فامتدحه العماد بقصيدة ذكرها أبو شامة . وكان أسد الدين وصلاح الدين بمصر فبشره فيها بولاية صلاح الدين الديار المصرية حيث يقول :

ويستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف بها بإخواته والله يحملهم من غير تثريب

☆ ☆ ☆

فى ديوان الإنشاء :

تولى العماد كتابة الإنشاء للملك نور الدين محمود فى عام ٥٦٣ هـ . وكان القاضى كمال الدين الشهرزورى قد ذكر حاله لنور الدين وعرفه به وأطلعه على جملة من شعره . ولما مات نور الدين كتب لابنه الملك الصالح إسماعيل . ثم رحل إلى الموصل وبقى بها مدة . ولما سمع باستيلاء صلاح الدين على المملكة النورية هاجه الطرب لقصده ، لسابق معرفته وقديم وده . وكان ذلك فى عام ٥٧٠ هـ .

لقى العماد السلطان فى حمص ومدحه بقصيدة طويلة ثم انتقل معه إلى بعلبك .

التحاقه بخدمة صلاح الدين :

روى العماد الأصفهانى قصة التحاقه بخدمة السلطان فقال :

« سبق [1] ذكر ما قرره حسادى فى خاطر السلطان وقالوا شغله المكاتبة وهى منصب الأجل الفاضل وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل ، وهذا تصرفه برفد جزيل ووجه جميل . والسلطان مع شدة رغبته متوقف وإلى ظهور وجه النجاح فى أمرى متشوف . وكنت قد أنست مدة مقامى بالعسكر بذى المجد والمفخر ومورد الكرم والمصدر ، الأمير نجم الدين بن مصال ، وهو ذو فضل وأفضال وقبول وإقبال ، وله من السلطان من الفاضل لجلالة قدره إجلال ، وقد مال إلى فضله ونباهته ونبله . وكان أبوه قد وزر للحافظ فى آخر عهده ، منفردا بسؤدده ومجده ، وكان من أهل السنة والجماعة ، والتقى والورع والعفاف والطاعة . وله عند السلطان فى النوب التى قصدوا فيها مصر ، وأجزل عنده الإحسان والبر لاسيما عند كونه بالإسكندرية محصورا ، وكان إحسانه مشكورا ، واعتناؤه لحفظه مشهورا . فلما ملك أحبه واختار قربه . فلزمت له التودد وجعلته الوسيط بينى وبين الأجل الفاضل واتخذته من الحجج والوسائل ووقفت خاطرى على تقاضيه ، نظما ونثرا ، ورسالة وشعرا ، فمن ذلك ما كتبته إليه :

لعل نجم الدين ذا الفضل	يذكر الفاضل فى شغلى
إن أجل الناس قدرا فتى	بفضله يتعب من أجلى
ومثله من يعتنى بالعلى	ويستديم الحمد من مثلى

وأول ما أهديته للفاضل مدحه حين لقيته بحمص فى شعبان منها

عاينت طود سكينة ورأيت شمـ	س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا	ببيانه ذيل الفخار لوائل

(١) الروضتين ١ / ٢٥١ .

ومنها :

يـا واحـد العصر الـذى بـذ الورى	فضــلا بغير مشــابــه ومشــاكــل
مـالى وجـاه الجـاهلين فـأغننى	عنهم كفيتهم وجـد بـالجـاه لى
أرجوك معتنيا لدى السلطـان بى	كرمـا فمثلـك يعتنى بـأمـاثلى
قرر لى الشغـل المبجـل مخليـا	بـالى من الهم المقيم الشـاغـل

فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه فى راغب وقال :

« أنا لا يمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفرة ، وغدا يكاتبك ملوك الأعاجم ولا تستغنى فى الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم ، والعماد يفى بذلك، ولك أختاره، وقد عرف فىالدولة النورية مقداره. وأخذ لى خط السلطان بما قرره لى من شغلى ، وقد عرف أن الأجل الفاضل قد أجل فضلى .

وهكذا أصبح العماد الأصفهانى من كتاب صلاح الدين ومستشاريه ، ومن خواصه وملازميه ، شاهد معه المعارك وحضر الملاحم فسجل لنا بقلمه البليغ كثيرا من المعلومات الخطيرة وتمكن من إظهار نبوغه فى الرسائل التى حررها عن صلاح الدين وفيما ألفه من الكتب .

مكانته عند السلطان :

كان صلاح الدين يعزه ويكرمه ولا يصبر على بعده عنه وذلك لحاجته الشديدة إليه فى كتابة الرسائل التى لم يكن يحسن كتابتها أحد سواه . وكان السلطان معجبا بأسلوبه فى الإنشاء حتى إنه لما فتح القدس لم يعهد إلى أحد بكتابة رسائل البشارة ، وفضل أن ينتظر قدوم العمـد الذى كان متغيبا عنه فى مرض . وقد روى العماد ذلك فقال :

« ... وكان [1] أصحابه - يعنى أصحاب السلطان - يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا ، وهو يقول لهم : « ولهذا القوس بار ، ولهذه المأدبة قار » . فكتب فى ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة » .

العماد بعد وفاة صلاح الدين :

قال ابن خلكان : « ... ولم يزل [2] العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ، فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله ، ولم يجد فى وجهه بابا مفتوحا فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف .

وقال العماد يصف حاله بعد وفاة السلطان :

« وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضجى ، ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره صح ولا صحا . وحالت حالى ، وزال إدلالى ، وزاد بلبالى وبطل حقى ، واتسع خرقى ، وتنازل جاهى ، وتنازق أشباهى ، وأعضلت أدواء الدواهى ، وبقيت المعارف متنكرة ، والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصة ، والأيدى يابسة ، والوجوه عابسة ، وعادت أبكار خواطرى عانسة ، ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة . وبقى باب كل مرتجى مرتجا . ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغنى عنى ، وأخلف فى ضن الإخلاف بى ظنى ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأتيه ، وحزم تأبيه ،

(١) الروضتين ج ٢ / ٩٦ .

(٢) الوفيات ٢ / ٤٩٩ .

فعرف افتقاره إلى معرفتى وفقرى ، وإلى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درى ، ونضارة حلى درى ؛ فكتبت له وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهزرت اليراعة ، وأغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة » .

آثاره الأدبية :

حضر العماد الأصفهانى كثيرا من الوقائع والمعارك ، ولزم صلاح الدين عدة أعوام فاستطاع أن يؤلف فى تاريخ الحروب الصليبية الكتب الآتية :

١ ـ الفتح القسى :

وهو مطبوع ومتداول ، وقد حوى تاريخ سبعة أعوام تبدأ من عام ٥٨٣ هـ وهو التاريخ الذى دخل فيه المسلمون القدس .

ومما ذكره فى مقدمته :

« ... وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق .

وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى بيت المقدس ، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق وتسفر عن أهلتها دآدىء المداد وتنشق ؛ وهى وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية فقد كان انثنى عن وطنه منها لم ثنته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله

أبقى الكرتين ؛ فإن العرب كانت إذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول بأن طول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر ، وبين فتوحه فى أول الأمر ، فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، فإن الشام فتح والعهد بالرسول ﷺ غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء إلى الأرض بريد ، والعيون التى شاهدت رسول الله ﷺ تسل سيوفها من أجفانها ، والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها ، ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفة ... والشام الآن قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه ، وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا ، وقد أطلع شرف الستمائة وهى للملك المعترك ، وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك ، وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب ، وذوى غصنه وكان الرطيب ، ونصلت كفه وكان الخضيب ، وطال الأمد على القلوب فقست ، ورانت الفتن على البصائر ... »

وهكذا استمر العماد يعظم من شأن فتح الشام فى عهده ، ويهون من فتحه فى عهد أبى بكر وعمر .

ثم لما فرغ من تأليف هذا الكتاب عرضه على القاضى الفاضل ، فأشار عليه بأن يسميه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وقال له :

« ... فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته » .

٢ - البرق الشامى :

ذكره ابن خلكان فقال :

« البرق الشامى فى سبع مجلدات . وهو مجموع تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين ، وذكر شيئا من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة ، وإنما سماه البرق الشامى لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها » .

وفى مكتبة أكسفورد نسخة من هذا الكتاب .

٣ - العتبى والعقبى :

ذكره صاحب الروضتين وهو كتاب يتضمن ما وقع من الحوداث منذ وفاة صلاح الدين إلى عام ٥٩٢ هـ .

٤ - خطفة البارق وعطفة الشارق :

وهو يتضمن كثيرا من الحوداث التى وقعت من عام ٥٩٣ هـ إلى وفاته .

٥ - نصرة الفطرة وعصرة القطرة :

وهو فى تاريخ الدولة السلجوقية وقد اختصره أبو الفتح البندارى الأصفهانى فى كتاب سماه « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وهو مطبوع .

هذه مؤلفات العماد فى التاريخ وله مؤلفات أخرى فى الأدب وهى :

١ - ديوان شعره :

وقد ضاع . ولكن صاحب الروضتين سجل فى كتابه جملة قصائد من نظم العماد فى مدح نور الدين وصلاح الدين وتهنئتهما بانتصارهما على الصليبيين ، وفى رثاء كل منهما عند وفاته ، وورد فى كتب أخرى بعض مما نظمه فى هذا المقام .

٢ - رسائله :

وقد ضاعت ولم يصلنا منها سوى قدر ضئيل .

٣ - خريدة القصر وجريدة أهل العصر :

وهو تراجم لأدباء القرن السادس ممن عاصروا المؤلف . ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

ومن رسائله :

١

رسالة كتبها إلى الديوان العزيز ببغداد وهى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

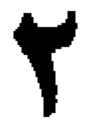
الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى وبدل الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى ، للعصر الإمامى النبوى الناصرى على يد الخادم أخلص أوليائه والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه . وهذا الفتح العظيم والنحج الكريم قد انقرضت الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم . فالحمد لله الذى أعاد القدس إلى القدس ، وأعاذه من الرجس ، وحقق من فتحه ما كان فى النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ما حيا ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس ، وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس ؛ وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين ، وقطع دابر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين . فكأن الله شرف هذه الأمة وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها فضلكم ، وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله الكريم (ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح . وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظما ونثرا ، وعبد الله فى البيت المقدس سرا وجهرا . وملكت بلاد الأردن وفلسطين غورا ونجدا وبرا وبحرا ، وملئت إسلاما وكانت قد

ملئت كفرا ، وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهرا ، والحمد لله شكرا ، حمدا يجدد للإسلام كل يوم نصرا ، ويزيد وجوده أهله بشرى ، فتتوجه بشرا .

وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ، وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم . ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ، خوفوا بقتل الأسارى المسلمين ، وهم أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء بهدم وإحراق وإتلاف ، وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع ، وبذلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل مال الفدا ، وما زالوا يبتهلون ويضرعون ، ويذلون ويخشعون ، حتى استقر الأمر أنهم يفادون ، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها ، وبركت البركة الناهضة إليها فى مناخها ، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون ، ورجع اضطرابها إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان . وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالأيمان ، وذكرت فى يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج ، وتجلى إظلامها بإنارة سناء السراج ، وأعيدت الكنائس مدارس ، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكفرعافية دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة ، والمنة على هذه المبرة . وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس ، وكل ما كان جاريا فى مملكة ملك القدس ونابلس ، ولم يبق إلا صور فإنها قد تأخر انتزاعها ، وتقدم امتناعها ، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها

أطماعها ، وهى بتأييد الله مستفتحة ، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة » .

☆ ☆ ☆



وله من رسالة أخرى :

« فتح بيت الله المقدس الذى عجز الملوك عن تمنيه ، فكيف تسنيه ، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه ، فمن الله علينا بتذليل صعبه ، وإعذاب شربه ، وتسهيل وعره ، وتحصيل فخره ، وقضى الملوك فى ليله ، وجئنا نحن عليه بإسفار فجره . وقد كانت الصخرة مستصرخة ، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة ، فأجيبت دعوتها ، وأصيبت خطوتها وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاه وقوبلت قبلتها بقبل الأفواه ، ودنا المسجد الأقصى للقاصى والدانى ، وزال رين العائن وقرت عين الرانى . هذا فتح عظيم قدره ، جسيم فخره ، فاضل عصره ، كامل نصره ، غير منسى إلى يوم الحشر ذكره . وقد افتض بنا بكره ، واقتضى بسيفنا وتره ، وزهر زهره ، وظهر قهره ، وهلك الكافر وكفره ، وجاء من نعم الله ما لزم على الأبد شكره . أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم ، وإغراقهم فى أمواه الطلى والجماجم ، وتسلمنا القدس فى يوم كانت فى مثل ليلته ليلة المعراج ، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى فى ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج . والحمد لله على سلوك ما وضح من المنهاج ، ونضوب ما كان نبع من الأجاج ، وخلا بيت الله لقصد الحاج ، وصدق الحاج ، مبشرة بما فضل الله به عصرنا ، وعجل به

نصرنا ، ونظم به سلكنا ، وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق رهنه دهرا ، واغتصب من الإسلام قهرا ، وارتد كفرا ، وامتدت به الأيام عمرا فعمرا ، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه ، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه ، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه ، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه . فلا جرم أعده الله لأيامنا ، وذخره لمواسم اعتزامنا ، وفتحه بنا إظهاراً لفضل هذه الأيام ، وإيثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الإسلام . فأصرخنا الصخرة ، وأهدينا إليها النصرة ومكنا من قلبها وإن كان من الحجر المرة . تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وقضينا من حق هذا البيت ما وجب ، وجاء القدس إلى القدس ، وزال الرجس وذهب ، وتولى فيه الإسلام ، وتولى عنه الكفر ، وعظم الأجر ، وفخم الفخر ، وطاب النشر ، وزاد البشر ، ومحى الرجس ، وثبت الطهر ، وهلك المشرك ، وذل البطرك ، وأقصى من المسجد الأقصى الساجد إلى الشمس ، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس . عاد بيت الله المقدس إلى طهارته ، ونطق منه لسان التقديس بعبادته ، وتهلل وجه السعد بنضارته وخصنا القدر فى إتمام أمره بخطابه وإشارته ، وزادت الوجوه بشرا ببشارته . وقد أعاد الله إلى الإسلام المسجد الأقصى ، وملكنا أدناه وأقصاه ، وأسنى دولتنا بماسناه ، من فتحه وهناه ، وعلموا أنهم هالكون ، وأنا لهم بالقهر مالكون ، وفى سبيل القتل والأسر والسبى سالكون . فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الإذعان ، حتى يسلموا المكان . فقيل لهم الآن وقد عصيتم ، ورضيتم بما فيه هلاككم وأبيتم ، فروعوا بقتل أسارى المسلمين ، وهم ألوف ، وعرفنا أنهم لا يقصرون فى الشر ، فإن جهلهم معروف ، فتضرعوا وتشفعوا ، وتعفروا فى تراب الذل وتوقعوا ، وتقرر

عليهم مال اشتروا به أنفسهم ، فنزعوا به من الخوف ملبسهم ، وسلموا القدس فأعدناه إلى القدس ، وطهرناه من الرجس ، وأجبنا دعوة الصخرة وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة ، فتح بيت الله المقدس الذى غلق رهنه ، وطال فى يد الكفر أسره وسجنه ، واستهل بغير أيامنا مزنه ، وأنار يمنه وأعاد بإحساننا حسنه ، وزال بنا خوفه وزاد أمنه ، وبقى قريب مائة سنة فى يد الكفر مسجونا ، وبرجس الشرك مشحونا ، حتى أعاد الله بنا رونقه ، وأذهب قلقه ، وأعدم فرقه ، وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم له نظير ، وأفق الدين به منيف منير ، وشرف أيامنا به كثير ، وهو إمام فتوحنا المدخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير .

فتح بيت المقدس الذى لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك ، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك ، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها ، وجنت على الإسلام فيه حوادث الليالى وطوارقها حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه ، ووعدنا بالفوز فأصبناه ، وأوردنا شرع صفائه فاستعذبناه وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه ، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه . رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالأسوار ، وغارت الصخور للصخرة المباركة فجدت فى إنقاذها من الإسار ، وهتمت ثنايا الأبراج ، وأعضل بها فى العلاج داء الأعلاج ، فعاينوا الحمام ، وشاهدوا الموت الزؤام . أقامت المنجنيقات على عصابته حد الرجم ، وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم ، وتطايرت الصخور فى نصرة الصخرة المباركة ، وحجرت على حكم السور بسفه الأحجار المتداركة ، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الأسوار ، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار . نهضت لإصراخ الصخرة المقدسة الصخور ، وطارت من أوكار المجانيق

كأنها الصقور ، فما أسر البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر ، وإجراء الإسلام فيه لغسل أوضار الكفر ، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامى بكسوة ؛ ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه ، وطهرت من أرجاس أنجاسه ، بمياه العيون التى بها قذيت ، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدى الشرك صديت ، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة ، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها فى عهد الصحابة رضى الله عنهم من حسن الصحبة . ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد للشمس ، وسكن العلماء والفقهاء فى مواطن البطرك والقس ، وأبدل الناقوس بالأذان ، بل الكفر بالإيمان ، وصلى محراب الإسلام فى المحراب الذى أسلم ، وقد سنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم ، والنجح الأفخم .

وقد ندب فلان فى الرسالة القدسية ، والبشارة الغرسية ، التى تم بها مأتم الكفر وعرس الإسلام ، وعاد بها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام ، وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين ، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء فرحضت عنها أوضار الكافرين .

وكان الإسلام منه غريبا فرجع إلى وطنه ، وسكن منه إلى التوطن فى مسكنه ، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه ، وأنار التوحيد من مطلعه ، وعلا سنا السنة ، وحلا جنا الجنة ، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة ، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الأئمة ، وعادت الكنائس مدارس ، وآيات التثليث بها دوارس ، ووجوه الإيمان باشرة ووجوه أهل الصليب عوابس . ومحت أيامن هذه الأيام تلك الليالى الدوامس . وقد أقيمت الجمع والجماعات ، ونظفت

بل طهرت تلك الساحات . وصلى فى محرابه المحرب ، ودرس فيه الخلاف والمذهب ، والحمد لله الذى تسنى بفضله هذا المطلب ، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب .

☆ ☆ ☆

هاتان رسالتان من سبعين رسالة أنشأها العماد بمناسبة دخول المسلمين القدس . ويلاحظ أنه فى أسلوبه كان يسير مع القاضى الفاضل جنبا إلى جنب .

ولو تأمل القارىء فى هاتين الرسالتين وفى غيرهما مما أنشأه العماد بمناسبة دخول المسلمين القدس ، لوجد أن هذه الرسائل تكاد تكون صورة واحدة . فتكرار فى الألفاظ وتكرار فى التعابير وتكرار فى المعانى . ومثال ذلك قوله فى الرسالة الأولى مشيرا إلى فتح القدس على يد صلاح الدين « ... قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه ... » وقوله فى الرسالة الثانية : « فتح بيت المقدس الذى عجز الملوك عن تمنيه ، فكيف تسنيه ؟ » أما حديثه عن خروج البطرك والقس وإقصاء الساجد للشمس ، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامى بكسوة ، وغسلها من أدران الكفر وأدناسه ، فقد تكرر فى كل رسائله بعبارات يقرب بعضها من بعض . وهذا أمر طبيعى فإن الغرض الذى كتبت من أجله هذه الرسائل واحد وهو البشارة بفتح القدس فمن المعقول أن يشار فيها إلى أحب الأشياء لدى المسلمين وهو تخليص

المسجد الأقصى والصخرة من أيدى الصليبيين وإبعاد القسس والبطاركة عن هذه المواطن التى عادت كما قال مدارس ، وآيات التثليث بها دوارس .

بل إنك تجد العماد يكرر المعنى الواحد فى الرسالة الواحدة ، ويأتى به فى صور تكاد تكون متشابهة ويتغنى بهذا النصر العظيم والفتح المبين فى أكثر من موضع فى نفس الرسالة . وهذه المعانى التى كررها العماد كانت ولا تزال مما لا يمل المسلمون سماعه . ورسائله التى أنشأها فى هذا المقام صورة صادقة للنفسية الإسلامية فى عصره بما تسجله من فرح لاحد له بدخول المسلمين القدس ، وتخليص المسجد الأقصى من أيدى الصليبيين الذين احتلوه مدة قرن من الزمان .

٣

الشهــاب محمــود

٦٤٤ – ٧٢٥ هـ

هو الإمام العالم العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبى ثم الدمشقى شيخ صناعة الإنشاء فى عصره .

مولده ونشأته :

ولد بحلب سنه ٦٤٤ وسمع الحديث ودرس اللغة والأدب والشعر حتى نال من ذلك حظا وافرا .

عين كاتبا للسر بدمشق ولبث فى هذا المنصب ثمانية أعوام . وقد مدحه كثير من الشعراء منهم ابن نباتة المصرى الذى أشاد بفضائله ومناقبه فى جملة قصائد منها قوله من قصيدة :

كـأن تلـك الـلآلى فى مقبلـه ... ممـا ينظم فى القرطـاس محمـود
النـافث السحر ألفـاظـا محللـة ... وكـل لفـظ بليـغ عنـه معقـود
والمقتفى أمـد العليـاء فى طرق ... طرف البروق بهـا تعبـان مكـدود
تفردت بمعـانيـه براعتـه ... فاعجب لغصن لـه كـالورق تغريـد
ناهيـك سهمـا تسميه الورى قلمـا ... لـه إلى غرض العليـاء تسـديـد

حروفه مع ورق الدوح ساجعة   وغيرها مع دود القز معدود
تصيد الملك أنواع البديع به   إن الملوك على علاتها صيد
فى كف يقظان لا فى القول ممتنع   إذا أراد ولا فى الفكر ترديد
له على الرأى تنقيب ومطلع   وفى المقاصد تصويب وتصعيد

☆ ☆ ☆

وقد قيل إنه لم يكن بعد القاضى الفاضل مثله فى صناعة الإنشاء .

وفاته :

توفى ليلة السبت ثانى عشر شعبان سنة ٧٢٥ هـ ودفن بالقرب من اليعمورية ، وله من العمر ثمانون عاما .

آثاره الأدبية :

ترك الشهاب محمود الآثار الأدبية الآتية :

١ - حسن التوسل إلى صناعة الترسل :

وهو مطبوع : تناول فيه الكلام عن بعض أنواع البيان والبديع . وأتى فى آخره بجملة من إنشائه فى وصف الحصون والقلاع وسير الجيوش والرمى بالنشاب وغير ذلك .

٢ - أهنى المنائح فى أسنى المدائح :

وهو ديوان ضخم كله مديح فى الرسول . وقد رأيت منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

٣ - منازل الأحباب ومنازه الألباب :

وهو مختارات مما قيل فى الغزل وأخبار العشاق منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية فى ٢٢ ورقة من الحجم الصغير. ومما جاء فى مقدمتها :

« ... أما بعد حمد الله والاعتصام به من فتنة الشيطان وهوى النفس. فإنى لما رأيت ما يندرج فى سلك النكت الأدبية والملح العربية من الأشعار الرقيقة التى تبعث على الصبوة وتثير كامن الهوى وتحرك ساكن الوجد ، أحببت أن أجمع فى هذه الأوراق من أخبار من صدرت عنهم تلك الأشعار ما يتحقق به أن ذلك اللطف الذى يوجد فى كلامهم والرقة التى تلعب بالعقول من أشعارهم من قبيل العفة التى فى سجاياهم والصدق الذى جبلت عليه طباعهم وإنما صدرت عن نفوس أبية وقلوب نقية وخلوات عفيفة وأخلاق شريفة لم تدنس بالشهوات » .

..« وأضفت إلى كل بادرة أوردتها عنهم فى هذا الكتاب من كلام الحكماء ونثر البلغاء ولطائف الأدباء ، وما اتفق لى فى ذلك من نظم ونثر ما كأنه ينطق عن كل منهم بلسانه ويترجم عن حقيقة حاله بواضح بيانه وسميته « منازل الأحباب ومنازه الألباب » .

٤ - رسائله :

عاش الشهاب محمود ثمانين عاما . فلو فرضنا أنه بدأ حياته الأدبية فى سن الثلاثين لكان إنتاجه فى خمسين سنة يؤلف عددا غير قليل من المجلدات وربما كان كذلك . ولكن الذى وصلنا من رسائله حتى الآن قليل جدا وهو متفرق فى صبح الأعشى وغيره من كتب الأدب .

ومن إنشائه تقليد كتبه عن السلطان الملك « كتبغا » للأمير « سيف الدين غرلو العادلى » بولاية الشام وهذا نصه :

الحمد لله الذى جعل لسيف دولتنا على عاتق الملك الأعز نجادا ، وادخر لكفالة مملكتنا من الأولياء من تناسب وصفاه اجتهادا فى مصالح الإسلام وجهادا ، وعقد أمور رعايانا بمن أيقظ لها سيفه وجفنه فامتلأت عيونهم بما وهب وسلب من نومه ونوم العدا رقادا ، ورفع ألوية إحساننا على من زاد برفعها ظل عدله انبساطا على الرعية وامتدادا ، ووطد قواعد ممالكنا بمن أجلنا الفكر فى حسن اختياره انتقاء لمصالح الإسلام وانتقادا ، وأدى لشكر نعم الله التى لا يؤدى شكر بعضها ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام أو كان البحر مدادا .

نحمده على نعمه التى جعلت عزائمنا على الأبد منصورة ، ومقاصدنا على مصالح المسلمين مقصورة ، وآراءنا تفوض زعامة الجيوش إلى من تصبح فرق الأعداء بفرقه مغزوة ، وممالكهم بمهابته محصورة .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا نزال ننشر دعوتها فى الآفاق ، ونرهف لإقامتها فى ممالكنا سيفا يصل ما أمر الله بقطعه ويقطع إلا الأرزاق ، ونرهب من الحد فيها بكل ولى لرعبه فى القلوب ركض ، ولرايته فى الجوانح خفق ، ولأسنته فى الصدور إشراق .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من فوض حكما فى أيامه إلى من اعتمد عليه ، وأرأف من استخلف على من بعد عنه من أمته من يعلم أن صلاحهم فى يديه ، وألطف من عقد شيئا من أمور أهل ملته بمن أعانه الله وسدده فى دفع عدوهم وصلاح ما يرفع من أحوالهم إليه ، صلى

الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ولوا على الأمة فعدلوا ، وأمروا بما جبله الله عليه من الرأفة والنعمة والرحمة فامتثلوا ، وعلموا أن الحق فيما نهج لهم من طرق طريقته المثلى فمالوا عن ذلك ولا عدلوا ، صلاة لا تغرب شمسها ولا يعزب أنسها ، ولا تعتبر أوقات إقامتها إلا ويقصر عن يومها فى الكثرة أمسها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما أعملنا إليه ركائب الآراء المؤيدة ، وصرفنا إليه أزمة نجائب الأفكار المسددة ، وأجلنا فيه طرف النظر الذى لا يشق فى بلوغ الغاية غباره ولا يدرك ، وأحلنا الأمر فيه على التأييد الذى هو عمدتنا فيما يؤخذ من ثواقب الآراء وما يترك ، وقدمنا فيه مهم الاستخارة الذى يتلوه التوفيق ، وعلمنا أن ألذ أسباب الاهتداء إليه سلوك طريق النصح لله ولرسوله وللإسلام فسلكنا إليه من ذلك الطريق ، وقصرنا النية فيه على مصالح الأمة التى هى فرض العين بل عين الفرض ، وأطلنا الارتياد فيه لتعين من نرجو له ممن عناهم الله بقوله : « الذين إن مكناهم فى الأرض » وندبنا له سيفا لم يزل فى صدور الأعداء صدره وفى يد جبار السموات قائمه ، وأردنا لتقدمة الجيوش فيه زعيما طالما مل ضوء الصبح مما يغيره ومل سواد الليل مما يزاحمه ، وقدمنا له من نشأ فى حجر ولائنا ، وغذى بلبان برنا وآلائنا ، وشهد الوقائع بين يدينا وخبرنا من سيرته النهوض فى الرعايا بما كتب الله لهم من الرأفة والرحمة علينا - أمر نيابة سلطنتنا الشريفة بالممالك الشامية التى نابت فيها مهابتنا عن الإقامة فيها ، وجعلتها عنايتنا من أشرف ممالكنا التى نخصها على البعد بدوام الملاحظة ونصفيها وهى واسطة عقد ممالكنا ، ومحط رحال طرقنا إلى جهاد الأعداء ومسالكنا ، وهالة أهلة سرى القصد إلى لحظها فى أديم الأرض مواقع سنابكنا ،

ومواطن القربات التى نصت الآثار الصحيحة عليها ، ومظان العبادات التى طالما نصت ركائب العباد إليها ، ومقام الأبدال الذين هم أهل دار المقامة ومستقر طائفة الدين الذين لا يزالون ظاهرين على أعدائهم لا يضرهم من خذلهم إلى يوم القيامة ، وفلك الثغور الذى تشرق منه كواكب سعودها وتنصرف من نوئه إلى من جاورها من العدا ؛ خاطفات بروقها وقاصفات رعودها . فكم ذى جنود أمها فهلك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزلت وتزلزلت قدمه حيث سلك . ولجيشها الباس الذى وجود الأعداء به عدم ، والحد الذى يعرفه أهل السياق وإن أنكرته أعناقهم فما بالعهد من قدم .

وأن نفوض أمرها إلى من ينشر على الأمة لواء عدلنا ، ويبسط فيها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ، ويحيى بها سنن الإحسان التى مبدأ أيامها غاية من سلف من قبلنا ، ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد ، وينيم الرعايا من عدله فى أوطإ مهاد ، ويكف أكف الظلم إلى من يتجاسر إلى إعادة يده إليها عاد ومن عاد ، ويجرد إلى العدا من خياله وخيله سرايا تطرد عن موارد جفونهم بقوائمها الرقاد ، وتستعيد عوارى أرواحهم من مستودعات أجسادهم فهى بحكم العارية غير مستقرة فى الأجساد ، ويصون الرتب عن تطرق من يفسد أحوالها لعدم أهليته : فإنه ما سلك أحد فى أيامنا طرق الفساد فساد ، ويعلم به أنا جردنا على العدا سيفا يسبق إليهم العذل ، ويزاحم على قبض نفوسهم الأجل ، وتتحلى بتقليده الدول ويتحقق بفتكه أنه لا حاكم بيننا وبينهم إلا السيف الذى إن جار فيهم فقد عدل .

ولذلك لما كان المجلس الفلانى هو الذى اخترناه على علم ، وقلدناه أمور الممالك : لما فيه من حدة بأس وآية حلم ، وعجمنا عوده

فكان لينا على الأولياء ، فظا على العدا . وبلونا أوصافه فعلمنا منه السداد الذى لا يضع به الندى فى موضع السيف ، ولا السيف فى موضع الندى ، وعرضنا سداده على حسن اعتبارنا للأكفاء فكان سميرنا (وحمل فزين معروضا وراع مسددا) وهززناه فكان سيفا بنصل حده الخطب إذا أعضل ، وأعطيناه أمر الجيوش فلم يختلف أحد فى أنه أفضل من الأفضل .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يصطفى من الأولياء كل كفء كريم - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية ، تفويضا يعلى قدره ، ويبسط فى مصالح الملك والممالك أمره ، ويطلق فى مصالح الدولة القاهرة سيفه وكلمه ، ويدر على الأولياء إحساننا الذى إذا جارى الغيث أخجل دوامه ديمه ، ويرفع بالعدل منار دوام ملكنا الذى قرنه الله للأمة بجودنا ، ويضيف باسترفاع الأدعية الصالحة لدولتنا من كل لسان جنودا بالليل إلى جنودنا . وينظر فى أمور الممالك الشامية نظرا عاما ، ويعمل فى سداد ثغورها وسداد أمورها ، رأيا ثاقبا وفكرا تاما ، ويأمر النواب من سد خللها بما كفايته أدرى به منهم ، وينبههم من مصالحها على ما ظهر لفكره المصيب وخفى عنهم ، ويلاحظ أحوال ما بعد من البلاد كملاحظته أحوال ما دنا وينظر فى تفاصيل أمورها . فإنها وإن كانت على السداد فليس بها عن حسن نظره غنى ، ويسلك بالرعايا سنن إنصافه التى وكلته معرفتنا به إليها ، ويجريهم على عوائد الإحسان التى كانت من خلقه سجية وزدناه تحريضا عليها .

أما بعد ، فلو أننا نظرنا إلى هذا المرسوم لوجدنا روح العزة والقوة فيه ظاهرة جلية ، ولا عجب فى ذلك فقد كتب هذا التقليد بعد زوال دولة الصليبيين من الشرق ، واستقرار الأمر فى أيدى دولة المماليك

الذين بسطوا سلطانهم على مصر والشام وبلاد النوبة . ومن هنا بدأ الكاتب التقليد بحمد الله الذى أعز الدولة بالسيوف والرجال الذين يجاهدون فى سبيل الإسلام خير جهاد ويسهرون على صالح الرعية ناشرين لواء العدل بين البرية .

وفى المرسوم روح دينى صادق . فالكاتب يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ويذكر على لسان الملك أنه لا يألو جهدا فى نشر دعوة التوحيد رافعا السيف فى وجوه أعداء الدين من الملحدين . ثم يشهد أن محمدا عبده ورسوله ويثنى على النبى وعلى أصحابه ثناء عاطرا ، ثم يذكر بعض مناقب بلاد الشام ، ومناقب من صدر التقليد بتوليته .

ولا شك فى أنك ترى فى أسلوب الشهاب روح القاضى الفاضل ماثلا فى أجلى مظاهره . فالتزام السجع فى فقرات طويلة ، واستخدام المحسنات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة وتورية والإكثار من الاستعارات ، كل ذلك من خصائص الطريقة الفاضلية التى شاعت فى ذلك الوقت فى مصر والشام ، والتى سيطرت على أقلام الكتاب وعقولهم ، وكان الشهاب محمود أحد هؤلاء الكتاب الذين نسجوا على منوال الفاضل وساروا على آثاره .

☆ ☆ ☆

وهذه صورة مرسوم كتبه الشهاب محمود بتولية الأمير « سيف الدين تنكر الناصرى » بلاد الشام .

الحمد لله مفوض أسنى الممالك فى أيامنا الزاهرة إلى من تزهو بتقليده ، ومشيد قواعد أسمى الأقاليم فى دولتنا القاهرة بمن يعلو بإيالته ما يلقى إليه معاقد مقاليده ، ومسدد الآراء فى تصريف أعنة جيوشنا المنصورة بتقديم من تغدو سيوفه من عنق كل متوج من العدا قلادة جيده ، وناشر لواء العدل فى رعايانا وإن بعدوا بمن تنيم منهم فى مهد الأمن والدعه يد مهابته وتمهيده ، ومعلى منار الجهاد فى سبيله بمن إذا جرد سيفه فى وغى تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك بين تجريبه وتجريده .

نحمده على نعمه التى أيدت آراءنا بوضع كل شىء فى مستحقه ، وقلدت سيف النصر من أوليائنا من يأخذه فى مصالح الإسلام بحقه ، وجددت آلاءنا لمن إذا جارت الحتوف سيوفه إلى مقاتل العدا ، فاتها وفاقها بمزيتى كفايته وسبقه .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال ألسنتنا ترفع منارها ، وسيوفنا تصلى من جحدها قبل نارها ، وآراؤنا تفوض مصالح جملتها إلى من إذا رجته لنصرة أنالها ، وإذا أسدى معدلة أنارها .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أيده الله بنصره ، وجعله سابق من تقدم من الرسل على عصره ، وآتاه من الفضائل ما يضيق النطق عن إحصائه ، ومن المعجزات ما يحول الحصر دون حصره ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بهداه ، وهجروا فى طاعته من عاداه ، ونهضوا فى رضا الله تعالى ورضاه إلى مظان الجهاد وإن بعد مداه ، صلاة يشفعها التسليم ونبتغى إقامتها عند الله ، والله عنده أجر عظيم ، وسلم تسليما كبيرا .

أما بعد : فإن أول ما أعملنا في مصالحه الفكر ، وتدبرنا أحواله بكل رأى يسدده الحزم المروى ، ويؤيده الإلهام المبتكر ، وقدمنا فيه الاستخارة على ما جزم اليقين بأن الخيرة للإسلام والمسلمين فى اعتماده ، وتمسكنا فيه بحبل التوفيق الذى ما زال يتكفل لنا فى كل أمر بسداده ، وفى كل ثغر بسداده - أمر الممالك الشامية التى هى واسطة عقد الممالك ومجتمع ما يفضى إلى مواطن النصر من الممالك ، ومركز تلك الأقاليم التى تنتظم عليه بروج ثغورها ، ونقطة دائرة الحصون التى منها مادتها وعليها مدار أمورها ، وغيل ليوث الحرب التى كم أنشبت أظفار أسنتها فى طرة ظفر . ومواطن فرسان الوغى التى كم أسفر عن إطلاق أعنتها إلى غايات النصر ووجه سفر ، وأن نرتاد لكفالة أمورها ، وكفالة جمهورها وحماية معاقلها المصونة وثغورها ، وزعامة جيوشها وإرغام طارقى أطرافها من أعداء الدين ، وثل عروشها ، من جرده الدين فكان سيفا على أعدائه ، وانتقاه حسن نظرنا للمسلمين ، فكان التوفيق الإلهى متولى جميل انتقاده وانتقائه ، وعجمنا عود أوصافه فوجدناه قويا فى دينه ، متمكنا فى طاعته بإخلاص تقواه وصحة يقينه ، متيقظا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالتى حركته وسكونه ، آخذا عنان الحزم بيسر يسراه وسنان العزم بيمن يمينه ، واقفا مع الحق لذاته ، مقدما ميثاق الجهاد على سائر مآربه ولذاته ، ماضيا كسيفه إلا أنه لا يألف كالسيف الجفون ، راضيا فى راحة الآخرة بمتاعب الدنيا ومصاعبها ، فلا يرعى فى مواطن الجهاد إذا حلها أكناف الهوينى ولا روض الهتون ، مانعا حمى الإسلام لا « حمى الوقبى بضرب » يفرق بين أسباب الحياة و « يؤلف بين أشتات المنون » .

ولما كان فلان هو الذى تشوفت هذه الرتبة إلى أن تتجمل به

مواكبها ، وتتكمل به مراتبها ، وتنتظم على دسته هالة أمرائها كما تنتظم على هالة بدر السماء كواكبها ، فإذا طلع فى أفق موكب أعشت الأعداء جلالته ، وأعدت الأولياء بسالته ، وسرى إلى قلوب أهل الكفر رعبه ، وفعل فيهم سلمه ما يفعل من غيره حربه ، وإذا جلس على بساط العدل خرس الباطل ، وأنجز ما فى ذمته الماطل ، وتكلم الحق بملء فيه ، وتبرأ الباطل حتى ممن يسره ويخفيه ، وإن نظر فى مصالح البلاد أعان الغيث على ريها برفقه ، وأعاد رونق عمارتها بكف أكف الظلم ووصول كل ذى حق إلى حقه - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعل فنون أفنانه بيمن إيالته دانية القطوف ، وأن نصير جنتها تحت ظلال سيفه : فإن « الجنة تحت ظلال السيوف » .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال - من عصره مؤرخا بالفتوح ، وسيف نصره على من كفر دعوة نوح ، أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تفويضا يحسن به المناب فى تلك الممالك عنا ، وينشر فيها من العدل والإحسان ما يلقاه منا ، ويلبسها من حلل المهابة ما يضاعف به أمن سربها ، وتصبح به السيوف المجردة أحفظ لها من قربها ، ويطلع فى أفق مواكبها الجليلة طلوع الشمس التى يعم نفعها ، ويغشى النواظر لمعها ، ويجلس فى دست نيابتنا حاكما فيها بأمرنا ، جازما بحكم الشرع الشريف الذى قد علم أنه حلية سرنا وجهرنا ، ناشرا من مهابة الملك ما ترجف له القلوب من العدا ، وتصبحهم به سرايا رعبه على بعد المدى ، ملزما من قبله من الجيوش المنصورة بمضاعفة إعداد القوة ، وإدامة التأهب الذى لا تبرح بسمعته بلاد أهل الكفر مغزوة ، مطلعا على أحوال العدا بلطف مقاصده ، ونكاية مكايده ، وحسن مصادره فى التدبير وموارده ، فلا يبرمون أمرا إلا وقد

سبقهم إلى نقض مبرمه ولا يقدمون رجلا إلا وقد أخرها بوثبات إقدامه وثبات قدمه . وليعظم منار الشرع الشريف بتكريم حكامه ، والوقوف مع أحكامه ، ويرفع أقدار حملة العلم بترفيه أسرارهم ، وتسهيل مآربهم وأوطارهم ، وليعم الرعايا بعدله وإنصافه ، ويسترفع لنا أدعية الأولياء والصلحاء بإسعاده وإسعافه . وفى خصائص أوصافه الكريمة وسجاياه التى هى لمصالح الإسلام مستديمة ، ما يغنى عن تشدد فى القول والعمل ، والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعله من أوليائه المتقدمين وقد جعل ، إن شاء الله تعالى .

☆ ☆ ☆

ومن قوله فى الرمى بالنشاب :

وبعد ، فإن الرمى أفضل ما أعد للعدى ، وأكمل ما أفيض به على أهل الكفر رداء الردى ، وأبلغ ما يبعث إلى المقاتل من رسل المنون ، وأنفع ما يقتضى به فى الوغى من أعداء الدين الديون ، وأسرع ما تبلغ به المقاصد فيما يرى قريبا وهو أبعد ما يكون ، وأنكى ما تقذف به عن الأهلة شهب الحتوف . وأسبق ما تدرك به الأغراض قبل أن تعرف بها الرماح أو تستقر بمكانها السيوف ، ما طلع فى سماء النقع قوسه إلا سح وبل النيل ، ولا استبقت الآجال وسهمه إلا كان له من بلوغها السبق من بعد ، والسبق من قبل . ومن شرف قدره الذى دل عليه كلام النبوة ، أن النبى ﷺ نبه على أنه المراد بقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . ومن أسباب فضله التى أصبح بها قدره ساميا وفخره ناميا وقطره فى أفق النصر هاميا ، ما ورد من قوله ﷺ لفتية ممن أسلم من أسلم : أرموا يا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا .

٤

محيى الدين بن عبد الظاهر

٦٢٠ - ٦٩٢ هـ

هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامى المصرى المولى القاضى محيى الدين بن القاضى رشيد الدين :

مولده :

ولد بمدينة القاهرة فى المحرم سنة ٦٢٠ هـ

ثقافته :

درس محيي الدين الأدب العربى شعره ونثره . وقرأ آثار القاضى الفاضل وأعجب بطريقته فى الكتابة إعجابا كبيرا وتعصب له إلى حد بعيد . وجمع جملة من رسائل الفاضل وسماها « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » وقد أشرنا إليها عند الكلام عن القاضى الفاضل .

كان محيى الدين زعيم الكتاب فى عصره كما كان القاضى الفاضل فى أيام صلاح الدين . وكان كأستاذه الفاضل وزيرا مسموع الكلمة عظيم الجاه ، لذلك التف حوله كثير من الكتاب والشعراء وأخذوا يكيلون له المدح والثناء .

قال صاحب « نهاية[1] الأرب » :

كان رحمه الله من أجل كتاب العصر وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدول والذى افتخر بوجوه أبناء عصره الأول ، له من النظم الفائق ما راق صناعة وحسنا ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه فى البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجة » .

خدم محيى الدين الملك الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاون ، والأشرف صلاح الدين خليل .

آثاره الأدبية :

١ - الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم :

وقد مر ذكره

٢ - رسالة ابن عبد الظاهر :

وهى مخطوطة فى ست ورقات من الحجم الكبير . كتب عليها « رسالة ابن عبد الظاهر ، استخراج الإمام العالم العلامة صلاح الدين الصفدى ، تغمده الله بالرحمة والرضوان » . وهى رد على شخص تنقصه وذمه . وقد جاء فيها :

« بلغنى أعزك الله ولا برحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملبس

---

(١) ج ٨ ص ١٠١ دار الكتب .

العمر ، يانع ثمر الشكر ، مفعم حياض البر ، أن فلانا غض منى كل غض الجنى ، وأنه عبث بى عبث الأيام بالمنى ، وأنه ردنى إلى أرذل العمر فى الاطراح ، وغلق فى وجه تنجحى أبواب النجاح . وزعم أن إناء أناتى غير مفعم ، وبناء مجدى غير محكم وجواد إجادتى غير ملجم ، وأن ميلاد مجدى حديث ، وسبب سعدى رثيث ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة ، وأن صدور المجالس تنكر أقدامى ، وبطون الطروس لا تلقح بوطء أقلامى ؛ وإنى لا أعد فى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لا أدخل معهم فى باب .

وإذا أتتــك مــذمتى من نــاقص فهى الشهـادة لى بـأنى كـامـل »

٣ - وله ديوان شعر منه نسخة خطية محفوظة بمكتبة الجامعة الأزهرية وشعره متوسط الجودة متكلف مكرر المعنى يزخر بالبديع والتورية والتضمين .

٤ - وله كتاب يسمى « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » وقد ضاع . ولكن المقريزى فى خططه نقل عنه وانتفع به كثيرا .

وفاته :

توفى محيى الدين فى القاهرة عام ٦٩٢ هـ . وقد وصفه ابن خلكان بقوله :

« .... وكان بارع الكتابة ، له فى قلم الرقاع طريقة غريبة حلوة ، وكان ذا هيبة وعصبية » .

وله من رسالة أنشأها بفتح الملك الظاهر لقيسارية من بلاد الروم واقتلاعها من أيدى التتار واستيلائه على ملكها :

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذو بأس شديد ، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد ، وكان مولانا الصاحب زين الدين – حرس الله جلاله – لما دعيت نزال أول مسابق ، وأسرع راشق ، وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ، فذكر من شاهده أنه أحسن فى معركته ، وأجمل فى كرته ، وأجاد فى طعنته ، وزأر زئير الليث ، وسابق حتى لم يبق حيث ، ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ، وخضب بما تحدر من دم عدوه سرجه وعنان لجامه ، وكانت عليه من الله باقية وافية فى تقدمه وإقدامه ، وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكى السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الجراح ، وأراد الله أن لا يخليه من إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله فجعله والمنة لله – من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيدمر الداودار الظاهرى ، قال :

لقيتنى وقد تكسر رمحى ، وعاد – لولا لطف الله – إلى الخسارة ربحى ، فأعطانى المولى الصاحب زين الدين رمحه فإذا فيه نصول ، وبسنه من قراع الدارعين فلول ، ورأيت دبوس المولى الصاحب زين الدين وقد تثلم ، وكان الخوف عليه فى ذلك اليوم شديدا ولكن الله سلم . ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال : سيف مولانا السلطان هو الذى سفك ، وعزمه هو الذى فتك .

ومن يك محفوظا من الله فلتكن ... سلامته ممن يحاذر هكذا
ويخرج من بين الصفوف مسلما ... ولا من يبديه ولا ناله أذى ! !

وأما العدو فتقاسمت الأيدى ما يمتطونه من الصواهل والصوافن . وما يصولون به من سيوف وقسى وكنائن ، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن ، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن ، فغنم ما هنالك . وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان ، وتسلم من قتل من الكفار مالك .

ومنها :

وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلاؤهم ، ولا تبصر إلا أعيانهم ، كأنما جزر أجسادهم جزائر يتخللها من الدماء السيل ، وكأنما رءوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجه من الأيدى والأرجل والخيل :

ألقت إلينـا دمـاء المغل طـاعتهـا ... فلـو دعـونـا بـلا حرب أجـاب دم

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامة ، تتفرس فى جهامة وجهه الفخامة ، قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامة :

ووجـوهـا أخـافهـا منــك وجــه ... تركت حسنهــا لــه والجمـــالا

أو كما قيل :

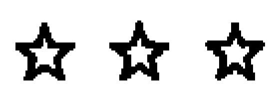
لا رحم الله أرؤســـــــا لهم ... أطرن عن هـــامهن أقحـــافـــا

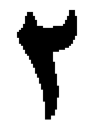
وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون ، فكم من قائل : هذا فلان وهذا فلان ، وهذا كان ، وهذا كان ، وهذا كان يحدث نفسه بأنه يهزم الألوف ، وهذا يقرر فى

ذهنه أنه لا تقف بين يديه الصفوف . وكثرت الأسارى من المغل فاختار السلطان من كبرائهم البعض ، وعمل فيهم بقول الله عز وجل : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، فجعلهم للسيوف طعمة ، وأحضرت الأسارى من الروم فترقب مولانا السلطان فيهم الإل والذمة .

ومنها :

ولما أقام مولانا السلطان بقيصرية هذه المدة ، فكر فى أمر عساكره ومصالحه بما لا يعرفه سواه ، ونظر فى حالهم بما أراه الله ، وذلك لأن الأقوات قلت ، والسيوف من المصارعة ملت ، والسواعد من المصادمات كلت ، وأنه ما بقى فى الروم من الكفار من يعزى ، ولا بجزاء السوء يجزى ، ولا بقى فى البلاد غير رعايا كالسوائم الهاملة ، ولا دية - للكفر منهم - على عاقل وعاقلة ، وأنه إن كان أقام فالبلاد لا تحمله ، ومواد بلاده لا تصله ، وأعشاب الروم بالدوس قد اضمحلت ، وعلوفاتها قد قلت ، وزروعها لا ترتجى للكفاية ، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من الرعى والرعاية ، وأن الحسام الصقيل الذى قتل التتار به فى يد القاتل ، وأنهم إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم فى قابل .





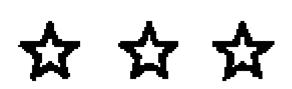
وكتب تذكرة عن الملك المنصور قلاون إلى نائب قلعة صرخد بالشام فى عام ٦٧٩ هـ :

تذكرة مباركة نافعة ، لكثير من المصالح جامعة ، يعتمد عليها الأميران : سيف الدين وعز الدين عند توجههما إلى قلعة صرخد المحروسة :

يعتمدان العدل فى الرعية ، وسلوك منهج الحق فى كل قضية ، واعتماد ما يرضى الله تعالى ويرضينا . وليكن الإنصاف لهما عقيدة ، والتقوى دينا ، ولا يتطلع أحدهما إلى ما فى يد أحد من مال ولا نشب ، ولا يعارض أحد أحدا بلا سبب ، وليتقوا الله ويخشوه ، ويتجنبوا الباطل ولا يغشوه ، ولا يظن أحد منهم أن قد بعد عنا فيطمح إلى الظلم أو يطمع ، فأنا منهم بمرأى ومسمع ، وليكونوا على المصالح متفقين ، وبأذيال الحق متعلقين ، وعلى الرعية مشفقين .

ومنها :

لا يمكنان أحدا من الرجال المرتبين بالقلعة المحروسة وأرباب النوب أن يخل بنوبته ولا يفارقها ، ولا يخرج من القلعة أحد من الرجال إلا بدستور ويعود فى يومه والله الموفق .



٣

ومن إنشائه منشور ، كتب به للأمير بدر الدين عن لسان الملك قلاون : الحمد لله الذى جعل بدر الدين تماما على الذى أحسن ، وإماما تقتدى النجوم منه بالضياء الأبين والنور الأزين ، ونظاما يجمع من شمل الذرى مما يغدو به حماه الأحمى وجنابه الأصون .

نحمده حمد من أعلى صوته وصيته أعلن ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تغدو وتبدو عند الـذب وفى القلب مكانها الأمكن ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ونبيه الذى أوهى الله به بناء الشرك وأوهن ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ورضى عمن آمن به وأمن .

وبعد ، فان خير النعماء ما أتى به على التدريج ، وأتى كما يأتى الغيث بالقطر والقطر لإنبات كل زوج بهيج ، وأقبل كما تقبل الزيادة بعد الزيادة فبينا يقال : هذا بحر يستمد منه كل خليج ، وبينا يقال : هذا الأمير ، إذ يقال : هذا الممير ، وبينا يقال : هذا الهلال ، إذ يقال : هذا هو البدر المنير .

ولما كان فلان من هذه الدولة بموضع الغرة من الجبين ، ومكان الراحة من اليمين ، وله سوابق خدمة لا يزاحمه أحد فى طرق طروقها ، ولا تستكثر له زيادة بالنسبة إلى موجبات حقوقها ، وهو من التقوى بالمحل الاسمى ، على غيره من الطراق ، والمكان الأحمى الذى مكانه منه - وإن كان أمير المجلس - صدر الرواق ، وله الكرامات التى ترى الخدود لها صعر ، وكم سقت من سم العداة دافه الذعر ، وكم قابل نوره نارا فصارت بردا وسلاما ، وكم تكلم على خاطر فشاهد الناس منه شيخا من حيث الشبيبة - أجل الله قدره - غلاما ، فهو المجاهد للكفار ، وهو المتجهد فى الأسحار ، وهو حاكم الفقراء وإن كان سلطانه جعله أستاذ الدار ، وهو صاحب العصا التى أصبح بحملها مضافة إلى السيف يتشرف ، ومعجزها لا يستكثر له أنها لكل حية تتلقف ، وهو الذى تحمد الكشوف والسيوف فتوحه وفتحه ، والذى يشكر يده عنان كل سابح

وزمام كل سبحة . وكم أسال بيديه من دماء الأعداء ماء جرى ، وعمل بين يديه للفقراء ما جرى ، وكم ولى الله خفى شخصه فأظهر محضه ، فقال الولى : وما أدرى دارا لولا بيدرا - اقتضى حسن الرأى الشريف أن يجعل إحسان الدولة القاهرة له عملا ، وأن يحسن له علا ونهلا ، وأن يختار له إذ هو صاحب العصا كما اختار موسى قومه سبعين رجلا .

وخرج الأمر العالى - لا زال ظله ظليلا ، بامتداد الفىء بعد الفىء ، وعطاؤه جزيلا ، بتنويل الشىء بعد الشىء - وهو ذو الكرم والكرامات ، وصاحب العصا بالإستادارية ولا يستكثر لصاحبها سحر الحيات .



٤

وله من رسالة :

... أدام الله نعمة المجلس ولا زالت عزائمه مرهوبة وغنائمه مجلوبة ومحبوبة . وخطاه هذه تكفى النوب وهذه تكف النوبة . ولا برحت وطأته على الكفار مشتدة وآماله لإهلاك الأعداء كرماحه ممتدة . ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التى يرى به الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . صدرت هذه الكتابة إلى ذلك المجلس تثنى عزائمه التى واتت كل أمر رشيد ، وأتت على كل جبار عنيد . وحكمت بعدل السيف فى كل عبد سوء وما ربك بظلام للعبيد . حيث شكرت الضمر الجرد وحمدت العيس . واشتبه يوم النصر بأمسه بقيام حروف العلة مقام بعض فأصبح غزو كنيسة سوس كغزو سيس . ونفهمه أنا علمنا أن الله بفضله

طهر البلاد من رجسها وأراح العباد ، وحسم مادة معظمها الكافر وقد كان وكاد . وعجل عيد النحر بالأضحية بكل كبش حرب يبرك فى سواد وينزل فى سواد وينظر فى سواد . ويحققنا النصر الذى شفى النفوس وأزال البوس ومحا آية الليل فحير الشموس . وخرب دنقلة كجزيرة سوس . وكيف لا يخرب شىء يكون فيه سوس . فالحمد لله على أن صبحتهم عزائم المجلس بالويل ، وعلى أن أولج النهار من السيف منهم فى الليل . وعلى أن رد حرب حرابهم إلى نحورهم وجعل تدبيرهم فى تدميرهم وبين خيط السيف الأبيض من الخيط الأسود من فجر فجورهم . وأطلع على مغيبات النصر بعزم المجلس الأنهض . وأهلك العدو الأسود بميمون طائر النصر الأبيض . وكيف لا وأقسنقر هو الطائر الأبيض . وأقر لأهل الصعيد كل عين ، وجمع شملهم فلا يرون من عدوهم بعدها غراب بين . ونصر ذوى السيوف على ذوى الحراب وسهل صيد ملكهم على يد المجلس ، وكيف يعسر على السنقر صيد الغراب . والشكر لله على إذلال ملكهم الذى لان وهان . وأزال بيأسه الذى صرح به سر كل منهم فى قتاله فأسر وهو عريان . وأنهل منهم الأسنة التى غدا طعنها كفم الزق غدا والزق ملآن . ودق أقفيتهم بالسيف الذى أنطق الله تعالى بفألهم الطير فقال : « دق قفا السودان » ورعى الله جهاد المجلس الذى قوم هذا الحادث المنآد . ولا عدم الإسلام فى هذا الخطب سيفه الذى قام خطيبا وكيف لا وقد ألبسه منهم السواد . وشكر له عزمه الذى استبشر به وجه الزمن بعد القطوب ، وتحققت بلاد الشمال به صلاح بلاد الجنوب ، وأصبحت به سهام الغنائم فى كل وجه تسهم . ومتون الذ ،حات يمتطى السيف منها كل سيس ، وتارة كل أدهم ، ولله المنة على أن جعل ربع العدو بعزائم المجلس حصيدا كأن لم يغن بالأمس . وأقام فروض الجهاد بسيوفه المسنونة وأنامله الخمس . وقرن ثباته

بتوصيل الطعن لنحور الأعداء ودقت النحر قد رمح من طلوع الشمس . ونرجو من كرم الله تعالى إدراك المطلوب ، ورده على السيف بعيب هربه ، والعبد الأسود إذا هرب يرد بعيب الهروب . وفى هذه الغزوة قال ابن النقيب الفقيسى :

يـا يـوم دنقلـة وقتـل عبيـدهـا　　　فى كـل نـاحيـة وكـل مكـان
كم فيـــه زنجى يقـول لأمـــه　　　نـوحى فقـد دقـوا قفـا السـودان

٥

أسامة بن منقــذ

٤٨٨ - ٥٨٤ هـ

نســبه :

هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقد ، ينتهى نسبه إلى تغلب .

أسرته :

بنو منقذ أسرة مجيدة ، نشأ فيها رجال كبار ، كلهم فارس شجاع ، وكلهم شاعر أديب . وكانوا ملوكا فى أطراف حلب « بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بنى منقذ المنسوب إليهم ، وكانوا يترددون إلى حماة وحلب وتلك النواحى ، ولهم بها الدور النفيسة والأملاك المثمنة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شيزر . وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون أقدارهم ، وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم ، وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء أجلاء علماء [1] » .

---

(١) ابن خلكان ١ / ٢٨٦ .

نشأته :

نشأ أسامة على ضفاف العاصى بجوار حماة ، وصرف معظم شبابه فى بلاط الملك نور الدين بدمشق . ثم انتقل إلى القاهرة وقضى مدة فى البلاط الفاطمى فى مصر . وقد حدثنا عن بعض ما شاهده فى مصر فى ذلك الوقت فقال :

« فكان يوم وصولى إلى مصر يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فأقرنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى . فخلع على بين يديه ، ودفع لى تخت ثياب ومائة دينار وخولنى دخول الحمام ، وأنزلنى فى دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش فى غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . كل ذلك لا يستعاد منه شيء . وأقمت بها مدة إقامة فى إكرام واحترام وإنعام متواصل » . وقد سجل فى كتابه « الاعتبار » بعض معلومات خطيرة عن الحالة السياسية فى مصر فى ذلك الحين .

رجوعه إلى الشام :

ثم حدث أن الملك العادل « ابن السلار » وزير الخليفة الفاطمى فى مصر طلب من أسامة أن يقوم بمهمة سياسية لدى نور الدين . وهى أن ينازل طبرية ليشغل الإفرنج عن المصريين الذين كانوا يرغبون فى الخروج لتخريب غزة .

قال أسامة :

« .. [1] وكان الإفرنج خذلهم الله قد شرعوا فى عمارة غزة ليحاصروا عسقلان » .

---

(١) الاعتبار ص ١٠ طبع أمريكا .

فلما وصل أسامة إلى بصرى وجد نور الدين فى طريقه فقابله وأفضى إليه بما كلف به ولكن نور الدين اعتذر عن القيام بهذه المهمة لأن مركزه الحربى لم يسمح له بذلك . فما كان من أسامة إلا أن جند بعض الفرسان واتجه نحو عسقلان وهناك دارت معارك كثيرة بينه وبين الإفرنج وقد أظهر فيها بطولة نادرة وشجاعة فائقة .

مسيره إلى مصر :

ثم وصل إليه وهو بنواحى عسقلان كتاب من الملك العادل « ابن السلار » يستدعيه إلى مصر فسار إليه وترك أخاه عز الدولة أبا الحسن على بعسقلان فلم يلبث قليلا حتى استشهد فى قتال الإفرنج وكان كما قال أسامة من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

رجع أسامة إلى مصر وكانت الاحوال السياسية فى تلك البلاد قد بلغت من السوء درجة لم يسبق لها مثيل . فالأمن مضطرب والفوضى منتشرة والخليفة يكيد لوزرائه ويغتالهم والوزراء يدسون للخليفة ويتآمرون على حياته . والصليبيون يهددون بغزو البلاد . ويقتربون من حدودها شيئا فشيئا .

فى هذا الجو المضطرب المظلم قضى أسامة مدة من الزمن عانى فيها من الشدائد والأهوال ما كاد يقضى على حياته . لقد نهبت داره وأصيب بجرح فى رأسه ، وذلك عندما هم بمغادرة مصر ، مع أسرته والوزير عباس بن ركن الدين الذى كان فارا من وجه طلائع بن رزيك . فلما وصلوا إلى باب النصر خرج عليهم بعض قبائل العرب فدار بين الفريقين قتال شديد .

ثم سار بعد ذلك حتى وصل بلبيس وهناك رأى أنه عاجز عن حمل أسرته معه فردها إلى القاهرة فأكرم الملك الصالح طلائع بن رزيك مثواها وأحسن إليها وأنزلها فى دار وأجرى لها ما تحتاجه . ولذلك تجد أسامة يمدح ابن رزيك كثيرا فى شعره ويشيد بجوده وكرمه . ثم اتجه إلى بلاد الشام مارا بوادى موسى وقد وجد فى أثناء مسيره صعابا جمة كادت تفقده حياته . فقد تعرض لقطاع الطريق من الأعرب كما تعرض لسرايا الإفرنج التى كانت منبثة فى جنوب فلسطين . قال :

« وسرنا [١] حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الإفرنج وبنى فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة . وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل وحسن دفاعه » .

أسامة فى دمشق :

اتصل أسامة بعد أن وصل دمشق بخدمة الملك العادل نور الدين . ثم كتب إلى الملك الصالح بن رزيك ليسير له أهله وأولاده الذين تركهم بمصر . فرد الصالح بأنه يخاف عليهم من الإفرنج وكتب إليه يقول :

« ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بينى وبينك . وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتابا بتسليم مدينة أسوان إليك . وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وولدك » .

---

(١) الاعتبار ص ٢٨ .

فعرض أسامة الأمر على نور الدين فنصحه بعدم مغادرة الشام ، ووعده بأن يأخذ لأهله الأمان من الصليبيين وينفذ إليهم من يسيرهم إليه .

وقد تم ذلك وبعث الرسول إلى مصر ليصحب أسرته فى سفرها . ولكن الصليبيين لم يرعوا عهدهم الذى قطعوه وهاجموا السفينة التى كانت تقل أسرة أسامة ونهبوا ما فيها . قال أسامة :

« وقد كان فى المركب حلى أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار . فأخذ الجميع ، ونفذ لهم مائة دينار ، وقال - يعنى ملك أورشليم بالدون الثالث - توصلوا بهذه إلى بلادكم - وكانوا رجالا ونساء فى خمسين نسمة » .

ثم قال :

« .. فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفنى الأموال . والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته » .

استقر أسامة فى الشام وخاض كثيرا من المعارك وغامر بحياته مرارا . وكان فى وقت السلم ينفق وقته فى الصيد فهو صياد ماهر وفارس مغامر ومحارب جرىء وشاعر مطبوع وأديب موهوب ومؤلف مشهور .

آثاره الأدبية :

أقام أسامة جزءا من حياته فى حصن كيفا مشتغلا بالكتابة والتأليف . ومما وصلنا من كتبه :

١ - لباب الآداب . وقد سبق أن تكلمنا عنه فى غير هذا الموضع .

٢ - الاعتبار . وهو مطبوع ومتداول ، ولهذا الكتاب أهمية خطيرة فقد دون فيه أسامة طرفا من تاريخ حياته وصور لنا بعض النواحى الاجتماعية التى كان عليها المسلمون والصليبيون فى عصره . والرجل قد عرف الصليبيين واختلط بهم وعاشرهم واتخذ منهم أصدقاء وخلانا وكان معجبا بفرسانهم وطبهم وشجاعتهم وصبرهم فى الحرب . كما أنه سجل كثيرا من عوائدهم ومثالبهم . وفى هذا الكتاب كثير من النوادر والطرائف .

٣ - مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وقد جاء فى مقدمته :

« يقول أسامة بن مرشد بن منقذ رضى الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين إننى وقفت فى شوال سنة سبع وستين وخمسمائة على كتاب « مناقب أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه » تأليف الإمام العالم الزاهد ناصر السنة أبى الفرج عبد الرحمن .. ابن الجوزى رضى الله عنه مروية عن الثقات مسندة إلى الأئمة الأثبات فرأيت وبالله التوفيق أنى جردتها من الأسانيد إذ كانت أشهر من النهار وأشيع من أن تدفع بالإنكار ، ومناقبه تشهد بها آثاره فى الإسلام وتأييده الدين إجابة لدعوة الرسول ﷺ والناس فيه بين رجلين : رجل عرف فضله فاقر وفوض ، ورجل ران على قلبه الشك فأنكر واعترض . فالمقر العارف لا يزيد نفسه بالإسناد ، والمنكر الجاحد لا تصده الرواية من العناد . وقد كنت أوردت فى كتابى المترجم بالتاريخ البدرى المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر رضى الله عنهم من مناقبه

وفضائله وفتوحاته وأحكامه وحسن آثاره فى الإسلام ما فيه مقنع وكفاية ، ولكن الزيادة من الخير خير » . وهذا الكتاب موجود بدار الكتب المصرية .

٤ - مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . قال فى مقدمته : « وقفت على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه تأليف الشيخ الإمام العالم جمال الدين ... ابن الجوزى رضى الله عنه يرويه بإسناده إلى المشايخ والعلماء، فلم أظفر فى عاجل الحال بمن لديه رواية أقرؤه وأسند الرواية إليه ، وقصر بلوغى الثمانين بسطة الأمل عن أن أرجو روايته فى المستقبل ، فجردته من الأسانيد وحذفت ما فيه من التكرار إذ كان القصد فى إيراد الأحاديث من طرق شتى . وإذ حذفت الأسانيد فليس فى تكرارها فائدة . وكتبته بخطى وأضفته إلى مناقب جده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد كنت أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهده فى كتابى المترجم بكتاب نصيحة الرعاة ما جاء مفرقا فى أثناء أبواب الكتاب » . وهو فى ١٨٠ صفحة من الحجم الكبير . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

٥ - التاريخ البدرى الذى أشار إليه فى مقدمة كتابه « مختصر مناقب عمر بن الخطاب » . وهذا الكتاب يشتمل على ذكر فضائل أهل بدر ، وقد ضاع .

٦ - نصيحة الرعاة وهو كتاب فى مناقب عمر بن عبد العزيز : ورعه وحسن سيرته وزهده وعدله . وتقواه . وقد ضاع كذلك .

٧ – كتاب البديع فى البديع منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

٨ – تاريخ القلاع والحصون – ذكره صاحب كشف الظنون .

٩ – أزهار الأنهار .

١٠ – التجائر المربحة والمساعى المنجحة .

١١ – كتاب العصا .

١٢ – أخبار النساء .

١٣ – كتاب النوم والأحلام .

١٤ – كتاب المنازل والأديار .

١٥ – ديوان أسامة ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

☆ ☆ ☆

فأنت ترى مما تقدم أن أسامة يعد من كتاب المناقب الذين ظهروا فى عصر الحروب الصليبية . ويلاحظ أن أسلوبه كان عربيا سليما فى كل ما كتب ، اللهم إلا فى كتاب « الاعتبار » فإنه اتخذ أسلوبا عاميا واستعمل كثيرا من الألفاظ والتعايير العامية المحلية . وهو نزيه فيما كتب ، منصف فيما روى ، يسجل مناقب الإفرنج وعيوبهم ويثنى على طبهم ومهارتهم فى الصيد واحترازهم فى القتال .

هذا موجز عن « أسامة » الكاتب . أما أسامة الشاعر فسيأتى ذكره فى غير هذا الباب .

الباب الثالث

الفصل الأول

فى الشعـر

أثرت الحروب الصليبية فى الشعر العربى بمصر والشام تأثيرا عنيفا . ولا عجب فى ذلك فهذه الحروب ألهبت العواطف الدينية وأوقدت فى صدور المسلمين نار التعصب والبغض والحقد على أعدائهم الصليبيين . والشاعر إذا التهبت عاطفته واشتعل إحساسه واتقد شعوره أرسل القول ممتزجا بدمه ، معبرا عما يجول فى قرارة نفسه . فالشعر الذى قيل فى عصر هذه الحروب شعر صادق لا ريب فيه إذ هو منبعث من أعماق الأفئدة . والشعراء فى هذه الفترة يعبرون عن عواطف الشعوب الإسلامية أصدق تعبير ويترجمون عن إحساساتها وما تنطوى عليه جوانحها ، ويتكلمون بألسنتها فى كل ما يقولون فالنفسية الإسلامية فى مصر والشام قد سجلت فى هذا الشعر تسجيلا دقيقا . فما يكاد المسلمون يستولون على حصن أو قلعة أو مدينة حتى يهب الشعراء لتهنئة الملك المنتصر والإشادة بمجهوداته العظيمة فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين . ثم يمزجون هذا بهجاء الصليبيين فى عبارات عاطفية قوية تنم عن الحقد والكراهية ثم يختمون قصائدهم فى الغالب بتحريض الملك المسلم على تعقب الصليبيين أعداء الدين ، وتطهير الأرض من أرجاسهم وأدناسهم .

وما تكاد مصيبة تقع على المسلمين من سقوط حصن أو قلعة فى أيدى الإفرنج أو وفاة عظيم من عظمائهم كصلاح الدين مثلا حتى ترى الشعراء ينوحون ويبكون ويمزجون دموعهم بدمائهم ويرسلون القول معبرا عما يخيم على المسلمين من حزن وغم لهذه المصائب وتلك الخطوب .

وما ينقض الصليبيون هدنة أو يغدرون بعهد حتى ينهض الشعراء محرضين المسلمين على القتال ومحمسين المؤمنين على الجهاد والنضال .

وقد سبق أن ذكرنا فى غير هذا الموضع أن الحروب الصليبية أثرت فى الأدب العربى بطريقين : طريق مباشر . وهو ما قيل فى وقائع هذه الحروب . وطريق غير مباشر ، نتج عن الحالة الاجتماعية التى خلقتها ظروف هذا النضال العنيف الذى طال أمده واستفحل شره وعظم خطبه . وسبق أن تكلمنا فى إيجاز عن الحالة الاجتماعية التى مرت بالمسلمين فى تلك العصور والتى انعكس صداها فى الأدب نثره وشعره ، وبينا علاقة هذه الحالة ببعض ألوان الأدب التى ظهرت خلال هذا النضال العنيف . فالعاطفة الدينية كانت سببا فى ظهور المدائح النبوية والغزل النبوى وانتشارهما انتشارا واسعا . والضيق الذى عاناه المسلمون كان سببا فى ظهور شعر كثير فى الاستغاثة بالله ورسوله وبالقرآن والأولياء والصالحين . والشذوذ الجنسى الذى تفشى بين الناس كان سببا فى الإقبال على قراءة ما يقال فى الغزل بالمذكر فاضطر الشعراء أن يقولوا فى هذا الباب لتنفق أشعارهم وليقبل الناس عليها . واحتكاك المسلمين بالإفرنج دفع الناس إلى التغزل بنساء الصليبيين وغلمانهم ، وقد ظهر ذلك عند فريق من الشعراء . وتدفق العواطف الدينية كان دافعا لبعض

الشعراء على نظم القصائد الطوال فى الطعن فى المسيحية واليهودية وغيرهما من الملل والنحل ... فيمكننا أن نقول إن الحروب الصليبنية كانت سببا فى ظهور أبواب جديدة فى الشعر العربى . وهذه الأبواب هى :

١ - المديح النبوى ويدخل فيه الغزل بالرسول .
٢ - الدعاء والاستغاثة والتوسل .
٣ - الطعن فى المسيحية واليهودية وغيرهما من الملل والنحل .

وسنتكلم فى هذا الباب عن أغراض الشعر التى تأثرت بهذه الحروب تأثيرا مباشرا . وعن الأبواب الجديدة التى نشأت فى خلال تلك العصور .

١

المـديـح

كانت أمور المسلمين فى أوائل عهد الحروب الصليبية على أسوأ ما يكون من التفرق والانقسام والضعف لذلك انتصر الإفرنج ولم يجدوا عناء فى تثبيت أقدامهم ببلاد الشام وغزو مصر . ولم يظهر من المسلمين من يقف أمامهم أو يصد تيارهم . فالبطولة الإسلامية كانت معدومة ، وأصبح المسلمون مستضعفين فى أرضهم ، مظلومين فى بلادهم ، معرضين للقتل والنهب والأسر ، فلم يجد الشعراء من يوجهون إليه مديحهم ويسبغون عليه ثناءهم فخرست ألسنتهم عن المديح وكفوا عن الخوض فى هذا الباب . وبقى الأمر على ذلك حتى ظهر أبطال المسلمين من ملوك الدولة الأتابكية والأيوبية فأعادوا للمسلمين ما فقدوا من ثقة وأوقعوا فى قلوب الصليبيين الرعب والفزع وأذاقوهم طعم الهزيمة والانكسار . واستردوا منهم كثيرا من القلاع والحصون . ففرح بذلك المؤمنون وطرب المسلمون وابتهج المجاهدون إذ نصرهم الله وأعزهم وخذل الكفار وأذلهم فانطلق الشعراء يسجلون هذا الإحساس فى شعرهم ويعبرون عن هذه العواطف فى نظمهم فوجدوا مجال القول ذا سعة فقالوا وأطنبوا ، ومدحوا وقرظوا وأشادوا بنصر الله الذى جاءهم والفتح ، وأثنوا على همم أبطال المسلمين الذين أبلوا بلاء حسنا فى سبيل الله مخلصين له الدين .

وقد أحدث سقوط « الرها » فى يد عماد الدين زنكى رنة شديدة من الفرح والسرور بين المسلمين أجمعين فانعكس صداها فى الشعر وأنطقت الشعراء بنظم بليغ ومدح قوى رصين لحمته وسداه عاطفة دينية فياضة وشعور قوى ملتهب . ومن ذلك قصيدة لابن القيسراني جاء فيها :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوق الأملاك إلا نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الإسلام فخرا بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها ... عن الله ما لا يستطاع زياده

ليهن بنى الإيمان أمن ترفعت ... رواسيه عزا واطمان مهاده

وفتح حديث فى السماع حديثه ... شهى إلى يوم المعاد معاده

أراح قلوبا طرن عن وكناتها ... عليها فوافى كل صدر فؤاده

لقد كان فى فتح الرهاء دلالة ... على غير ما عند العلوج اعتقاده

يرجون ميلاد ابن مريم نصرة ... ولم يغن عند القوم عنه ولاده

مدينة إفك منذ خمسين حجة ... يفل حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الأبصار حتى لوانها ... ترقت إليه خان طرفا سواده

وجامحة عز الملوك قيادها ... إلى أن ثناها من يعز قياده

فأوسعها حر القراع مؤيد ... بصبر بتمرين الألد لداده

كأن سنا لمع الأسنة حوله ... سرار ولكن فى يديه زناده

فأضرمها نارين حربا وخدعة ... فما راع إلا سورها وانهداده

فصدت صدود البكر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتما سفاده

فيا ظفرا عم البلاد صلاحه ... بمن كان قد عم البلاد فساده

فلا مطلق إلا وشد وثاقه ... ولا موثق إلا وحل صفاده

ولا منبر إلا ترنح عوده ... ولا مصحف إلا أنار مداده

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها | لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر | يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لو أن عزمه | رمى سد ذى القرنين أحمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها | ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى | فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده | فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده | وروضة قسطنطينية مستراده

وقال ابن منير الطرابلسى :

صفات مجدك لفظ جل معناه | فلا استرد الذى أعطاكه الله
يا صارما بيمين الله قائمه | وفى أعالى أعادى الله حداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا | بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
فذاك من حاولت مسعاك همته | جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادى ألا موتوا به كمدا | فالله خيبكم والله أعطاه
ملك لا تنام عن الفحشاء همته | تقى وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يسمك والأيام تخدمه | فيما ابتلاه يؤدى ما توخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره | قدرا وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا | وأين مما رووه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له | مظلل أفق الدنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج | مقطوبة بفتيق المسك رياه
فتح أعاد على الإسلام بهجته | ما افتر مبسمه واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته | حديثها نسخ الماضى وأنساه
إن الرها غير عمورية وكذا | من رامها ليس مغزاه كمغزاه

أخت الكواكب عزا ما بغى أحد   من الملوك لها وقعا فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه   رأى يبيت فويق النجم مسراه
مشمرا وبنو الإسلام فى شغل   عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيى العدل إذ قامت نوادبه   وعامر الجود لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها   للشاكرين ويستقنى صفاياه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما   من لم يتوجك هذا التاج إلاه

☆ ☆ ☆

وقد كان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين على الصليبيين فى وقعة حطين ثم دخولهم القدس من الحوداث التى انطقت البكم والخرس . واهتز لها المسلمون فى طول البلاد وعرضها طربا . وسكروا بخمرة الفرح والسرور وظهر ذلك بين الشعراء فطفقوا ينظمون القصائد الطوال فى التغنى بهذا النصر العظيم . وهرعوا إلى البيت المقدس مهنئين ومادحين ، ومقرظين ومطرين ، وقد أكثروا من التغنى بهذا الفتح وأشادوا بالسلطان وهمته ، ونوهوا بجهده وعزمته ، وبفضله فى تخليص البيت المقدس من أيدى الكفار وتطهير المسجد الأقصى من أوضار الصليبيين بعد ما لبث زهاء مائة عام تحت حكمهم .

ومن هؤلاء الشعراء الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان ، وهو أندلسى رحل إلى المشرق وأقام به ولازم السلطان صلاح الدين وقتا طويلا ومدحه بقصائد كثيرة . وله قصائد تسمى « القدسيات » نظمها حينما دخل المسلمون بيت المقدس . ومن هذه القدسيات قصيدة جاء فيها :

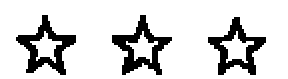
أبـا المظفر أنت المجتبى لهـدى　　أخرى الـزمـان على خبر بخبرتـه
فلـو رآك وقـد حـزت العـلا عمر　　فى قلـة التـل قضى كنـه عبرتـه
ولـو رآك وأهـل القـدس فى ولـه　　أبـو عبيـدة فـدى من مسرتـه
غـداة جزوا النـواصى فى قمـامتـه　　وأعولوا بـالتبـاكى حـول صخرتـه
درات بـك الملـة الحسنى فنحن على　　عهـد الصحـابة فى استمرار ملتـه
وأنت كاسمك صديق وصاحبـه الـ　　ـملـك المظفر سـام فى مبرتـه
وفى الثـلاثـة عثمـان يـؤيـده　　عـلا على على إيثـار ضربتـه
وكم لديـك ذوو قربى رقوا شرفـا　　وكم بعيـد رأى الـزلفى بهجرتـه
يشبـه الفتـح مـا بين البـزاة لقى　　ملـك الفرنـج اخيـذا بين عترتـه
أمـا رأيت معـالى يـوسف نسقت　　حتى رمت كل ذى ملك بحسرته
أضحى لنشرالهدى فى فتح منهجه　　وبات يطوى العدا فى سد ثغرتـه
واستقبـح الرجس ممنـوا بمشهـده　　فـاستفتح القـدس محشوا بـزمرتـه
لكن بـأس صـلاح الـدين أذهلهم　　بـوقعـة التـل واستشراء سـورتـه
يعنى الجـوارح والفرسـان وهـو على　　بـدء النشـاط عشيـا مثـل بكرتـه
يا فاتح المسجـد الأقصى على بهم　　وقـانص الجيش لا يحصى بقفزتـه
أبشر بملـك كظهر الشمس مطلـع　　على البسيطـة فتـاح بنشرتـه
حتى يكـون لهـذا الـدين ملحمـة　　تحكى النبـوة فى أيـام فترتـه

☆ ☆ ☆

وقال فى قصيدة أخرى لما عزم الصليبيون على استرجاع القدس **وفشلوا فى ذلك :**

يا منقذ القدس من أيدى جبـابرة　　قـد أقسمـوا بـذراع الرب تـدخلـه
فـأكـذبـوا كـذبهم فى وصف ربهم　　وصـدق الـوعـد مـأمـولا محـولـه

أما رأيت ابن أيوب استقل بما	يعيى الزمان وأهليه تحصله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته	فاستنفروا كل موهوب تغلغله
لماسبى القدس قالوا سوف نتركها	والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى	لينصر القبر والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا	إلى الخوامع ألقاه ترحله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم	واستكثروا المال والهيجا تنقله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه	وكلما لج صدما جل مقتله
سيف أمام فلسطين برى أمما	خلف البحار لقد أمهاه صيقله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر فى	جيش العدو فيسبيهم تخيله



وقال أبو على الحسن بن على الجوينى البغدادى الأصل المصرى الدار قصيدة جاء فيها :

جند السماء لهذا الملك أعوان	من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن	وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما	لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده	صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم	خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس	فخام عنها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر ال	إسلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ وال	إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم	بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذه الفتوح وما	سمت لها همم الأملاك مذ كانوا

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ... ل الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ... فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان
وعد عمن سواه فالفرنجة لم ... يبدهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى ... لقد تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد ... غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما ... ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للإسلام تحرسه ... من أن يضام ويلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة ... فالكفر فى سنة والنصر يقظان
يا جامعا كلمة الإيمان قامع من ... معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما ... يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

☆ ☆ ☆

وقال النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبى المعروف بالجوانى نقيب الأشراف بالديار المصرية .

أترى مناما ما بعينى أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذى ... بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى ... هو فى القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ... ولأنت فى نصر النبوة حيدر

ملك غدا الإسلام من عجب به يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه فالرمح ينظم والمهند ينقر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فإن خطبت له فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلى بسنابك تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى فيصدها عنه ظبى وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا عرج بها لكنها تتعثر

☆ ☆ ☆

أما بعد ، فلو أردنا أن ندرس الحالة النفسية للمسلمين فى ذلك الوقت على ضوء هذه المدائح لخرجنا من هذه الدراسة بأمور : منها أن المسلمين كانوا فى يأس شديد من إرجاع القدس إلى حوزة الإسلام . فلما حدث ذلك صعب عليهم تصديقه واعتبروا ذلك من المعجزات التى أجراها الله على يد صلاح الدين . وقد عبر الشعراء عن هذا بقولهم :

أترى مناما ما بعينى أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر

☆ ☆ ☆

جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد تنزلت فيه آيات وقرآن

وفى الحق أن معركة حطين التى مهدت لفتح القدس كانت من الأعمال الحربية الباهرة التى خلدت اسم صلاح الدين ووضعته فى مصاف عظماء الرجال وكبار القواد .

الأمر الثانى : ابتهاج المسلمين بهذا الفتح ابتهاجا أنساهم كل شيء ، وحجب عنهم الأخطار التى كانت تحدق بهم من جراء تجمع الصليبيين فى السواحل الشامية مع قدوم النجدات الكثيرة لهم من أوربا . فتغنى الشعراء فى هذه المدائح بتطهير البيت المقدس والمسجد الأقصى وأسهبوا فى ذلك وأطنبوا وانهالوا على الصليبيين هجوا وطعنا وأظهروا الشماتة والسخرية بهزيمة الكفار وقتلهم وأسرهم وذكروا صليب الصلبوت وما لحقه من الهوان وغير ذلك . وقد فعل الشعراء هذا دون تحفظ ولم نر منهم أحدا ينذر بما يخبئه المستقبل . ولا شك فى أن هزيمة الصليبيين لم تكن حاسمة ولم تكن نهائية ، فقد عادوا لحصار بيت المقدس بعد سقوطه فى أيدى المسلمين بوقت قصير وكان صلاح الدين مقيما فيه فاشتد الكرب بالمسلمين وعظم الخطب ولجأ السلطان إلى الصلاة والدعاء ، وأخيرا بعد الخطر وذلك برجوع الصليبيين عن بيت المقدس . ورأينا عند الكلام عن أدوار هذه الحروب أن الإفرنج هددوا بيت المقدس فى عام ٦١٦ هـ . وفى ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة [١] :

« أخرب الملك المعظم عيسى صاحب دمشق القدس ... ووقع فى البلاد ضجة عظيمة . وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة والأقصى ، وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم وفعلوا أشياء من هذه الفعال ، ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم وما شكوا أن الفرنج تصبحهم ، وامتلأت بهم الطرقات فتوجه بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى الكرك وبعضهم إلى دمشق وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا ، ومات خلق كثير من الجوع والعطش

---

(١) ج ٦ / ٢٤٤ دار الكتب .

ونهبت الأموال التى كانت لهم بالقدس .. » ثم استولى الصليبيون على بيت المقدس عام ٦٢٥ هـ كما مر فى غير هذا الموضع . واستردوا بعد وفاة صلاح الدين كثيرا من القلاع والحصون .

قلنا إن العاطفة الدينية وابتهاج المسلمين بدخول المسجد الأقصى قد حجبا عنهم ما يخفيه المستقبل من أخطار . ولقد رأينا السلطان نفسه مع ما أوتى من ذكاء وفطنة ينفق وقته فى غسل المسجد الأقصى وتنظيفه والإشراف على فرشه وتأثيثه . ولو أنه أسرع إلى الساحل واستولى على صور لوفر على المسلمين ضحايا كثيرة ولكان نصره حاسما مبينا يستحق عليه هذا المديح .

على أن الشعراء الذين سلكوا هذا الطريق فى مدح السلطان قد ضللوا الرأى العام بقصد أو بغير قصد وثبطوا عزيمة المسلمين وأوهموهم أن النصر جاءهم كاملا موفورا وأن العدو أضحى مهزوما مدحورا ، وطفقوا يقللون من شأن الأعداء ويهونون من أمرهم . وبذلك تقاعد المسلمون عن مواصلة الجهاد والكفاح ، وأرغموا السلطان على قبول الهدنة مع الإفرنج ، وأظهروا فى ذلك شتى المعاذير مع وجودهم فى بلادهم على مقربة من ديارهم وذويهم وبعد الإفرنج عن الديار والأهل .

فأنت ترى أن الشعراءوقد أكثروا من القول فى فتح بيت المقدس قد أضروا بالمسلمين ضررا كبيرا فناموا مطمئنين وبات أعداؤهم ساهرين مجدين . وكان جديرا بهؤلاء الشعراء وقد صحب أكثرهم السلطان فى غزواته وحروبه ورأوا ما كان عليه الصليبيون من الشدة حين اللقاء والبأس فى الهيجاء ، وما طبع عليه هؤلاء القوم من الصلابة فى سبيل الدفاع عن معتقداتهم وعدم الرفق واللين فى قتالهم مع المسلمين - نقول

كان جديرا بهؤلاء الشعراء أن يكونوا لأمتهم منذرين ومبصرين ومحذرين ومحرضين . ولكن الظاهر أن موجة الفرح التى عمت بدخول المسلمين القدس قد طغت على الناس أجمعين فلم تستثن منهم أحداً فتساوى العالم والجاهل والحكيم والأحمق . وطويل النظر وقصيره .

ومن الحوداث التى اهتز لها المسلمون هزيمة الإفرنج فى مصر عند المنصورة سنة ٦١٨ هـ واسترداد المصريين ثغر دمياط فى عهد الملك الكامل ، وقد قيل إن الملك الكامل دخل دمياط فى احتفال عظيم وكان يوما مشهودا ، وأقبل عليه الشعراء مادحين ومهنئين بنجاة البلاد وخلاصها من شر الغزاة . وللبهاء زهير قصيدة جيدة نظمها فى هذه المناسبة وهى :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر	وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة	يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل بها بذل النفوس بشارة	ويصغر عنها كل شىء من النذر
ألا فليقل ما شاء من هو قائل	ودونك هذا موضع النظم والنثر
وجدت محلا للمقالة قائلا	فمالك إن قصرت فى ذاك من عذر
لك الله من مولى إذا جاد أو سطا	فناهيك من عرف وناهيك من نكر
تميس به الأيام فى حلل الصبا	وترفل منه فى مطارفه الخضر
أياديه بيض فى الورى موسوية	ولكنها تسعى على قدوم الخضر
ومن أجله أضحى المقطم شامخا	ينافس حتى طور سيناء فى القدر
تدين له الأملاك بالكره والرضا	وتخدمه الأفلاك فى النهى والأمر
فيا ملكا ضاهى الملائك رفعة	ففى الملأ الأعلى له أطيب الذكر
يهنيك ما أعطاك ربك إنها	مواقف هن الغر فى موقف الحشر
وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها	لقد فرحت بغداد أكثر من مصر

فلـو لم يقم بـالله حـق قيـامـه　لمـا سلمت دار السلام من الـذعر
وأقسم لـولا همـة كـامليـة　لخافت رجال بالمقام وبـالحجر
فمن مبلـغ هـذا الهنـاء لمكـة　ويثرب تنهيـه إلى صـاحب القبر
فقـل لرسـول الله إن سميـه　حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر
هو الكامل المولى الذى إن ذكرته　فيا طرب الدنيا ويـا فرح العصر
بـه ارتجعت دميـاط قهرا من العدا　وطهرهـا بـالسيف والملـة الطهر
ورد على المحراب منهـا صـلاتـه　وكم بات مشتاقا إلى الشفع والوتر
وأقسم إن ذاقت بنـو الأصفر الكرى　فـلا حلمت إلا بـأعـلامـه الصفر
عجبت لبحر جـاء فيـه سفينهم　ألسنـا نراه عنـدنـا ملـك الغمر
ألا إنهـا من فعلـه لكبيرة　سيطلب منهـا عفـو أنملـك العشر
ثـلاثـة أعـوام أقمت وأشهرا　تجاهـد فيهـا لا بـزيـد ولا عمرو
صبرت إلى أن أنـزل الله نصره　لـذلـك قـد أحمـدت عـاقبـة الصبر
وليلـة نفر للعـدو كـأنهـا　بكثرة من أرديتـه ليلـة النحر
ويـا ليلـة قـد شرف الله قـدرهـا　ولا غرو أن سميتهـا ليلـة القـدر
سـددت سبيـل البر والبحر عنهم　بسـابحـه دهم وسـابحـة غر
أسـاطيـل ليست فى أسـاطير من مضى　بكـل غراب راح أقنص من صقر
وجيش كمثـل الليـل هـولا وهيبـة　وإن زانـه مـا فيـه من أنجم زهر
وكـل جـواد لم يكن قـط مثلـه　لآل زهير لا ولا لبنى بـدر
وبـاتت جنـود الله فـوق ضـوامر　بـأوضـاحهـا تغنى السراة عن الفجر
فمـا زلت حتى أيـد الله حـزبـه　وأشرق وجه الأرض جذلان بـالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنـا　وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجـاءت ملوك الروم نحوك خضعـا　تجرر أذيـال المهـانـة والصغر
أتوا ملكا فوق السحـاب محلـه فمن　جـوده ذاك السحـاب الـذى يسرى
فمن عليهم بـالأمـان تكرمـا　على الرغم من بيض الصوارم والسمر

كفى الله دمياط المخاوف إنها ... لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر

وما طاب ماء النيل إلا لأنه ... يحل محل الريق من ذلك الثغر

فلله يوم الفتح يوم دخولها ... وقد طارت الأعلام منها على وكر

لقد فاق أيام الزمان بأسرها ... وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر

ويا سعد قوم أدركوا فيه حظهم ... لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر

وإنى لمشتاق إلى كل قادم ... إذا كان من ذاك الفتوح على ذكر

فيطربنى ذاك الحديث وطيبه ... ويفعل بى ما ليس فى قدرة السحر

وأصغى إليه مستعيدا حديثه ... كأنى ذو وقر ولست بذى وقر

يقوم مقام البارد العذب فى الظما ... ويغنى عن الأزواد فى البلد القفر

فكم مر لى يوم إذا ما سمعته ... أقر به سمعى وأذكره فكرى

وها أنا ذا حتى إلى اليوم ربما ... أكذب عنه بالصحيح من الأمر

لك الله من أثنى عليك فإنما ... من القتل قد أنجيته أو من الأسر

يقصر فيك المدح من كل مادح ... ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

ومما يلاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعر ذكر « الروم » و « بنى الأصفر » مع أن هذه الحملة كانت أوربية صليبية ولم يكن بها أحد من الروم . ومن يقرأها دون إلمام بالحوداث التى قيلت بصددها يخال أن الغزاة كانوا من الروم . فلم يذكر الشاعر « الإفرنج » ولا « الصليب » ولا شيئا تشم منه رائحة الغزو الصليبى . وهى فى جملتها حمد لله وشكر له على إنقاذ البلاد من جيوش الإفرنج . وقد نوه الشاعر بالمجهودات العظيمة التى بذلها الكامل فى مقاومة المغيرين . تلك المجهودات التى انتهت بجلاء الأعداء عن البلاد وخلاص دمياط التى هى من قبلة الإسلام فى موضع النحر . وذكر أن هذا الجهاد قد فاق جهاد المسلمين الأولين فى حنين وبدر ، ولولا همة الملك الكامل لتعرض الإسلام لخطر الزوال

لا من مصر وحدها ، بل من الأقطار الإسلامية الأخرى و « خاف رجال بالمقام وبالحجر » .

☆ ☆ ☆

وقد كانت هزيمة الصليبيين فى عام ٦٤٨ هـ عند المنصورة ووقوع لويس التاسع فى الأسر واعتقاله بدار ابن لقمان من الحوداث التى هزت المشاعر وحركت العواطف فتغنى بها الشعراء فى قصائدهم .

☆ ☆ ☆

ولما زالت الخلافة الفاطمية من مصر والأموية من الأندلس وامتد النفوذ الأدبى للخلافة العباسية على مصر والشام والحجاز بمعاضدة الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية ودولة المماليك بدأ الناس يشعرون بشىء من الاحترام لمقام الخلافة العباسية . وكان المسلمون يرون فيها ما يذكرهم بماضيهم المجيد أيام الرشيد والمأمون . وساعدت العواطف الدينية على احترام الخليفة العباسى .

وقد أثر كل هذا الشعر فكثر المادحون للخليفة . وانتهى هذا بانتهاء أمر الخلافة العباسية على أيدى التتار عام ٦٥٦ هـ .

☆ ☆ ☆

وكان العنصر التركى قد أبلى بلاء حسنا فى هذه الحروب الطويلة الأمد وحمل عبء القتال والجهاد ، ودافع عن حوزة الإسلام والمسلمين ، وهو الذى قهر الصليبيين وأذل أعداء الدين بما أبدى من ضروب الشجاعة

والبسالة . لذلك لهجت الألسن بمدح الترك والثناء عليهم وظهر ذلك فى شعر كثير . فمن ذلك قول ابن المجاور :

جاءت جنود الله تطلب ثارها ... وصدورها عما قليل تشتفى
فانهض بها وتقاض حقك موقنا ... أن الإله بما تؤمله حفى
هم فتية الأتراك كل مجفجف ... يغشى الكريهة فوق كل مجفجف
قوم يخوضون الحمام شجاعة ... لا ينظرون إليه من طرف خفى
إن صبحوا الأعداء فى أوطانهم ... تركوا ديارهم كقاع صفصف
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا ... لله در المصطفى والمصطفى

إلى هنا ينتهى الكلام عن المدح فى عصر الحروب الصليبية .

٢

البـــكاء

هجم الصليبيون على الشام وأعملوا السيف فى رقاب ألوف من الأبرياء ، وخربوا المدن ، وحولوا المساجد إلى كنائس ، وأسروا كثيرا من المسلمين ، والمسلمات : صغارا وكبارا ، وعاثوا فى الأرض فسادا ، ينهبون ويغتصبون ، والمسلمون لا حول لهم ولا قوة ولا قدرة على دفع ما ألم بهم من المصائب والخطوب ، ولا مخفف لآلامهم سوى الدمع يرسلونه على الخدود ، أجل بكى المسلمون فى طول البلاد وعرضها. وبكى الشعراء لبكائهم وناحوا لنواحهم وأرسلوا القول ممزوجا بدمائهم صادرا من قرارة نفوسهم . انظر إلى أحدهم وهو يقول :

أحــل الكفر بــالإســلام ضيمـــا ... يطــول عليــه للـــدين النحيب
فحــق ضــائــع وحمى مبـــاح ... وسيف قـــاطـــع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبــــــا ... ومسلمـــــة لهـــا حرم سليب
وكم من مسجـــد جعلــوه ديرا ... على محرابــــه نصب الصليب
دم الخنــزير فيـــه لهم خلــوق ... وتحريـق المصـاحف فيـه طيب
أمــور لــو تـــأملهن طفــل ... لطفــل فى عــوارضــه المشيب
أتسبى المسلمــــات بكـــل ثغر ... وعيش المسلمين إذن يطيب
أمـــا والله لـــلإســلام حـــق ... يــدافــع عنـــه شبـــان وشيب
فقل لـذوى البصـائر حيث كـانوا ... أجيبـــوا الله ويحكم أجيبـــوا

وانظر إلى آخر وهو يقول :

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة ... على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفى رسومه ... وشمر عن كفى لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفى بالنفوس فديته ... بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم

وتأمل فى قول شهاب الدين بن المجاور

أعينى لا ترقى من العبرات ... صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها ... توقد ما فى القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله ... يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره ... على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحى والهدى ... على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى ... أنافت بما فى الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التى اتجهت لها ... صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر ... وأشرف مبنى لخير بناة
وما زال فيه للنبيين معبد ... يوالون فى أرجائه السجدات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ ... ـرفيع العماد العالى الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما ... وللبر والإحسان والقربات
يوافى إليه كل أشعث قانت ... لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها ... توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم ... فمن بين نواح وبين بكاة .

لتبـك على القـدس البـلاد بـأسرهـا وتعلن بــالأحـزان والترحــات

لتبــك عليهــا مكــة فهى أختهــا وتشكـو الـذى لاقت إلى عرفـات

لتبـك على مـاحل بـالقـدس طيبـة وتشرحــــه فى أكرم الحجرات

لقـد أشمتـوا عكـا وصـور بهـدمهـا ويـا طـالمـا غـادتهمـا بثمـات

لقـد شتتـوا عنهـا جمـاعـة أهلهـا وكـل اجتمــاع مـؤذن بشتــات

وقـد هـدموا مجـد الصلاح بهـدمهـا وقـد كـان مجـدا بـاذخ الغرفـات

وقـد أخمـدوا صوتـا وصيتـا أثـاره لهم عظم مـا والـوا من الغـزوات

أمــا علمت أبنــاء أيـوب أنهم بمسعــاتــه عــدوا من السروات

وأن افتتــاح القــدس زهرة ملكهم وهــل ثمر إلا من الــزهرات

فمن لى بنـواح ينحن على الـذى شجــانى بــأصـوات لهن شجـاة

يرددن بيتــا للخـزاعى قــالــه يــؤبن فيــه خيرة الخيرات

مـدارس آيــات خلت من تـلاوة ومنــزل وحى مقفر العرصــات

☆ ☆ ☆

هذا مثل ممـا بكى بـه الشعراء ، ولا شـك فى أن القـارىء المسلم إذا قرأ أمثال هـذه القصـائـد سيتـأثر تـأثرا عميقـا . ولا عجب فى ذلـك فقـد صـورت لنـا أبلـغ تصـوير تلـك الحـالـة المحـزنـة المـؤلمـة التى مر بهـا المسلمـون فى تلـك العصـور . فـالشـاعر هنـا يتفجـع ويتحسر ، ويتـألم ويتـوجـع ويحـاول وهـو يـائس أن يستثير حميـة المسلمين ويـدعـوهم للنهوض دفاعا عن حرماتهم المنتهكة وأعراضهم التى استبـاحهـا الصليبيون فى غير رحمــة ولا لين ، ويحرضهم على الجهـاد فى سبيـل الـذود عن حياضهم وديارهم ، ويحمسهم للقيـام بنصرة دينهم . ويرفع الشـاعر صوتـه معددا لهذه النكبات لا طما خديه على ما أصاب الاسلام والمسلمين نادبا

ما حل بالبلاد من الكوارث ، مظهرا الدهشة من تقاعد المسلمين وتخاذلهم ، وجبنهم وضعفهم ، وخورهم وترددهم ، وخنوعهم ووهنهم ، وهو يجيل بصره فلا يجد سميعا ولا مجيبا ؛ فالأول يقول :

فقل لذوى البصائر حيث كانوا　　أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

والثانى :

فلو كان يفدى بالنفوس فديته　　بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم

والثالث :

أما علمت أبناء أيوب أنهم　　بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم　　وهل ثمر إلا من الزهرات
فمن لى بنواح ينحن على الذى　　شجانى بأصوات لهن شجاة

أما ابن المجاور فحاول أن يذكر الأيوبيين بمكانة القدس فى نفوس المسلمين ويحثهم على الدفاع عنه فهو زهرة ملكهم ، كما حاول أن يلهب نار العاطفة الدينية فذكر المسجد المسجد الأقصى والصخرة وسلم المعراج والقبلة الأولى وخلو القدس من القائمين لله والقائمات والذاكرين والذاكرات . ولكن هذا الصراخ الذى بعثه الشاعر فى الفضاء لم يلق آذانا مصغية ، فقد كان أبناء صلاح الدين فى نزاع فيما بينهم . وهذا النزاع هو الذى أغرى الأوربيين بإشعال نيران الحروب الصليبية الثالثة وقد استفاد الأعداء من الخصومة التى نشبت بين أبناء صلاح الدين فائدة كبيرة واستردوا كثيرا من نفوذهم وهيبتهم واسترجعوا ما فقدوا من حصون ومدن على يد صلاح الدين .

☆ ☆ ☆

وقد ظهر فى خلال الحروب الصليبية كثير من الشخصيات الإسلامية التى استحقت لقب البطولة والتى خلدها التاريخ لما أظهرته من مواهب ممتازة فى قيادة الجيوش وإدارة رحى المعارك ، ولما بذلته من جهود كبيرة فى سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين . ومن هؤلاء العظماء عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين والملك الكامل والملك المعظم تورانشاه وغيرهم . وقد نزل هؤلاء الرجال منزلة القداسة فى قلوب الناس فأحبهم المسلمون وجعلوهم مواطن آمالهم ومعاقد رجائهم فهم حماة الإسلام والمسلمين ، وقاهرو الصلبان والصليبيين وهم الذين صانوا أعراض المسلمين من أن تباح على أيدى الكافرين ، وأعزوا المسلمين بعد أن ذلوا للغزاة الفاتحين . ظهروا والمسلمون فى يأس وقنوط والإسلام فى خطر الزوال والمساجد أضحت كنائس ، فقادوا المسلمين من نصر إلى نصر حتى طهروا مدنا كثيرة من أوضار المشركين . فإذا مات عظيم من هؤلاء العظماء جزع المسلمون لفقده ، وناحوا لموته وبكوا بكاء مرا . وهم يفعلون ذلك مدفوعين بماضى هذا الفقيد المجيد فموته من غير شك خسارة كبيرة على الإسلام والمسلمين . ومدفوعين من ناحية أخرى بعامل الخوف من الصليبيين الذين كانوا ينتهزون الفرص للهجوم على المسلمين ، وبالخوف من تفرق المسلمين وانقسامهم بعد وفاة هذا الملك . هذه هى العوامل التى يقوم عليها رثاء الشعراء لملوك المسلمين وقوادهم فى تلك العصور .

ومن أمثلة هذا الرثاء قول العماد الأصفهانى فى نور الدين :

الـــدين فى ظلم لغيبـــة نـــوره	والــــدهر فى غم لفقـــــد أميره
فلينـــدب الإســـلام حـــامى أهلــه	والشـام حــافـظ ملكــه وثغـوره
مـــا أعظم المقـــدار فى أخطـــاره	إذ كان هذا الخطب فى مقـدوره

مـا أكثر المتـأسفين لفقـد من | قرت نـواظرهم بفقـد نظيره
مـا أغوص الإنسـان فى نسيانـه | أو مـا كفاه الموت فى تـذكيره
من للمسـاجـد والمـدراس بـانيـا | لله طـوعـا من خلـوص ضميره
من ينصر الإسـلام فى غـزواتـه | فلقـد أصيب بركنـه وظهيره
من للفرنـج ومن لأسر ملـوكهـا | من للهـدى يبغى فكـاك أسيره
من للخطـوب مـذللا لجمـاحهـا | من للـزمـان مسهـلا لـوعـوره
من كـاشف للمعضـلات برأيـه | من مشرق فى الـداجيات بنـوره
من للكريم ومن لنعش عثـاره | من للئيم ومن لجبر كسيره
من للبـلاد ومن لنصر جيـوشهـا | من للجهـاد ومن لحفـظ أمـوره
من للفتـوح محـاولا أبكـارهـا | برواحـه فى غـزوه وبكـوره
من للعلى وعهـودهـا من للنـدى | ووفـوده من للحجى ووفـوره
مـا كنت أحسب نور دين محمـد | يخبـو وليـل الشرك فى ديجـوره
أعـزز على بـأن أراه مغيبـا | عن محفـل متشرف بحضـوره
لهفى على تلـك الأنـامـل إنهـا | مـذغيبت غـاض النـدى ببحـوره
ولقـد أتى من كنت تجرى رسمـه | فضع العـلامـة منـك فى منشـوره
ولقد أتى من كنت تكشف كربـه | فـارفـع ظـلامتـه بنصر عشيره
ولقـد أتى من كنت تـؤمن سربـه | وقـع لـه بـالأمن من محـذوره
ولقـد أتى من كنت تـؤثر قربـه | فـأدم لـه التقريب فى تقريره
والجيش قد ركب الغـداة لعرضـه | فـاركب لتبصره أوان عبـوره
أنت الـذى أحييت شرع محمـد | وقضيت بعـد وفـاتـه بنشـوره
كم قد أقمت من الشريعـة معلمـا | هـو منـذ غبت معرض لـدثـوره
كم قـد أمرت بحفر خنـدق معقل | حتى سكنت اللحـد فى محفـوره
كم قيصر للروم رمت بقسره | إرواء بيض الهنـد من تـامـوره

أوتيت فتح حصونه وملكت عقـ ر بـلاده وسبيت أهـل قصـوره
أزهـدت فى دار الفنـاء وأهلهـا ورغبت فى الخلد المقيم وحوره
أو مـا وعـدت القـدس أنـك منجز ميعـاده فى فتحـه وطهـوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا وتقـدس الرحمن فى تطهيره
يـا حـاملين سريره مهـلا فمن عجب نهـوضكم بحمـل ثبيره
يـا عـابرين بنعشـه أنشقتم من صـالـح الأعمـال نشر عبيره
نـزلت مـلائكـة السمـاء لـدفنـه مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفـاء لـه مقـامى بعـده هـلا وفيت وسرت عنـد مسيره
حيـاك معتـل الصبـا بنسيمـه وسقـاك منهـل الحيـا بـدروره
ولبست رضوان المهيمن سـاحبـا أذيـال سنـدس خـزه وحريره
وسكنت عليين فى فردوسـه حلف المسرة ظـافرا بـأجـوره

فأنت ترى أن الشاعر بدأ يذكر خسارة الإسلام والمسلمين بفقد نور الدين وشرع يلطم ويندب معددا خدمات الفقيد فى سبيل نصرة دين الله بجهاد الصليبيين وقتالهم فى ميادين الحروب وبتعمير بيوت الله وإنشاء المعاهد والمدارس ونشر العدل والأمن فى ربوع البلاد وإعادة الطمأنينة إلى قلوب المؤمنين بعد أن زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا . وقد تحسر الشاعر على وفاة هذا الملك العظيم قبل أن يحقق ما كان يرجوه من تخليص القدس من أيدى الصليبيين ، ثم ختم قصيدته بالدعاء للفقيد واستنزال الرحمة على ثراه . ونلاحظ أن الشاعر لم يتورط فى المبالغات التى يتورط فيها غيره من الشعراء حينما يرثون . ولعل السر فى أن الشاعر لم يبالغ كثيرا فى الرثاء هو أن الحالة النفسية للمسلمين كانت مشوبة بالحزن والألم على بقاء القدس فى أيدى الصليبيين ، وعلى خضوع جهات كثيرة من بلاد الشام لنفوذهم ،

وعلى ما كانوا يصبونه على رءوس المسلمين من المصائب والخطوب . فالنفس الحزينة الباكية لا تلجأ إلى المبالغة فى القول ، إنما ترسل الكلام على سجيته دون تكلف .

☆ ☆ ☆

ولقد كانت وفاة صلاح الدين صدمة عنيفة أصيب بها المسلمون فى تلك العصور . وقد استطاع هذا الرجل العظيم أن يحتل باخلاقه وصفاته وجهاده ونضاله مكانة سامية فى نظر المسلمين ، فكان موضع حبهم وتقديسهم ورمز آمالهم وأمانيهم . ولا عجب فى ذلك فقد حقق للمسلمين أمينة طالما صبت إليها نفوسهم وتطلعت إليها أبصارهم وعز على غيره تحقيقها . تلك هى فتح بيت المقدس وتطهير المسجد الأقصى الذى لبث الصليبيون يدنسونه زهاء مائة عام كاملة حتى يئس المسلمون من استرجاعه . فلا غرو أن ضج الناس بالبكاء حين وفاته . قال القاضى ابن شداد :

« وكان يوما لم يصب الإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفداه بالنفس » .

وقال :

« ... [1] وكان يوما عظيما قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن

---

(١) الروضتين ٢ / ٢١٣ .

والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره » وقال : « ... [٢] وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضجيج حتى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ... » وقد عبر الشعراء فى رثائهم لصلاح الدين عن شعور المسلمين أصدق تعبير ، وسجلوا ما انطوت عليه جوانحهم أدق تسجيل .

ومن هذه المراثى قصيدة للعماد الأصفهانى جاء فيها :

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية	مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا	مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذى	لله خالصة صفت نياته
أين الذى ما زال سلطانا لنا	يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله	وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق العدا أسيافه	أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم	أجدت لطب الدهر تدبيراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت	بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته	حتى توارت بالصباح قناته
لذ المتاعب فى الجهاد ولم تكن	مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة	روحاته ميمونة ضحواته

(١) المصدر نفسه .

في نصرة الإسلام يسهر دائمــا ليطول في روض الجنان سناتـه
لا تحسبوه مـات شخص واحـد فممات كل العالمين مماتـه
ملك عن الإسلام كان محاميا أبدا إذا ما أسلمته حماتـه
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره لما خلت من بدره داراتـه
دفن السماح فليس ينبش بعد ما أودى إلى يوم النشور رفاتـه
الدين بعد أبي المظفر يوسف أقوت قواه وأقفرت ساحاتـه
جبل تضعضع من يضعضع ركنه أركاننا وتهدنا هداتـه
ما كنت أعلم أن طودا شامخا يهوى ولا تهوى بنا **مهواته**
ما كنت أعلم أن بحرا طاميا فينا يطم وتنتهي زخراتـه
بحر خلا من وارديه ولم تزل محفوفة بوفوره حفاتـه
من لليتامى والأرامل راحم متعطف مفضوضة صدقاتـه
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياتـه
فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب تحضر لرحمة ربه سقياتـه
وكعادة البيت المقدس يحزن الـ ـبيت الحرام عليه بل عرفاتـه
من للثغور وقد عداها حفظه من للجهاد ولم تعد عاداتـه
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت من سبلها وركوبها غزواتـه
وبسيفه صدأ لحزن مصابه إذ ليس يشفى بعده صدياتـه
يا وحشتا للبيض في أغمادها لا تنتضيها للوغى عزماتـه
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت في كل قلب مؤمن روعاتـه
يا حسرتا من يأس راحته الذى يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه أسد وإن بلاده غاباتـه
ما كان أسرع عصره لما انقضى فكأنما سنواته ساعاتـه

لم أنس يوم السبت وهو لما به ... يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منـــــه تبلجت أنـــواره ... والوجه منه تلألأت سبحاتـه
ويقـــول لله المهيمن حكمــــــة ... فى مرضة حصلت بها مرضاتـه

ومنها :

يـا راعيـا للـدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كـان ضرك لو أقمت مراعيا ... دينا تولى مذ رحلت ولاته
أضجرت منـــا أم أنفت فلم تكن ... ممن تصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل ... فوق السماء علية درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ... ووصلت ملكا باقيا راحاته
أعزز على عينى برؤية بهجة الد ... نيا ووجهك لا ترى بهجاته
أبنى صلاح الدين إن أباكم ... ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتـــدوا إلا بسنــــة فضلـــه ... لتطيب فى مهد النعيم سناته

وقد ذكر صاحب الروضتين أن هذه القصيدة تقع فى مائتين واثنين وثلاثين بيتا . وقد ختمها العماد بتوجيه الخطاب إلى أبناء صلاح الدين حاثا لهم على الاقتداء بأبيهم فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين .

٣

التحريض على القتال

جاء الصليبيون إلى الشرق فى وقت كان المسلمون فيه منقسمين إلى شيع وطوائف . ولم تكن هناك سلطة عليا توحد كلمة المسلمين فى مصر والشام وتقودهم لقتال الأعداء . فقد أضحى الخليفة الفاطمى مجردا من كل نفوذ وكان القواد يتنازعون على مناصب الحكم . وظهرت إمارات مستقلة فى الشام على رأس كل منها أمير . وكانت المصلحة الشخصية فوق كل اعتبار ، ولم يرغب أمراء المسلمين فى توحيد الكلمة وجمع الصفوف لمواجهة خطر الغزاة بل ظلوا منقسمين يكيد بعضهم لبعض ويدس بعضهم لبعض ، ومنهم من سالم الإفرنج ليأمن شرهم فيحتفظ بمنصبه وجاهه ومركزه وسلطانه . وكان الصليبيون يمعنون فى البلاد فسادا ، لا يردعهم رادع ولا يزجرهم زاجز ولا يخيفهم من المسلمين قائد لذلك اتخذ التحريض فى هذه الفترة صبغة وطنية محضة . ونزعة قومية صرفة ومحاولة استثارة أمير من الأمراء عن طريق ذكر الأعراض والحرمات والدعوة إلى الدفاع عن النساء والأطفال . وقد اقتنع الشعراء فى ذلك العهد بالوقوف عند هذا الحد ولم يطمعوا فى أكثر من هذا . وكان التحريض فى هذا الدور أشبه شىء بالعتاب على إهمال الدفاع عن المسلمين وترك الإفرنج يعيثون فى البلاد فسادا . ولنضع أمام القارىء مثالا لذلك وهو قصيدة لابن الخياط الدمشقى (٤٥٠ - ٥١٧ هـ) .

مات ابن الخياط الدمشقى عام ٥١٧ هـ وقد شاهد فترة من أحلك الفترات التى مرت على الشرق فقد كانت الجيوش الصليبية تسيطر على معظم بلاد الشام . وكان المسلمون فى منتهى الضعف ، شملهم اليأس بظلامه وأحاط بهم القنوط وأصبحوا رعية بغير رعاة . قال ابن الخياط يخاطب الأمير عضب الدولة :

وإنى لمهـــد إليـــك القريض	يطوى على النصح والنصح يهدى
إلى كم وقـــد زخر المشركـون	بسيـل يهـال لـه السيـل مـدا
وقـد جـاش فى أرض إفرنجـة	جيـوش كمثـل جبـال تردى
تراخـــون من يجترى شـــدة	وتنسـون من يجعـل الحرب نقـدا
أنـومـا على مثـل هـد الصفـا	وهـزلا وقـد أصبـح الأمر جـدا
وكيف تنـــامـــون عن أعين	وترتم فـــأسهرتمـوهن حقـــدا
وشر الضغـــائن مـــا أقبلت	لـديـه الظعائن بـالكفر تحـدى
بنـو الشرك لا ينكرون الفســاد	ولا يعرفـون مـع الجـور قصـدا
ولا يرعـون عن القتـل نفســا	ولا يتركـون من الفتـك جهـدا
فكم من فتـــــاة بهم أصبحت	تـدق من الخـوف نحرا وخـدا
وأم عـــواتـــق مـــا إن عرفـ	ـن حرا ولا ذقن بـــالليـل بردا
تكـــاد عليهن من خيفـــة	تـذوب وتتلف حـزنـا ووجـدا
فحـــامـوا عن دينكم والحريم	محـامـاة من لا يرى الموت فقـدا
وسـدوا الثغـور بطعن النحـور	فمن حـق ثغربكم أن يســدا
فلن تعـدمـوا فى انتشـار الأمـور	أخـا تـدرأ حـازمـا الرأى جلـدا
يظـــاهر تـــدبيره بـــأســه	مظـــاهرة السيف كفـــا وزنـدا
كمثــل زعيم الجيــوش الملى	بعـزم يبيت لــه الحـزم ... ردا
وعـــادات بـــأسكم فى اللقـــا	ء ليست تحـول عن النصر عهـدا

فـــــدونكم ظفرا عـــــاجـــلا لكم جاعلا سـائر الأرض مهـدا
فقـــــد أينعت أرؤس المشركين فلا تغفلوها قطـافـا وحصـدا
فلا بد من حـدهم أن يفـل ولا بـــــد من ركنهم أن يهـــــدا

ولعمرى إن قصيدة ابن الخياط هذه قد صورت الحالة النفسية للمسلمين فى ذلك العصر أصدق تصوير فالشاعر يرسل التحريض ممزوجا بالبكاء على ما أصاب المسلمين من بطش الصليبيين . ويلاحظ أن الشاعر لم يذكر بيت المقدس ولم يحرض على تخليصه كما فعل الشعراء فيما بعد ، كما أنه لم يذكر الدفاع عن الإسلام والمسلمين . وهذا أمر طبيعى فقد كان المسلمون كما ذكرنا فى غير هذا الموضع منقسمين إلى شيع وطوائف ودويلات صغيرة لا رابطة بينها ولا صلة . والشاعر هنا يحرض أميرا صغيرا لذلك لم يكن من المعقول أن يكلفه الدفاع عن الإسلام أو تخليص المسجد الأقصى أو غير ذلك مما لا يتحقق إلا بقيام المسلمين متحدين مزودين بالعدد الكثير والعدة الوفيرة . وقد كان التحريض فى هذه الفترة يوجه إلى أمراء صغار ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، وقد سالم أكثرهم الإفرنج وخطبوا ودهم ليأمنوا شرهم . لذلك ترى ابن الخياط هنا يبكى بكاء مرا ويقول :

تراخـــون من يجترى شـــــدة وتنسـون من يجعـل الحرب نقـدا
أنـومـا على مثـل هـد الصفـا وهـزلا وقـد أصبـح الأمر جـدا
وكيف تنـــامـــون عن أعين وترتم فـــأسهرتمـوهن حقـــدا

☆ ☆ ☆

وفى عام ٥٢١ هـ ظهر عماد الدين زنكى وشرع يهزم الصليبيين حينـا بعد حين . ثم استولى على الرها فعقدت عليه الآمال وتعلق به

الرجاء وصار قبلة أنظار المسلمين ، فوجه إليه الشعراء قولهم وأخذوا يحرضونه على قتال الصليبيين وجهادهم .

ثم جاء نور الدين واستطاع أن يوقع بالإفرنج الهزائم الشنيعة وأن يرجع إلى المسلمين ما فقدوا من الثقة فى أنفسهم فازداد الأمل فى تخليص بيت المقدس وإنقاذ المسجد الأقصى . وقد عبر الشعراء عن ذلك فى شعر كثير . مثال ذلك قول العماد الأصفهانى :

اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم ... واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب ... على البغاة وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... فى عقد عز من الإسلام منتظم

ولما هزم الجيش المصرى الصليبيين عند غزة وأوقع بهم خسارة فادحة أخذ طلائع بن رزيك يبعث إلى نور الدرين بقصائد يتلو بعضها بعضا وفيها تحريض شديد وإلحاح كثير فى قتال الإفرنج وطردهم من بلاد الشام . ومن ذلك قوله :

فقولوا لنور الدين ليس لخائف الـ ... ـجراحات إلا الكى والبسط ؟
وحسم أصول الداء أولى بعاقل ... لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة ... بها أبدا يخطى سواهم ولم يخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم ... قديما وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فإنا قد أعنا بكل ما ... سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطوا

وقال من قصيدة أخرى :

بلغوا قولنا إلى الملك العا ... دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطل الدين فى الكفـ ... ـار فاحذر أن يغضب الممطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك فى ... الله فبالسير منك يشفى الغليل

وقال :

فلـو أن نـور الـدين يجـ ... ـعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الأجناد جهـ ... ـرا كى ينازلهم نزالا
ووفى لنا ولأهل دو ... لته بما قد كان نالا
لرأيت للإفرنج طر ... ا فى معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحـ ... ـو الغرب أو قصدوا الشمالا

وقال مخاطبا أسامة بن منقذ :

ولعمرى إن المناصح فى الديـ ... ـن على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقو ... ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية فى الأمـ ... ـرين منذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك فى الطعـ ... ـن ولا فى الضراب يوما ضريب
لك رأى يقظان إن ضعف الرأ ... ى على حامل الصليب صليب
فانهض الآن مسرعا فبأمثا ... لك ما زال يدرك المطلوب
ألق منا رسالة عند نور الديـ ... ـن ما فى إلقائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليه ... من لباس الإقبال برد قشيب
أيها العادل الذى هو للديـ ... ـن شباب وللحروب شبيب
والذى لم يزل قديما عن الإسـ ... ـلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لا ... قوه يوما من الزمان عصيب

☆ ☆ ☆

وفى عصر صلاح الدين كثر إلحاح الشعراء وتحريضهم على القتال والنزال وتطهير بيت المقدس من رجس الكفار وتخليص المسجد الأقصى

من عبدة الصلبان . ولو أنك ألقيت نظرة على القصائد التى قيلت فى مدح صلاح الدين وتهنئته بانتصاراته التى أحرزها على الصليبيين لوجدت كل قصيدة منها تنتهى بالتحريض على السير إلى بيت المقدس وتطهيره من أدناس الكفار وأرجاسهم وإعادته إلى حظيرة الإسلام . ولا عجب فى ذلك فقد كان المسلمون يتحرقون شوقا إلى تخليص المسجد الأقصى موضع الإسراء الذى بارك الله حوله . ومثال ذلك قول أحد الشعراء على لسان القدس .

يـأيهـا الملـك الـذى   لمعـالم الصلبـان نكس
جـاءت إليـك ظـلامـة   تسعى من البيت المقـدس
كـل المسـاجـد طهرت   وأنـا على شرفى منجس

وقال العماد الأصفهانى محرضا صلاح الدين على فتح القدس :

فسر وافتـح القـدس واسفـك بـه   دمـاء متى تجرهـا ينظف
واهـد إلى الاسبتـار البتـا   ر وهـد السقـوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلـك البـلا   د يخلصـك الله فى المـوقف

وقال :

فيـا ملكـا لم يبـق للـدين غيره   وهت عمـد الإسلام فـاشـدد لهـا دعمـا
فشـؤم فريـق الشرك فى الشـأم طـائر   فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فعم العـدا ردى   فـإنهم يـأجوج أفرغ بهـا ردمـا
إذا صفرت من آل الاصفر سـاحـُة الـ   ـقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فها المسجد الأقصى وهمتك العلى   وعزمتك القصوى ورميتـك الصمى

فمـا هـو إلا أن تهم وقـد أتت   فتوح كما فاض الخضم الذى طما
وإن أنت لم ترد الفرنـج بـوقعـة   فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدمـا
ومـا كل حين تمكن المرء فرصـة   ولا كل حال أمكنت تقتضى غنما
وليس كفتـح القـدس منيـة قـادر   وما إن تلقاها سوى يوسف جزمـا

كان بيت المقدس المحور الذى يدور حوله التحريض ، فإذا اقترب الخطر منه اشتد التحريض على جهاد الصليبيين وكثر الإلحاح فى حماية الأماكن المقدسة من اعتداء الإفرنج ، وإذا بعد الخطر خفت وطأة التحريض إلى حدما وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه المسلمون . ولو أنهم حرصوا على الاستيلاء على السواحل الشامية وحصروا الصليبيين فى داخل البلاد لاستطاعوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما فى فترة وجيزة ولكنهم استسلموا للعواطف الدينية فركزوا هممهم فى بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة .

☆ ☆ ☆

على أن المسلمين ما لبثوا أن أدركوا الحقائق وذلك حينما عاد الصليبيون لحصار القدس بعد ضياعه من أيديهم ، وحينما اشتد القتال بين صلاح الدين وريكاردس ملك الإنجليز. فرأينا الشعراء يحرضون السلطان على السير إلى الساحل وتحريره من نير الغزاة .

☆ ☆ ☆

وقد عانى المسلمون بعد وفاة صلاح الدين كثيرا من الشدائد ، وكان تحريض الشعراء يكثر كلما ازداد خطر الصليبيين ويقل حينما يبعد . ففى عهد الملك الأشرف استرد الإفرنج بعض المعاقل والحصون ، فعلا

صوت الشعراء بالحض على القتال والنزال ، والحث على الذود عن الحرمات والديار . ومثال ذلك قول ابن النبيه يخاطب الأشرف .

يا حارس الدين لما نام حارسه ... وناظما شمله من بعد تبديد
جهز جيوشك إن الثغر قد عبثت ... به الفرنج فأضحى غير مسدود
أيدركون به أوتار قدسهم ... منكم وذلك ملك غير مردود
يا للرجال أياديكم لنازلة ... تستنزل الماء من صم الجلاميد
أين الحمية هبوا من منامكم ... إما لعاجل دنيا أو لمعبود

هذا موجز عما قيل فى التحريض على القتال فى عصر الحروب الصليبية .

٤

الاستغاثة والدعاء

عانى المسلمون فى عصر الحروب الصليبية كثيرا من الأهوال والشدائد فمن معارك عنيفة أهلكت الحرث والنسل وأودت بحياة كثيرين بين قتل وأسر ، إلى حدوث مجاعات كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا ، إلى انتشار الأوبئة والطواعين التى تصحب الحروب عادة والتى جلب الصليبيون بعضها من أوربا ، إلى غير ذلك . والإنسان مفطور على الدفاع عن النفس فإذا عجزت وسائله المادية وشعر بإفلاسه وعدم قدرته على الكفاح والنضال لجأ إلى الله يدعوه سرا وعلانية ويلحف فى الدعاء ويلح فى التضرع والاستغاثة . ويساله أن يدفع عنه الخطب ويزيل الكرب ويكشف عنه من البلاء ما يعلم ومالا يعلم . وكان يجب على المسلمين أن يعلموا أن كثرة الدعاء مع القعود عن العمل وترك الجد والاجتهاد لا تجلب لهم نفعا ولا تدفع عنهم ضرا . ولكنهم نسوا ذلك أو تناسوه وشرعوا يتغنون بالأدعية والاستغاثات فى الأذكار وعقب الصلوات رافعين أصواتهم مبتهلين إلى الله أن يعجل لهم بالفرج وأن ينقذهم مما هم فيه من الشدائد .

وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر فنظمت فى هذا الصدد القصائد الطوال التى نلمح من أسمائها ما يدل على موضوعاتها . فمن ذلك قصيدة للغزالى يطلق عليها « دعاء المنفرجة » وهى :

الشـــدة أودت بـــالمهـج ... يـــارب فعجـل بـــالفرج
والأنفس أمست فى حرج ... وبـإذنـك تفريـج الحرج
هـاجت لـدعـاك خواطرنـا ... والـويـل لهـا إن لم تهـج
يـا من عودت اللطف أعـد ... عـاداتـك بـاللطف البهـج
وأغلـق ذا الضيـق وشـدتـه ... وافتـح مـاسـد من الفرج
لـذنـا بجنـابـك نقصـده ... والأنفس أمست فى وهـج
وإلى أفضـالـك يـا أملى ... يـا ضيعتنـا إن لم نلـج
من للملهوف سـواك يغث ... أو للمضطر ســـواك نجى
وإســاءتنـا لا تقطعنـا ... عن بـابـك حتى لم نلـج
فلكم عـاص أخطـا ورجـا ... ك أبحت له مامنـك رجى
يـا سيـدنـا يـا خـالقنـا ... قد ضاق الحبل على الودج
وعبـــادك أمسـوا فى ألم ... مـــا بين مكيريب وشجى
والأحشـا صـارت فى حرق ... والأعين عـادت فى لجـج
والأزمـة زادت شـــدتهـا ... يـا أزمـة علـك تنفرجى
جئنـــــاك بقلب منكسر ... ولسـان بـالشكـوى لهـج
وبخوف الحوبـة فى وجـل ... لكن برجـــاء ممتـــزج
فكم استشفى مزكـوم الـذنـ ... ـب بنشر الرحمـة والأرج
وبعينـك مـا نلقـاه ومـا ... فيـه الأحـوال من المرج
والفضـل أعم ولكن قـــد ... قلت ادعـــونى فلنبتهـــج
فبكـل نبى نســأل يـــا ... رب الأربـاب وكـل نجـى
وبفضـل الـذكر وحكمتـه ... وبمـا قـد أوضـح من نهـج
وبسر الأحرف إذ وردت ... بضيـــاء النـور المنبلـج
وبسر أودع فى بطن ... وبمــا فى واح مـع زهـج
وبسر البـــاء ونقطتهـــا ... من بسم الله لـذى النهـج

وبقهر القــاف وقــوتهـــا وبقهر القـــاهر للسمـــج
وبماعظمت من التعظيم وما درجت من الـــــــدرج
يـا قـاهر يـاذا الشـدة يـا ذاالبطش أغث يـاذاالحجـج
يـــارب ظلمنـــا أنفسنـــا ومصيبتنـــا من حيث نجى
يـــارب خلقنـــا من عجـل فلهـذا نـدعـو بـاللجـج
يـــارب وليس لنـــا جلـــد أنى والقلب على وهــــج
يـارب عبيـدك قـد وفـدوا تـدعـوك بقلب منـزعـج
يـــارب ضعـــاف ليس لهم يرجون سـواك لـدى الهرج
يـارب فصـاح الألسن قــد صاروا فى الشـدة كـالهمج
والســابـق منـــا صـــار إذا يعـــدو يسبقـــه ذو العرج
والأمر إليـــك تـــدبره فـــأغثنـــا بـــاللطف البهـج
وادرج بـــالعفـو إسـاءتنـــا والخيبـــة إن لم تنـــدرج
يـا نفس ومـالـك من فرج إلا مــولاك لـــــه فلـــج
وبـه فلـــذى وبـــه فعـــذى ولبـــاب مكـــارمـــه فعجى
كم تنصلحى كم تنشرحى كم تنبسطى كم تبتهجي
وبطيب مقـامـك مع نفر أضحوا فى السندس كـالسرج
وفـــوا لله بمـــا عهـــدوا من بيـــع الأنفس والمهـــج
قـوم سكنـوا الجرعـاء وهم شرف الجرعـــاء ومنعرج
وهم الهـــادى وصحـــابتـــه ذو الرتبـــة والعطر الأرج
جـــاءوا للكـــون وظلمتـــه عمت وظـلام الشرك دجى
نصروا الإسلام وعـاد الـديـ ـن عـزيـزا فى أسنى بهــج
فعليهم رب فصـــــــل على مر الأيـــام مـــع الحجـــج
ما مال المـال وحـال الحـا ل وسار الحادى فى الـديج
واختم عملى بخـــــواتمهم لأكـــون غـــدا فى الحشرنجى

فإذا أردنا أن ندرس النفسية الإسلامية على ضوء هذه القصيدة وجب علينا أن ننظر بعين الاعتبار إلى الظروف التى نظم الغزالى فيها هذا الشعر .

مات الغزالى عام ٥٠٥ هـ أى بعد هجوم الصليبيين على الشام بخمسة عشر عاما . وجال مدة فى بلاد الشام وشاهد الإفرنج يكتسحون المدن والقرى ويغيرون على السكان الآمنين وينهالون عليهم قتلا وأسرا . ورأى المسلمين لا حول لهم ولا قوة ، ذلوا وهانوا وخنعوا واستكانوا وأضحوا ولا راعى يرعاهم ولا زعيم يجمع شملهم ويتصدى للدفاع عنهم ، ولا قائد يقف الغزاة عند حدهم ؛ وأبصر الإسلام فى خطر الزوال والمسلمين على حافة الفناء والمساجد أضحت كنائس ؛ رفعت عليها الصلبان وأبطل منها الأذان ، ونظر فإذا المسجد الأقصى قد حل فيه التثليث محل التوحيد والإنجيل مكان القرآن وأخذ القسوس والبطاركة مواضع المشايخ والفقهاء . فى هذا الوسط المظلم ، وفى هذا الجو القاتم شرع الناس يلتمسون العون من الله ويسألونه التعجيل بالفرج . وماذا كانوا فاعلين وهم رعية بغير رعاة ؟ أمراؤهم مشغولون بمصالح أنفسهم يكيد بعضهم لبعض ويدس بعضهم لبعض . لقد ذهب وفد من بلاد الشام إلى بغداد لالتماس العون وطلب النجدة . وأخذ أعضاؤه يقصون على أهل بغداد ما حل بهم حتى أبكوا الناس بكاء شديدا . ولكن رحلتهم لم تأت بنتيجة فلم ينهض لإغاثتهم أحد من أمراء المسلمين . وهكذا عانى أهل الشام المصائب والأهوال يتلو بعضها بعضا . فرفعوا أيديهم إلى السماء متضرعين ومتوسلين بالقرآن وسوره والأنبياء والمرسلين ، ملحفين فى الدعاء طالبين التعجيل بالفرج ذلك لأن الشدة التى أصابتهم اودت بالمهج ، والناس أضحوا فى ضيق وحرج ومن غير الله يرفع هذا الحرج ؟ . وهكذا عبر

الغزالى عن شعور المسلمين فى هذا الوقت ونطق بألسنتهم وترجم عن حالة الضيق الشديد التى ألمت بهم . ثم أخذ يتوسل إلى الله بالأنبياء وبالقرآن وبما أودع فيه من الأسرار الإلهية . وذكر فى شىء من الألم والحزن أن المسلمين ضعاف وأنهم لا يجدون أمامهم ملجأ غير الله إليه يلجئون وبه يستغيثون وإياه يدعون .

☆ ☆ ☆

كثرت قصائد الاستغاثة فى مطلع الحروب الصليبية . فلأبى الفضل يوسف بن محمد التوزرى المعروف بابن النحوى المتوفى عام ٥١٣ هـ قصيدة فى الدعاء والاستغاثة تسمى « المنفرجة » جاء فيها :

اشتـــدى أزمـــة تنفرجى — قـــد آذن ليلـــك بـــالبلـج
وظـــلام الليـــل لـــه سرج — حتى يغشـــاه أبـــو السرج
وسحـــاب الخير لهـــا مطر — فـــإذا جـــاء الإبـــان تجى
وفـوائـــد مـولانـــا جمـــل — لسروح الأنفس والمهـــج
ولهـــا أرج محيى أبـــدا — فـــاقصـــد محيـــا ذاك الأرج
فلربتمـــا فـــاض المحيـــا — ببحـــور المـــوج من اللجـــج
والخلـق جميعـــا فى يـــده — فـــذوو سعـــة وذوو حرج

وقد خمسها وشرحها كثيرون . ومن هذه الشروح « الأضواء البهجة فى إبراز دقائق المنفرجة » و « الأنوار المنبلجة فى بسط أسرار المنفرجة » و « السريرة المنزعجة فى شرح المنفرجة » وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره .

☆ ☆ ☆

وقال البوصيرى :

فيا سامع البلوى ويا كاشف البلا ... إذا نزلت فى العالمين الشدائد
ويامن هدى الطفل الرضيع ولم تؤب ... إليه قوى عقل ولا اشتد ساعد
ويامن سقى الوحش الظماء وقد حـ ... ـمت مواردها من أن تنال المصايد
ويامن يزجى الفلك فى البحر لطفه ... وهن جوار بل وهن رواكد
ويا من هو السبع الطوارق رافع ... ومن هو للأرض البسيطة هامد
ويا من تنادينا خزائن فضله ... إلى رفده إن أمسك الفضل رافد
فلا باب من تلك الخزائن مغلق ... ولا خير من تلك الخزائن نافد
دعوناك من فقر إليك وحاجة ... وكل بما يلقاه للصبر فاقد
وأفضت بما فيها إليك ضمائرى ... وأنت على ما فى الضمائر شاهد
دعوناك مضطرين يارب فاستجب ... فإنك لم تخلف لديك المواعد
فليس لنا غوث سواك وملجأ ... نراجعه فى كربنا ونعاود
فقدر لنا خير الذى أنت أهله ... فما أحد عما تقدر حائد
وصفحا عن الذنب الذى هو سائق ... لنارك إلا إن عفوت وقائد

ويلاحظ أن البوصيرى هنا لم يتوسل إلى الله بأحد من الأنبياء ولا بالذكر وحكمته بل وجه الدعاء رأسا إلى الله فى إلحاح وإسراف .

☆ ☆ ☆

وكان ابن قيم الجوزية يرى أن نصرة الإسلام فرض لازم على كل إنسان إما باليد وإما باللسان ، فإن عجز المرء عن استعمال يده ولسانه فليتوجه إلى الله بالدعاء والتضرع : قال من إحدى قصائده :

هـذا ونصر الـدين فرض لازم ... لا للكفاية بل على الأعيان
بيد وإما باللسان فإن عجز ... ت فبالتوجه والدعا بجنان

ما بعد ذا والله للإيمان حبة خردل يا ناصر الايمان

بحياة وجهك خير مسئول به **وبنور وجهك** يا عظيم الشان

وبحق نعمتك التى أوليتها من غير ما عوض ولا أثمان

وبحق رحمتك التى وسعت جميع الخلق محسنهم كذاك الجانى

وبحق أسماء لك الحسنى معا نيها نعوت المدح للرحمن

وبحق حمدك وهو حمد واسع ال أكوان بل أضعاف ذى الأكوان

وبأنك الله الإله الحق معـ ـبود الورى متقدس عن ثان

بل كل معبود سواك فباطل من دون عرشك للثرى التحتانى

وبك المعاذ ولا ملاذ سواك انـ ـت غياث كل ملدد لهفان

من ذاك للمضطر يسمعه سوا ك يجيب دعوته مع العصيان

إنا توجهنا إليك لحاجة ترضيك طالبها أحق معان

فاجعل قضاها بعض أنعمك التى سبغت علينا منك كل زمان

انصر كتابك والرسول ودينك الـ ـعالى الذى أنزلت بالبرهان

واخترته دينا لنفسك واصطفيت مقيمه من أمة الإنسان

ورضيته دينا لمن ترضاه من هذا الورى هو قيم الأديان

وأقر عين رسولك المبعوث بالد ين الحنيف بنصرة المتدان

وانصره بالنصر العزيز كمثل ما قد كنت تنصره بكل زمان

يارب وانصر خير حزبينا على **حزب الضلال وعسكر الشيطان**

يارب واجعل شر حزبينا فدى لخيارهم ولعسكر القرآن

يارب واجعل حزبك المنصور أهل تراحم وتواصل وتدان

يارب وارحمهم من البدع التى قد أحدثت فى الدين كل زمان

يارب جنبهم طرائقها التى **تفضى** بسالكها إلى النيران

يارب واهدهم بنور الوحى كى يصلوا إليك فيظفروا بجنان

يارب كن لهم وليا ناصرا واحفظهم من فتنة الشيطان

وانصرهم يــارب بــالحــق الــذى	أنــزلتـــه يـــا منـــزل القرآن
يــارب إنهم هم الغربــاء قـــد	لجئـوا إليـك وأنت ذو الإحســان
يارب قـد عـادوا لأجلـك كل هـ	ـذا الخلـق إلا صـادق الإيمـان
قـد فـارقوهم فيـك أحـوج مـا هم	دينـــا إليهم فى رضـــا الرحمن
ورضـوا ولايتـك التى من نـالهـا	نـال الأمـان ونـال كـل أمـان
ورضوابوحيـك من سواه ومـاارتضـوا	بســواه من آراء ذى الهــذيـــان
يـارب ثبتهم على الإيمـان واجـ	ـعلهم هــداة التــائـــه الحيران
وأقم لأهـل السنـــة النبـويـــة ال	أنصـــار وانصرهم بكــل زمـــان

فأنت ترى أن ابن قيم الجوزية لا يطلب من الله التعجيل بالفرج من كرب ولا دفع خطب ولا يذكر ما يعانيه الناس من ضيق وحرج أودى بكثير من المهج . ولا عجب فى ذلك ففى أيام هذا الرجل كان المسلمون قد طهروا بلاد الشام من الصليبيين وكانت الأحوال المادية قد تحسنت تحسنا كبيرا وزال خطر الصليبيين عن الشرق . ولكن أثر هذه الحروب بقى عالقا فى الأذهان ، فابن قيم الجوزية يدعو ويلح فى الدعاء ويستغيث ويسرف فى الاستغاثة سائلا الله أن يحمى المسلمين من البدع والنحل الفاسدة التى فرقت كلمة المسلمين وجعلتهم متخاصمين متنافرين ، ويلتمس من الله أن يمن على المتمسكين بالقرآن والسنة بالنصر العظيم .

٥

المدائح النبوية

كان من أثر توقد العاطفة الدينية فى عصر الحروب الصليبية أن أقبل الشعراء على نظم القصائد الطويلة فى مدح الرسول والتغنى بمناقبه وفضائله ، وبما أجراه الله على يديه من المعجزات .

ومن أشهر من مدحوا الرسول فى ذلك الحين البوصيرى وله جملة قصائد فى هذا الموضوع . وأظهر هذه القصائد البردة التى مطلعها :

أمن تـــذكر جيران بـــذى سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهى مائة واثنان وستون بيتا فى قمع النفس وهواها ومدائح الرسول ومدح القرآن وذكر المعراج وفى جهاد النبى وفى الاستغفار والمناجاة . وقلما ظفرت قصيدة فى اللغة العربية بمثل ما ظفرت به هذه القصيدة من عناية الناس ؛ فحفظها كثير من الخاصة والعامة وأخذوا يتغنون بها فى حلقات الأذكار وساحات الموالد . وأقبل الأدباء عليها فمنهم من يصدرها ومنهم من يعجزها ، ومنهم من يشطرها ومنهم من يخمسها ، ومنهم من يسبعها ، ومنهم من يعشرها ومنهم من ينهج نهجها ، وينسج على منوالها وأوسعها الكتاب درسا وبحثا وشرحا وتعليقا ، حتى اتخذوها تميمة لعلاج كثير من الأمراض .

ومن قصائد البوصيرى الأخرى التى أنشأها فى المديح النبوى قصيدة « أم القرى فى مدح خير الورى » المشهورة بالهمزية وأولها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وقد حازت عناية أقل من عناية البردة .

وله قصيدة ثالثة مطلعها :

وافاك بالذنب العظيم المذنب خجلا يعنف نفسه ويؤنب

ولها قصيدة رابعة مطلعها :

بمدح المصطفى تحيا القلوب وتغتفر الخطايا والذنوب

وله قصيدة خامسة مطلعها :

أزمعوا البين وشدوا الركابا فاطلب الصبر وخل العتابا

وله قصيدة سادسة مطلعها :

أمدائح لى فيك أم تسبيح لولاك ما غفر الذنوب مديح

وله قصيدة سابعة أولها :

إلهى على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليت من نعم حد

وله قصيدة ثامنة عارض بها قصيدة « بانت سعاد » ومطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤل

وله قصيدة تاسعة بدأها بالرد على النصارى واليهود ثم تخلص من ذلك إلى مدح الرسول ومطلعها :

جـاء المسيـح من الإلـه رسـولا　　فـأبى أقـل العـالمين عقـولا

وله قصيدة عاشرة مطلعها :

سـارت العيس يرجعن الحنينـا　　ويجـاذبن من الشـوق البرينـا

☆ ☆ ☆

امتاز هذا العصر كما ترى بكثرة ما نظم من القصائد فى مدح الرسول حتى إنك لا تجد ديوان شعر خلا من هذا الباب بل لقد ظهرت دواوين كلها فى المدائح النبوية . ومثال ذلك « أهنى المنائح وأسنى المدائح » للشهاب محمود و « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » لابن سيد الناس اليعمرى الأندلسى الأصل المصرى المولد (٦٧١ - ٧٣٤ هـ) وهو ديوان فى مدح النبى ابتدأه بقصيدة تسمى « عدة المعاد فى عروض بانت سعاد » وظفرت قصيدة « بانت سعاد » باهتمام كبير فعارضها كثيرون وشطرها وخمسها من الشعراء من لا يحصيهم العد .

وكان الشعراء يسلكون فى المديح النبوى مسالك شتى : فمنهم من يبدأ بالوعظ والإرشاد . ومثال ذلك قول البوصيرى من مطلع إحدى قصائده النبوية .

إلى متى أنت باللـذات مشغـول　　وأنت عن كل مـا قـدمت مسئـول
فى كل يوم ترجى أن تثوب غدا　　وعقـد عزمـك بـالتسويف محلول
أمـا يرى لـك فيمـا سر من عمـل　　يـومـا نشـاط وعمـا سـاء تكسيـل

ثم انتقل من هذا الوعظ إلى التعريض بأهل الديانات الأخرى ، وخلص من هذا إلى مدح الأمة الإسلامية وانتهى من ذلك إلى مدح الرسول فقال :

والمصطفى خير خلـــق الله كلهم   لـه على الرسل ترجيـج وتفضيـل
محمــــد حجـــة الله التى ظهرت   بسنـة مـالهـا فى الخلق تحـويـل

☆ ☆ ☆

ولتقى الدين السبكى [1] قصيدة تائية مشهورة فى مدح الرسول بدأها بالتذكير والتحذير ومطلعها :

تيقـظ لنفس عن هــداهــا تـولت   وبادر ففى التـأخير أعظم وحشـة
فحتـام لا تلـوى لرشــد عنــانهــا   وقـد بلغت من غيهـا كـل بغيــة
تروح وتغـدو فى هـواها كـأنهــا   لغير معـاصى ربهــا مــا أريــدت

ومنها :

وقـائلــة لمــا رأت مــا أصــابنى   ومــا أنــا فيـــه من لهيب وزفرة
رويدك لا تقنط وإن كثر الخطا   ولا تيـأسن من نيل روح ورحمـة

ومنها :

فقلت لها جوزيت خيرا عن التى   منحت من البشرى وحسن النصيحــة
فهل من سبيـل للنجـاة من الردى   ومــا حيلتى فى أن تفرج كربتى
فقـالت فطب نفســا وقم متـوجهـا   لطيبـــة تسلم من بـــوار وخيبــة
فكم آيس من رحمة الله قد خطـا   إليهـا فحطت عنـه كـل خطيئــة

وهكذا انتقل إلى مدح الرسول . وهذا مذهب مقبول فى تناول المديح النبوى .

☆ ☆ ☆

---

(١) توفى سنة ٧٥٦ هـ .

وظهر فى ذلك الوقت مذهب آخر فى تناول هذا المديح . وهو ابتداء القصائد التى تنظم فى هذا الموضوع بالتشبيب بذكر الديار الحجازية ومعالمها وحب سكانها والشوق إليهم والبكاء ووصف النياق والسير والمناهل ووصف السحاب والبرق والريح التى تجىء من نحوهم والدعاء لهم بالسلامة ولديارهم بالعمران والسقيا وما أشبه ذلك ، ومثال هذا قول البوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

وقول الشهاب محمود :

رأى الركائب تحدى فانثنى كلفا ... صب بكى أسفا والبين قد أزفا
مغرى بحب الحمى تهفو جوانحه ... إن برقه لاح أو قمريه هتفا
يكاد يقضى عليه فرط لوعته ... إذا تذكر عهدا بالحمى سلفا
تريه بان النقا أوهامه فإذا ... أفاق لم ير إلا الوجد والأسفا
وينثنى دامى الأجفان ملتهبا ... بوجده دائم الأشجان ملتهفا
مؤرق الجفن لا يلوى على وطن ... وإن صفا العيش فى أفيائه وصفا
يبكى العقيق وإن شط المزار به ... بمثله ويرى فيه الوفاة وفا
ويسأل الوفد هل سالت أباطحه ... ماء ليضحى له بالسمع مرتشفا
حيا العقيق صبا ظلت تؤلف ... باختلافها ديما فى أفقه وطفا
حتى يرى كل قطر من أجارعه ... أنى سرى الطرف فيه روضة أنفا
ومن لعينى لو باتت بساحته ... تزجى مكان الغوادى الأدمع الذرفا
ويح المحب الذى أضحت حشاشته ... لأسهم البين من بين الورى هدفا
غدا يرى الركب قد زمت ركائبهم ... من دونه وغدا نضو الجوى أسفا
يبكى وينشد ربع الدار بعدهم ... لم يبق فيك لمشتاق إذا وقفا

وهكذا يمضى الشاعر فى البكاء وذكر الأماكن الحجازية التى يمر بها كل من أزمع السفر إلى زيارة قبر الرسول . ولا شك فى أن العاطفة الدينية التى أشعلتها الحروب الصليبية كانت دافعا قويا للشعراء على التغنى بذكر الديار الحجازية التى فيها ظهر الإسلام ونزل القرآن ومنها انتشر التوحيد وأشرق الإيمان وقد استحسن الناس هذا المذهب فى افتتاح المدائح النبوية .

☆ ☆ ☆

وهناك مذهب آخر فى هذا الباب يختلف عن المذهبين المتقدمين : وهو أن يبدأ الشاعر القصيدة بالرد على النصارى واليهود وتفنيد مزاعمهم ثم يتخلص من ذلك إلى المدح . ومثال ذلك قصيدة لامية للبوصيرى بدأها بقوله :

جـاء المسيح من الإلـه رسـولا	فـأبى أقـل العـالمين عقـولا
قـوم رأوا بشرا كريمـا فـادعـوا	من جهلهم لله فيـــه حلـــولا
وعصابـة مـا صـدقتـه وأكثرت	بـالإفـك والبهتـان فيـه القيـلا

وهكذا استمر الشاعر فى التعريض بمعتقدات النصارى واليهود والطعن فيها ، ثم تخلص من ذلك إلى الغرض الذى يرمى إليه وهو مدح الرسول . قال :

فـاعـدل إلى مـدح النبى محمـد	قـولا غـدا عن غيره معـدولا
فإذا حصلت على الهـدى بكتـابه	لا تبـغ بعــد لغيره تحصيـلا

☆ ☆ ☆

وكان من الشعراء من يقصد رأسا إلى المديح . وقد فعل البوصيرى ذلك فى الهمزية حيث يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء   يا سماء ما طاولتها سماء

وفى قصيدة أخرى مطلعها :

بمدح المصطفى تحيا القلوب   وتغتفر الخطايا والذنوب
وأرجو أن أعيش به سعيدا   وألقاه وليس على حوب
نبى كامل الأوصاف تمت   محاسنه فقيل له الحبيب

وفى قصيدة ثالثة مطلعها :

أمدائح لى فيك أم تسبيح   لولاك ما غفر الذنوب مديح

ولابن دقيق العيد قصيدة مطلعها :

شرف المصطفى رفيع عماده   ليس يحصى بكثرة تعداده

وللشهاب محمود قصيدة بدأها بقوله :

بمديح الرسول أرفع قدرى   وأرجى بنظمه حط وزرى

☆ ☆ ☆

وهناك مذهب رابع وهو التغزل بالنساء والغلمان وذكر الأعجاز والأرداف والعيون والشعر . ومثال ذلك قول العزازى وهو من شعراء القرن السابع :

دمى بأطلال ذات الخال مطلول وجيش صبرى مهزوم ومفلول
ومن يلاقى العيون الفاتكات بلا صبر يدافع عنه فهو مخذول
قتلت فى الحب حب الغانيات وما فارقت دينا وكم فى الحب مقتول
لم يدر من سلب العشاق أنفسها بأنه عن دم العشاق مسئول
وبى أغن غضيض الطرف معتدل القوام لدن مهز العطف مجدول
كأنه فى تثنيه وخطرته غصن من البان مطلول ومشمول
سلافة منه تسبينى وسالفه وعاسل منه يسبينى ومعسول
وكل ما تدعى أجفان مقلته يصح إلا نحولى فهو منحول
يا راقد العين عينى فيك ساهرة وفارغ القلب قلبى منك مشغول
كم ذا أعلل أجفانى بطيف كرى لو كان ينفع تسويف وتعليل
وكيف يطرق طيف أو يلم كرى بمقلة جفنها بالسهد مكحول
يا من يرق لصب لا صباح له كأنما ليله بالحشر موصول
تعارض الناس فى عشق ألم به والعشق ما زال فيه القال والقيل

وهكذا استمر الشاعر فى هذا الغزل الفاحش حتى تخلص منه إلى المدح ، وقد سلك هذا المسلك جمال الدين بن نباتة المصرى فى بعض قصائده ومثال ذلك قوله من قصيدة :

شجون نحوها العشاق فاءوا وصب ماله فى الصبر راء

ومنها :

بروحى جيرة رحلوا بقلب أحب وأحسنوا فيما أساءوا
بهم أيام عيشى والليالى هى الغلمان كانت والإماء
تولى من جمالهم ربيع فجاء بنوء أجفانى الشتاء

وهكذا حتى تخلص إلى المدح . وقد شاع هذا المذهب وانتشر ، واتبعه كثير من الفقهاء والمحدثين والمفسرين ومن عرفوا بالتقوى والورع . ولا إخالك إلا مستنكرا قول أبى حيان النحوى المفسر المشهور المتوفى بمصر سنة ٦٨٤ هـ وهو من قصيدة فى مدح الرسول :

لا تغذلاه فما ذو الحب معذول ... العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها ... فما انثنى العبء إلا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها ... فكم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر مرمرة والنشر عنبرة ... والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج ... والخصر مختطف والمتن مجدول
هيفاء ينبس فى الخصر الوشاح لها ... درماء تخرس فى الساق الخلاخيل

واستمر أبو حيان فى هذا الغزل الفاحش حتى تخلص منه إلى المدح . وقد بقى هذا المذهب إلى عصر قريب ، وكان عرضة لهجمات شديدة من أناس كثيرين . ولا شك فى أنه من إساءة الأدب أن نبدأ مدح الرسول بمثل هذا الغزل .

ولشيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلانى مدائح سار فيها على هذه الوتيرة فاساء إلى المقام النبوى كثيرا . فمن ذلك قوله فى مطلع إحدى قصائده .

مادمت فى سفن الهوى تجرى بى ... لا ناقص عقلى ولا تجريبى
برح الخفاء بحب من ولهى به ... أروى توقد مهجتى ولهيبى
يا عاذلى أو ما علمت بأننى ... لا أسمع المكروه فى المحبوب
طرفى تنزه فى الحبيب ومسمعى ... عن كل لوم فيه أو تأنيب
دع عنك ما تهذى به عندى فما ... كلفت إصلاحى ولا تهذيبى

أخطأت فى عذلى لأن مصيبتى | من سهم طرف للفـــؤاد مصيب
ما كان أعذب مدة مرت لنا | إنى لأستحلى بها تعذيبى
أيام لا روض الجمال ممنع | عنى وورد الخد كان نصيبى
أجنى عليه ومنه زهر تواصل | لا أختشى معه دنو مريب
عوضت عن قربى نوى وعن الرضا | سخطا وما عهد اللقا بقريب
يا من توقف عن زيارة حبه | من خوف واش أو حذار رقيب
ماذا عساهم أن يقولوا بعد ما | قد أبصروا شجنى وفرط نحيبى
ألا إشاعتهم بأنك قاتلى | صدقوا فأنت معذبى وحبيبى

وطفق ابن حجر يضرب على هذا الوتر حتى انتقل إلى المدح بقوله :

والله مالى من هواك تخلص | إلا بمدح المصطفى المحبوب

فأنت ترى أن شيخ الإسلام ابن حجر قد استحل لنفسه أن يذكر فى هذا المقام حبيبه ، وما كان يجرى بينهما من أمور منكرة فاعترف بأنه كان يقبله ويمتع نفسه بجماله وينعم بوصاله لا يخشى فى ذلك رقيبا .

أيام لا روض الجمال ممنع | عنى وورد الخد كان نصيبى
أجنى عليه ومنه زهر تواصل | لا أختشى معه دنو مريب

ولا شك فى أن قوله :

دع عنك ما تهذى به عندى فما | كلفت إصلاحى ولا تهذيبى

يحمل روح أبى نواس ذلك الشاعر الماجن .

☆ ☆ ☆

هذه كانت مذاهب الشعراء فى افتتاح قصائد المدح النبوى . أما المدائح نفسها فكانت تتناول معجزات الرسول وإسراءه ومعراجه ، وكفاحه وجهاده وما ظهر عند مولده وعند بعثته . ومثال ذلك قول الشهاب محمود من قصيدة :

حملتك آمنة الحصان فلم تجد	عبئا كعبء الحاملات ثقيلا
وولدت مختونا وذلك آية	لا تقبل التأويل والتعليلا
ورأت لك الأحبار والرهبان فى الـ	ـتوراة وصفا طابق الإنجيلا
واستبشروا بك إذا ظهرت وبشروا	إلا قليلا حرفوا ما قيلا
وكذاك بشرت الهواتف فى الربا	بك والكواهن أجملت تفصيلا
والجن ترمى بالكواكب بعد أن	كانت تطيق إلى السماء وصولا
وخمود بيت النار من آياتك الـ	ـلاتى ترد الطرف عنك كليلا
وكذا بحيرة ساوة غارت وقد	كانت جوانبها تفوت الميلا
والموبذان رأى مناما هاله	وسطيح شرف باسمك التأويلا
وكذلك الإيوان أعظم معجز	بهر العقول وحير المعقولا
لما هوت شرفاته وانشق مر	تجس البناء مشطرا مخذولا
واسترضعتك حليمة فرأت من الـ	ـبركات ما أغنى أخا وخليلا
وبيمن وجهك صد خالقك العدا	عن بيت كعبته ورد الفيلا
ولقد رأى الغلمان جبريل الذى	شق الفؤاد ورده مغسولا
ونشأت يستسقى بغرتك الحيا	وفضلت بالصدق الورى تفضيلا
ورأى بحيرا ركب مكة فوقهم	ظل الغمامة يشبه الإكليلا
وأضافهم ليرى الغمامة فوق من	نشأت ويسبر وصفه المنقولا
ورآك والأشجار حولك سجد	لك حيث ملت تفيأت تمييلا
فرآك وهى عليك عند رحالهم	فسعى إليك وأكثر التبجيلا

وجلاك أوصافا وشاهد خاتما ... لـك ثم فـاز بلثمـه تقبيـلا
وأسر للعم الشفيـق بـأن لابـ ... ـن أخيك شأنا فى الوجود جليلا
فاحذر عليـه من اليهود فإنهم ... إن يقـدروا يومـا عليـه اغتيـلا

وهكذا استمر الشاعر يعدد هذه الآيات ويتغنى بها . وكذلك كان يفعل كل الشعراء الذين مدحوا الرسول وقد اعتقد الناس أن هذه المدائح تقربهم من الله ، وتجلب لهم رضاه وتدخلهم الجنة وتؤهلهم لشفاعة الرسول يوم لا ينفع مال ولا بنون . فأقبل الشعراء فى كل قطر إسلامى على نظم القصائد الكثيرة فى هذا الغرض . وكان المسلمون وما زالوا حتى اليوم يطربون لسماع المدائح النبوية . لذلك أكثروا من التغنى بها فى حلقات الذكر وساحات الموالد . وظهرت فئة خاصة من الناس كانت تحفظ كثيراً من هذه المدائح وتطوف فى البلاد تغنى مما تحفظ وهى تضرب على العود والقيثارة وغيرهما مما يصلح فى هذا المقام ، وتجمع الصدقات فلا عيش لها إلا من هذا العمل ، ولا ربح لها إلا من التغنى بمدائح الرسول .

☆ ☆ ☆

إلى هذا انتهينا من المدائح النبوية . ونريد الآن أن نتحدث قليلا عن الغزل النبوى .

أخذ الشعراء فى ذلك العصر يتغزلون بذات الرسول ويذكرون حسنه وبهاءه وجماله وضياءه ، ويصفون سحر عيونه ورموشه وحمرة خدوده . ومن ذلك قول البوصيرى :

نبى كـامـل الأوصـاف تمت ... محـاسنـه فقيـل لـه الحبيب
وصفت شمائـلا منـه حسـانـا ... فمـا أدرى أمـدح أم نسيب

وقال الإمام الصرصرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

أوجهك أم ضوء الصباح تبلجا ... أم البدر فى برج السماء محا الدجى
أم الشمس يوم الصحو فى برج سعدها ... وفرعك أو ليل المحب إذا سجا
وبرق سرى أم نور ثغرك باسما ... ونشرك أم مسك ذكى تأرجا
أتتك جنود الحسن طوعا بأسرها ... فصرت مليكا فى الجمال متوجا
وأضحت أبيّات القلوب أسيرة ... لديك فلم يملكن عنك معرجا
فطوبى لعبد أنت سيده لقد ... سما بين أرباب البصائر والحجا

وقال الفيروزابادى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ من قصيدة سماها زاد الميعاد فى معارضة (بانت سعاد) .

كالبدر مكتمل للكل محتمل ... بالبرد مشتمل بالسعد مشمول
فى طرفه دعج فى خده ضرج ... فى ثغره فلج والريق معسول
وفى محياه عرنين يزينه ... اشم أقنى كحد السيف مصقول
وخده الورد ما لم يعله عرق ... فإن علاه فورد وهو مطلول
وصدره بيدى جبريل منطرح ... والقلب فى الطست مشقوق ومغسول

وكان المسلمون يقبلون على سماع هذا الغزل إقبالا عظيما . وقد انتشر وذاع فى أنحاء العالم الإسلامى ، ولا شك فى أن التغزل بالرسول من سوء الأدب ، وفى ذلك يقول صاحب المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية :

« ... وأقبح من التشبيب بالنساء والولدان فى ذلك ما يستحسنه بعض الجهال القاصرين من سماع الأشعار المشتملة على المعانى الغزلية فى وصف الذات الشريفة المحمدية مما يأباه كل ذى طبع سليم ولا

يستحليه إلا كل ذى ذوق سقيم . وقد أدخلوا بعض تلك الأشعار فى قصة المولد الشريف المنسوبة إلى بعض العلماء ، وصارت تقرأ فى مجالس العوام فلا تنكر ، وذلك من أقبح المنكر ، فليتجنب سماعه وليحذر . ومن ذا الذى يستحسن أن يتغزل به أو بأبيه أو برجل جليل من قومه أو ممن يعتقدهم ويجلهم من العلماء والأولياء وغيرهم من الأكابر والأجلاء كما يتغزل بالولدان والنساء ؟ . لا شك أن ذلك لا يستحسنه أحد من العقلاء » .

وما زال الناس يتغنون بهذا الغزل ويطربون لسماعه .

☆ ☆ ☆

وقد شاع فى هذا العصر مدح إبراهيم خليل الله . ومن أمثله ذلك قول ابن فضل الله العمرى :

هــذا خليــل الله إبراهيم قـــد	لا حت لنـا أعـلامـه الشم الـذرى
هــذاالـــذىسنالقرىلضيـوفــه	كرمــا ولـولاه لمـــا سن القرى
هـذاالـذىمـدالسمـاطفمـاانطـوى	ذاك السمـاط تكرمـا وسل الـورى

وقوله :

هــو ذا صــاحب السمـــاط ولكن	صـاحب الحـوض نجلــه وذووه
ذو فنــاء يقرى بـــه كــل ضيف	لم يخيب تحت الـدجى طـارقـوه
منعم سيـــــد جـــواد كريم	منــذ مـدوا سماطـه مـا طـووه

وقوله :

خليـل إلـه العرش أول من قـوى	ضيوفا وهـا قـد جئتـه واستضفتـه

أتيت كريمـا لا تـزال رحـابـه		مطبقـة بـالـوفـد حيث نظرتـه
دعت ناره الضيفان في غسق الـدجى		وليس سواهـا بـارقـا ثم شمتـه
فتى الجود شيخ الأنبياء جميعهم		ووالـدهم حقـا يقينـا علمتـه

وقوله :

هـذا الخليـل وهـذه أبنـاؤه		يكفيـك بعـد فراقـه أنبـاؤه
هيهـات لا تـوفى أقـل حقـوقـه		ولـو أن جفنـك لا يجف بكـاؤه
فامسـك فؤادك إن ملكت عنـانـه		هيهـات قـد طـارت بـه أهـواؤه
وتعـز عن أهـل الكثيب وإنمـا		من أين للصب الكئيب عـزاؤه

وقد كان الإقبال على ذكر مناقب القدس دافعا الناس إلى الكلام عن مناقب أبى العرب وجد النبى إبراهيم خليل الرحمن . وقد رويت فى شأنه أحاديث كثيرة لا شك فى أنها موضوعة .

٦

الغــزل

(أ)

تحدثنا فى غير هذا الموضع عن انتشار الشذوذ الجنسى فى عصر الحروب الصليبية . وبينا أسباب ذلك ، وأشرنا إلى أن الشعراء أقبلوا على التغزل بالمذكر إقبالا لم يسبق له مثيل وذلك لأن الشعر ما كان يروج ولا يقبل عليه الناس إلا إذا كان مشتملا على شىء فى هذا الغرض . وكان من الشعراء من يضطر إلى القول فى هذا الموضوع وهو مكره . قال ابن الوردى :

مــــــا المرد أكبر همى	ولا نهــــايـــــة علمى
ولست من قــــوم لــــوط	حــــاشــــا تقــــاى وحلمى
وإنمــــــا خرج دهرى	كــــــــذا فنفقت شعرى

وقد بلغ من استساغة القوم لهذا الغزل أنهم كانوا يبدءون به قصائد المديح . فإذا مدح الشاعر ملكا أو أميرا بدأ القصيدة بالغزل فى المذكر . ثم شرع بعض الشعراء يبدءون قصائد المديح النبوى بهذا النوع من الغزل .

وقد انبرى كثير من الكتاب لمحاربة هذه الظاهرة وانضم إليهم بعض الشعراء . وفي ذلك يقول ابن الوردى :

من قال بالمرد فاحذر أن تصاحبه ... فإن فعلت فثق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها ... بئس البضاعة والمشرى والشارى
يا قوم صار اللواط اليوم مشتهرا ... وشائعا ذائعا من غير إنكار
ذنب به هلكت من قبلنا أمم ... والعرش يهتز منه هز إكبار
جنات عدن عن اللوطى قد حرمت ... الله أكبر ما أعصاه للبارى
أستغفر الله من شعر تقدم لى ... فى المرد قصدى به ترويج أشعارى
لكن ذلك قول ليس يتبعه ... خنا وحاشاى من أفعال أشرار
« قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار »

(ب)

وكان بعض الشعراء الذى عرفوا بالخلاعة والمجون يذهبون إلى كنائس الإفرنج ويشاهدون نساء الصليبيين اللاتى كن سافرات على عادة بلادهن . فقالوا فى ذلك شعرا كثيرا . وممن اشتهر بذلك ابن القيسرانى . فمن قوله وكان قد حضر الصلاة فى كنيسة بربارة وهى كنسيسة للإفرنج خاصة :

بدينك يا قس بربارة ... وما بت تتلوه فى الحندس
أجرنى من الصور الناطقات ... وقد قمن حولك فى مدرس
إذا هن أقبلن وقت الصلا ... ة فى كل لون من الأطلس
وجالت مناطق أوساطها ... وضاقت بها حلل السندس

وأجلسهـــــا ثقــل أردافهـــــا فيــــالى عن ذلــــك المجلس
فلــــــولا التحرج فى ملتى طلعت عليهن فى برنس
وقمت ألخن قـــــــــداسهن غير بليـــــــــد ولا أخرس
ولم تـك فرسـانهـا فى الطعـان بـــأشجـــع منى ولا أفرس
ألا حبـذا مـا استشـار الهـوى بتلــك الكنــائس من كنس
ترى كـل فــاتنــة وجههــا معرى بشمس الضحى مكتس
فرنجيـــة ســاكن عقــدهــا وزنــــارهـــا قلــق المجلس
إذا قبلت صـــــــورة أقبلت عليهــا بنــاظرهــا الأشـوس
فيــاليتنى عنــدهــا دميــة ترانى ولا ريب فى ملمس
فــــأقسم لـــو أننى أستطيـــع تحـــولت صـــورة مرجرجس

☆ ☆ ☆

وقال وقد حضر الصلاة فى كنسية السيدة :

أصــاح متى عجت بــالسيـــده فسـل عن فـؤادى فى الأفئـــده
وقلبــك حــذره من أن يصــاد فــإن بهـــا للهـوى مصيـــده
وجــوه تبــاهى قنــاديلهــا ببهجــة نيرانهـــا المـوقـــدة
ترى كـــــل مستضعف خصره إذا مـــا دعــا طرفـه أنجـــده
وذات روادف عنــــد القيـــا م تحسبهـــا أنهـــا مقعـــده
وبــدر من الشعر فى غـــاسـق يضـــاحــك أبيضـــه أسـوده
فيــا لى من ذلــك الـزبرقــان إذا زرقن الليـــل أو جعـــده
وطيف خيـــال إذا مـــا رأيـ ـت أمرده قلت مـــــا أمرده
وسرح عيـون كحيـل الظبـــاء تغـــانـج غـــادتـــه أغيـــده

☆ ☆ ☆

وقال :

أمعظمـــــة الصليب وددت أنى ودين الله عنـــــــدكم صليب
إذا أقبلت قبلنى حبيب أسر بـــــه وعـــانقنى حبيب
وهـــل بينى وبين العــود فرق يرى إلا التفجـــــع والنحيب
هبينى صـورة نحيـــا عليهـــا أجيب إذا دعيت ولا تجيب

☆ ☆ ☆

وقال :

كم فى الكنـــائس من مبتلـــة مثـل المهــاة يـزينهـــا الخفر
من كـل سـاجـدة لصـورتهـا لـو ألصقت سجـدت لهـا الصـور
قـديســة فى حبـل عـاتقهـا طـول وفى زنـــارهـــا قصر
غرس الحيـــاء بصحن وجنتهـــا وردا سقى أغصـــانــه النظر
وتكلمت عنهـــا الجفـون فلـو حـاورتهـا لأجـابـك الحـور
وجلت مـدارعهـا غـدائرهـا فـــأراك ضعفى ليلــــة قمر

☆ ☆ ☆

(جـ)

ومن أنواع الغزل التى ظهرت فى ذلك العصر التغزل بنساء الجنة وغلمانها ، وحورها وقيانها . وقد اشترك فى ذلك الغزل المتصوفون والماجنون والزاهدون ، والفاتكون ، والصالحون والطالحون . وقد سبق أن ضربنا لذلك الأمثال عندما تكلمنا عن الحالة الاجتماعية . وقد أوردوا

فى هذا الغزل كل لفظ فاحش ومعنى قبيح . وهو غزل مثير للأعصاب مهيج للشهوات ، لذلك رأينا أن نكتفى بما مضى منه .

☆ ☆ ☆

(د)

وانتشر فى هذا العصر التغزل بالديار الحجازية وذكر رامة والعقيق وسلع وغيرها ، وقد سبق أن ذكرنا أنهم استحسنوا هذا الغزل فى افتتاح المدائح النبوية كما ظهر الغزل النبوى وقد تكلمنا عنه فى غير هذا الموضع .

هذه نظرة سريعة على فن الغزل إبان الحروب الصليبية .

٧

الطعن فى المسيحية واليهودية

وغيرهما من الملل والنحل

أقبل بعض الشعراء فى عصر الحروب الصليبية مدفوعين بالعاطفة الدينية على نظم الشعر فى الطعن فى سائر الأديان والمذاهب بوجه عام ، وفى المسيحية واليهودية بوجه خاص . وممن اشتهروا بذلك البوصيرى ، وله فى ذلك شعر كثير نذكر منه قوله :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى ... بالذى عاملتكم الحنفاء

صدقوا كتبكم وكذبتم كتـ ... ـبهم إن ذا لبئس البواء

لو جحدنا جحودكم لاستوينا ... أو للحق بالضلال استواء

مالكم أخوة الكتاب أناسا ... ليس يرعى للحق منكم إخاء

يحسد الأول الأخير وما زا ... ل كذاك المحدثون والقدماء

قد علمتم بظلم قابيل هابيـ ... ـل ومظلوم الإخوة الأتقياء

وسمعتم بكيد أبناء يعقو ... ب أخاهم وكلهم صلحاء

حين ألقوه فى غيابة جب ... ورموه بالإفك وهو براء

فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم ... فالتأسى للنفس فيه عزاء

أتراكم وفيتم حين خانوا ... أم تراكم أحسنتم إذ أساءوا

بل تمادت على التجاهل آبا ء تقفت آثارها الأبناء

بينته توراتهم والأناجيـ ـل وهم فى جحوده شركاء

إن تقولوا ما بينته فما زا لت بها عن عيونهم غشواء

أو تقولوا قد بينته فما للـ ـأذن عما تقوله صماء

عرفوه وأنكروه وظلما كتمته الشهادة الشهداء

أو نور الإله تطفئه الأفـ واه وهو الذى به يستضاء

أو لا ينكرون من طحنتهم برحاها عن أمره الهيجاء

وكساهم ثوب الصغار وقد طلـ ـلت دما منهم وصينت دماء

كيف يهدى الإله منهم قلوبا حشوها من حبيبه البغضاء

خبرونا أهل الكتابين من أيـ ن أتاكم تثليثكم والبداء

ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا حد نقص فى عدكم أم نماء

كيف وحدتم إلها فقى التو حيد عنه الآباء والأبناء

أإله مركب ما سمعنا بإله لذاته أجزاء

ألكل منهم نصيب من الملـ ـك فهلا تميز الأنصباء

أتراهم لحاجة واضطرار خلطوها وما بغى الخلطاء

أهو الراكب الحمار فيا عجـ ـز إله يمسه الإعياء

أم جميع على الحمار لقد جل (م) حمار بجمعهم مشاء

أم سواهم هو الإله فما نسـ ـبة عيسى إليه والإنتماء

أم أردتم بها الصفات فلم خصـ (م) ـت ثلاث بوصفه وثناء

أم هو ابن لله ما شاركته فى معانى النبوة الأنبياء

قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء

إن قولا أطلقتموه على اللـ ـه تعالى ذكرا لقول هراء

مثـل مـا قـالت اليهـود وكـل ... لـزمتـه مقـالـة شنعـاء
إذ هم استقرءوا البـداء وكم سـا ... ق وبـالا إليهم استقراء
وأراهم لم يجعلوا الـواحـد القهـ(م) ... ـار فى الخلـق فـاعـلا مـا يشـاء
جوزوا النسخ مثلمـا جوزوا المسـ ... ـخ عليهم لـو أنهم فقهـاء
هـو إلا أن يرفـع الحكم بـالحكـ ... ـم وخلـق فيـه وأمر سـواء
ولحكم من الـزمـان انتهـاء ... ولحكم من الـزمـان إبتـداء
فسلـوهم أكـان فى مسخهم نسـ ... ـخ لآيـات الله أم إنشـاء
وبـداء فى قـولهم نـدم الله ... على خلـق آدم أم خطـاء
أم محـا الله آيـة الليـل ذكرا ... بعـد سهـو ليـوجـد الإمسـاء
أم بـدا لـلإلـه فى ذبـح إسحـا ... ق وقـد كـان الأمر فيـه مضـاء
أو مـا حرم الإلـه نكـاح الـ ... أخت بعـد التحليـل فهـو الـزنـاء
لا تكـذب إن اليهـود وقـد زا ... غـوا عن الحـق معشر لـؤمـاء
جحـدوا المصطفى وآمن بـالطـا ... غـوت قـوم هم عنـدهم شرفـاء
قتلـوا الأنبيـاء واتخـذوا العجـ ... ـل ألا إنهم هم السفهـاء
وسفيـه مـا سـاءه المن والسلـ ... ـوى وأرضـاه الفـوم والقثـاء
ملئت بـالخبيث منهم بطـون ... فهى نـار طبـاقهـا الأمعـاء
لـو أريـدوا فى حـال سبت بخير ... كـان سبتـا لـديهم الأربعـاء

ناقش البوصيرى نظرية حلول اللاهوت فى الناسوت وهو ما يدعيه النصارى فى عيسى ابن مريم وقد سخر من هذا الرأى سخرية شديدة ، كما سخر من اتهام اليهود بقتله مع أنه الإله الذى أقام الأموات وأحياهم . ثم انتقل إلى الطعن فى اليهودية ، واليهود يتناولون موضوع الناسخ والمنسوخ فى القرآن ويتخذون منه مطعنا يوجهونه إلى الدين الإسلامى . فيقولون إن النسخ يوجب على الله البداء أى أن الله يرى رأيا

ثم يبدو له رأى آخر أفضل من الأول فينسخ حكما ليحل محله حكما آخر أصلح من الحكم الأول . وهذا طعن فى علم الله وقد رد علماء المسلمين على هذا الطعن ردا مفحما والبوصيرى هنا يسوق رأى العلماء فى هذا الموضوع .

وللبوصيرى قصيدة أخرى ناقش فيها النصارى واليهود وفند ما يدعونه من الآراء وما يدينون به من المعتقدات . قال بعد أن بدأ بمدح الرسول معارضا قصيدة « بانت سعاد » :

إن أنكرتـه النصـارى واليهود على	مـا بينت منــه تــوراة وإنجيـــل
فقـــد تكرر منهم فى جحـــودهم	للكفر كفر وللتجهيـــل تجهيـــل
قل للنصارى الألى ساءت مقالتهم	فمـا لهـا غير محض الجهل تعليل
من اليهـود استفـدتم ذا الجحـود كمـا	من الغراب استفـاد الـدفن قـابيـل
فـإن عنـدكم تــوراتهم صــدقت	ولم تصــدق لكم منهم أنـــاجيـــل
ظلمتمونـا فـأضحـوا ظـالمين لكم	وذاك مثـل قصـاص فيـه تعـديـل

يقول البوصيرى إنه إذا أنكر اليهود والنصارى نبوة محمد بعد ما بينته لهم التوراة والإنجيل فقد كفروا مرتين . المرة الأولى بقولهم فى عيسى غير الحق . والثانية إنكارهم لنبوة محمد . ويقول البوصيرى إن النصارى استفادوا هذا الحجود من اليهود كما استفاد قابيل من الغراب فى دفن هابيل .

☆ ☆ ☆

وممن اشتهروا فى هذا الصدد ابن قيم الجوزية . فمن قوله يرد على النصارى

أعبـاد المسيـح لنـا سـؤال | نريـد جـوابـه ممن وعـاه
إذا مـات الإلـه بصنـع قـوم | أمـاتـوه فمـا هـذا إلـه
وهـل أرضـاه مـا نـالـوه منـه | فبشراهم إذا نـالـوا رضـاه
وإن سخـط الـذى فعلـوه فيـه | فقـوتهم إذن أوهت قـواه
وهـل بقى الـوجـود بـلا إلـه | سميـع يستجيب لمن دعـاه
وهـل خلت الطبـاق السبع لمـا | ثـوى تحت التراب وقـد عـلاه
وهـل خلت العـوالم من إلـه | يـدبرهـا وقـد سمرت يـداه
وكيف تخلت الأمـلاك عنـه | بنصرهم وقـد سمعت بكـاه
وكيف أطاقت الخشبات حمل ال | إلـه الحـق شـد على قفـاه
وكيف دنـا الحـديـد إليـه حتى | يخـالطـه ويلحقـه اذاه
وكيف تمكنت أيـدى عـداه | وطـالت حيث قـد صفعوا قفـاه
وهـل عـاد المسيـح إلى حيـاة | أم المحيى لـه رب سـواه
ويـا عجبـا لقبر ضم ربـا | وأعجب منـه بطن قـد حـواه
أقـام هنـاك تسعـا من شهـور | لـدى الظلمـات من حيض غـذاه
وشـق الفرج مـولـودا صغيرا | ضعيفـا فـاتحـا للثـدى فـاه
ويـأكـل ثم يشرب ثم يـأتى | بـلازم ذاك هـل هـذا إلـه
تعـالى الله عن إفـك النصـارى | سيسـأل كلهم عمـا افتراه
أعبـاد الصليب لأى معنى | يعظم أو يقبـح من رمـاه
وهـل تقضى العقـول بغير كسر | وإحراق لـه ولمن نعـاه
إذا ركب الإلـه عليـه كرهـا | وقـد شـدت لتسمير قفـاه
فـذاك المركب الملعـون حقـا | فـدسـه لا تبسـه إذا تراه
يهـان عليـه رب الخلـق طرا | وتعبـده فـإنـك من عـداه
فـإن عظمتـه من أجـل أن قـد | حـوى رب العبـاد وقـد عـلاه
وقـد فقـد الصليب فـإن رأينـا | لـه شكـلا تـذكرنـا ثنـاه

فهــلا للقبــور سجــــدت طرا ... لضم القبر ربــــك فى حشـــاه
فيــا عبــد المسيح أفــق فهــذى ... بـــدايتــــه وهـــذا منتهـــاه

وابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية . وهذا الرأى الذى يخاطب به النصارى هنا وهو وجوب تقديسهم للقبور لأنها ضمت رفات ربهم كما يزعمون قد أورده ابن تيمية فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » وقد أشرنا إليه فى غير هذا الموضع .

☆ ☆ ☆

ولابن قيم الجوزية قصيدة طويلة تسمى « الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية » وهى تقع فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، خصص ما يقرب من ألف بيت فى إيراد عقائد الفرق المختلفة ثم شرع يرد عليهم . ومما جاء فيها قوله فى عقائد الجهمية .

جهم بن صفــوان وشعيتـــه الألى ... جحـدوا صفـات الخـالق الـديـان
بـل عطلـوا منــه السموات العلى ... والعرش أخلـــــوه من الرحمن
ونفـوا كـلام الرب جـل جـلالـه ... وقضـوا لـه بـالخلـق والحـدثـان
قـــالـوا وليس لربنـــا سمـع ولا ... بصر ولا وجـــه فكيف يــــدان
وكــذاك ليس لربنــا من قــدرة ... وإرادة أو رحمـــــة وحنـــــان
كـلا ولا وصف يقـوم بـه ســوى ... ذات مجردة بغير معــــــــــان
وحيــاتـــه هى نفســه وكــلامــه ... هـو غيره فــاعجب لـذا البهتـان
وخليلـه المحتــاج عنــدهم وفى ... ذا الوصف يدخل عابـدو الأوثـان
فـالكـل مفتقر إليـه لـذاتـه ... فى أمر قبضتــه ذليـل عـــان
ولأجل ذا ضحى بجعد خـالـد الـ ... ـقسرى يـوم ذبـائـح القربـان

إذ قــال إبراهيم ليس خليلــه ... كــلا ولا مـوسى الكليم الــدانى
شكر الضحيـة كـل صـاحب سنـة ... لله درك من أخىْ قربـــان

ومنها :

قــالـوا وإقرار العبــاد بــأنــه ... خــلاقهم هــو منتهى الإيمـــان
والنـاس فى الإيمـان شيء واحــد ... كـالمشـط عنـد تمـاثـل الأسنــان
فـأسـأل أبـا جهـل وشيعتــه ومن ... والاهم من عـــابــدى الأوثـــان
وسـل اليهـود وكــل أقلف مشرك ... عبــد المسيــح مقبــل الصلبـــان
وأسـأل ثمود وعـاد بل سـل قبلهم ... أعـــداء نــوح أمـــة الطــوفـــان
واسأل أبـا الجن اللعين أتعرف الـ ... ـخـــــلاق أم أصبحت ذا نكران
واســال شرار الخلـق أغلى أمـــة ... لــوطيــة هم نــاكحــو الــذكران
واسـأل كـذاك إمـام كـل معطـل ... فرعـون مـع قـارون مـع هـامــان
هل كـان فيهم منكر للخـالـق الر ... (م) ب العظيم مكــون الأكــوان
فليبشروا مـــا فيهم من كـــافر ... هم عنــد جهم كــاملـو الإيمــان

ومنها :

يـا أيهـا الرجـل المريـد نجـاتــه ... اسمــع مقــالــة نــاصــح معـوان
كن فى أمـورك كلهــا متمسكــا ... بـالـوحى لا بـزخـارف الهـذيــان
وانصر كتــــاب الله والسنن التى ... جـاءت عن المبعـوث بـالفرقــان
واضرب بسيف الوحى كل معطل ... ضرب المجـاهـد فـوق كـل بنان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فـإذا أصبت ففى رضـــا الرحمن
واجعـل كتـاب الله والبسنن التى ... ثبتت سـلاحـك ثم صـح بجنــان
من ذا يبـــارز فليقـــدم نفســـه ... أو من يسـابـق يبـد فى الميـدان
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ... من قلـــة الأنصـــــار والأعــوان
فــالله نـــاصر دينــه وكتـــابــه ... والله كـــاف عبــده بـــأمــــان

ثم عرض للفرق الأخرى فقال :

فأتى فريق ثم قال وجدته هذا الوجود بعينه وعيان
ما ثم موجود سواه وإنما غلط اللسان فقال موجودان
فهو السماء بعينها ونجومها وكذلك الأفلاك والقمران
وهو الغمام بعينه والثلج وال أمطار مع برد ومع حسبان
وهو الهواء بعينه والماء والترب الثقيل ونفس ذى النيران
هذى بسائطه ومنه تركبت هذى المظاهر ما هنا شيئان

ومنها :

فيكون كليا وجزئياته هذا الوجود فهذه قولان
إحداهما نص الفصوص [1] وبعده قول ابن سبعين [2] وما القولان

وهكذا استمر ابن قيم الجوزية فى سرد آراء كثير من الفرق كالاتحادية والحلولية . ثم شرع يرد عليهم . ومن ذلك قوله :

فاعطف على الجهمية المغل الألى خرقوا سياج العقل والقرآن
شرد بهم من خلفهم واكسرهم بل ناد فى ناديهم بأذان
أفسدتم المعقول والمنقول وال مسموع من لغة ومن إنسان
أيصح وصف الشيء بالمشتق لل مسلوب معناه لذى الأذهان
أيصح صبار ولا صبر له ويصح شكار بلا شكران
ويصح علام ولا علم له ويصح غفار بلا غفران

---

(١) الفصوص لابن عربى الطائى .

(٢) هو عبد الحق بن ابراهيم توفى سنة ٥٨١ هـ وهو أندلسى قدم المشرق وأقام بمصر وكان متهما بالزندقة . وقد خشى على نفسه من القتل فسافر إلى مكة واتصل بصاحبها وتولى علاجه من بعض الأمراض وأقام عنده حتى مات .

ويقـال هـذا سـامع أو مبصر ... والسمـع والأبصـار مفقـودان
هـذا محـال فى العقول وفى النقو ... ل وفى اللغـات وغير ذى إمكـان
فلئن زعمتم أنـه متكلم ... لكن بقـول قـام بـالإنسـان
أو غيره فيقـال هـذا بـاطـل ... وعليكم فى ذاك محـذوران
نفى اشتقـاق اللفـظ للموجود معـ ... ـنـاه بـه وثبـوتـه للثـانى
أعنى الـذى مـا قـام معنـاه بـه ... قلب الحقـائـق أقبـح البهتـان
ونظير ذا أخـوان هـذا مبصر ... وأخـوه ممـدود من العميـان
سميتم الأعمى بصيرا إذ أخـو ... ه مبصر وبعكسـه فى الثـانى
فلئن زعمتم أن هـذا ثـابت ... فى فعلـه كـالخلـق لـلأكـوان
والفعـل ليس بقـائم بـإلهنـا ... إذ لا يكـون محـل ذى حـدثـان
ويصح أن يشتق منـه خـالق ... فكـذلـك المتكلم الـوحـدانى
هـو فـاعـل لكـلامـه وكتـابـه ... ليس الكـلام لـه بـوصف معـان
ومخـالف المعقـول والمنقـول والـ ... ـفطرات والمسمـوع لـلإنسـان
من قـال إن كـلامـه سبحـانـه ... وصف قـديم أحرف ومعـان
والسين عنـد البـاء ليست بعـدهـا ... لكن همـا حرفـان مقترنـان

ومنها :

مـا إن لـه كـل ولا بعض ولا الـ ... ـعربى حقيقتـه ولا العبرانى
والأمر عين النهى واستفهـامـه ... هـو عين إخبـار بـلا فرقـان
وكـلامـه كحيـاتـه مـا ذاك مقـ ... ـدورا لـه بـل لازم الرحمن
هذا الذى قد خـالف المعقول والـ ... ـمنقـول والفطرات لـلإنسـان
أمـا الـذى قـد قـال إن كـلامـه ... ذو أحرف قـد رتبت ببيـان
وكـلامـه بمشيئـة وإرادة ... كـالفعـل منـه كلاهمـا سيـان
فهو الـذى قـد قـال قـولا يعلم الـ ... ـعقـلاء صحتـه بـلا نكران

فلأى شىء كان ما قد قلتم أولى وأقرب منه للبرهان
ولأى شىء دائما كفرتم أصحاب هذا القول بالعدوان
فدعوا الدعاوى وابحثوا معنى بتحـ ـقيق وإنصاف بلا عدوان
وارفوا مذاهبكم وسدوا خرقها إن كان ذاك الرفو فى الإمكان
فاحكم هداك الله بينهم فقد أدلوا إليك بحجة وبيان
لاتنصرن سوى الحديث وأهله هم عسكر الإيمان والقرآن
وتحيزن إليهم لا غيرهم لتكون منصورا لدى الرحمن

ومنها :

هذا وأصل بلية الإسلام من تأويل ذى التحريف والبطلان
وهو الذى قد فرق السبعين بل زادت ثلاثا قول ذى برهان

☆ ☆ ☆

وهكذا كان عصر الحروب الصليبية عصر رد على اليهود والنصارى وأهل الفرق الأخرى ولا سيما المعتزلة . وقد اشترك فى ذلك الشعراء بشعرهم كاشتراك الكتاب بنثرهم .

الفصل الثانى

شعراء الحروب الصليبية

ظهر فى عهد الحروب الصليبية شعراء كثيرون حملوا لواء الدعاية للقتال والكفاح ، وكان ملوك الدولة الأتابكية يشجعون هؤلاء الشعراء ويقربونهم ويجيزونهم . ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا فى عصر الدولة الأتابكية ابن منير الطرابلسى وابن القيسرانى .

ثم جاءت الدولة الصلاحية وكان صلاح الدين أكثر فهما للشعر من ملوك الدولة الأتابكية فالتف حوله الشعراء وأجزل لهم العطاء . ووفد عليه وهو فى مصر كثير ممن برعوا فى نظم الشعر . ومن هؤلاء سعادة الضرير الحمصى وقد قال عنه العماد الأصفهانى فى الخريدة :

« حضر إلى مصر فى أوائل حكم صلاح الدين وعاد بوفر وافر وغنى ظاهر ، وحصلت له زيادة على ألف دينار وهو محظوظ مرزوق من نظم الأشعار » .

وممن وفدوا عليه كذلك ابن رواحة الحموى وفيه يقول العماد :

« ... وأقام فى ظل الملك الناصر وإنعامه الوارف الوافر ، وفاز بالهبات الظافرة والإحسان المتواتر » .

ومن الشعراء الذين ظهروا فى عصر صلاح الدين ابن قسيم الحموى والشهاب فتيان الشاغورى ، والعماد الأصفهانى ، وابن الساعاتى ، وابن المجاور وابن سناء الملك ، وغير هؤلاء مما لا يتسع المجال لذكرهم . وكان أبناؤه يشجعون الشعراء ويصلونهم بالعطايا والهبات فانطلقت الألسنة بمدحهم ، والثناء عليهم والأشادة بجهودهم فى قتال الصليبيين ونصرة الإسلام والدفاع عن المسلمين .

وقد كثر فى عصر الحروب الصليبية مداح الرسول الذين نظموا القصائد الطوال فى مدحه والتغنى بمعجزاته وفضائله ومناقبه . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وقد رأيت أن أختم هذا الكتاب بفصل فيه تراجم موجزة لتسعة من الشعراء الذين ظهروا فى عصر الحروب الصليبية ، وأتيت لكل منهم بجملة قصائد .

١

ابن منير الطرابلسى

٤٧٣ - ٥٤٨ هـ

هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسى الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور .

كان أبوه ينشد الأشعار ويغنى فى أسواق طرابلس ، ونشأ أبو الحسين المذكور وحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة والأدب وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها .

قال ابن خلكان : « كان [١] - يعنى ابن منير الطرابلسى - رافضيا كثير الهجاء خبيث اللسان . ولما كثر منه ذلك سجنه بورى بن أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة ، ثم عزم على قطع لسانه ثم شفعوا فيه فنفاه » .

أقام ابن منير مدة فى حلب وكان يقيم فيها إذ ذاك الشاعر المشهور ابن القيسرانى فاشتبك الشاعران فى مهاجاة عنيفة استمرت مدة طويلة وكان سببها تنافسهما فى صناعة الشعر .

---

(١) الوفيات ١ / ٨٦ بولاق .

وكان ابن منير كثيرا ما يبكت ابن القيسرانى بأنه ما صحب أحدا إلا نكب فاتفق أن أتابك عماد الدين زنكى صاحب الشام غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها :

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل الـ ـواشى إليه حديثا كله زور

فاستحسنها زنكى ، وقال : لمن هذه ؟ فقيل لابن منير وهو بحلب . فكتب إلى والى حلب يسيره إليه سريعا فسيره ، فليلة وصل ابن منير قتل أتابك زنكى فرجع ابن منير إلى حلب فقال له ابن القيسرانى : « هذه بجميع ما كنت تبكتنى به » . ولابن القيسرانى فى ابن منير وكان قد هجاه :

ابن منير هجوت منى حبرا أفاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدرى فإن لى أسوة الصحابه

توفى ابن منير بحلب فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ ودفن فى جبل جوشن . قال ابن خلكان [١] :

« وزرت قبره ورأيت عليه مكتوبا » :

من زار قبرى فليكن موقنا أن الذى ألقاه يلقاه
فيرحم الله امرأ زارنى وقال لى : يرحمك الله

شعره :

ذكر ابن خلكان أن لابن منير ديوان شعر . ولكن هذا الديوان لم

---

(١) الوفيات ١ ، ٨٦ بولاق .

يصل إلينا ، وكل ما وصل إلينا من شعره قصائد معدودة فى مدح عماد الدين زنكى ونور الدين .

☆ ☆ ☆

(١)

فمن قوله فى نور الدين :

محمـــود المربى على أسـلافـــه	إن زاد فى حب الحسيب نجـــار
ملـــك إذا تليت مـــآثر قـــومـــه	كســـــد اللطيم وهجن النـــوار
مـلأ الفرنجـــة جـود سيفــك فيهم	فلهم على سيف المحيـــط جـوار
يومـا يزيرك جوف عرقـة معلمـا	جـوف لــه خلف الــدروب أوار
وتجر فى الأردن فضلـــة ذيلـــه	نقــع بـأكتـــاف الأثـــط مثـــار
إمـــا تبيـــح حريم أنطـــاكيـــة	أو يفجـأ الـداروم منـــك دمـــار
عفى جهـادك رسم كـل مخـوفـة	وصفت بصفـوة عـدلــك الأكـدار
ومحـا المظـالم منـك نظرة راحم	لله فى خطراتـــــــــــه أسرار
غضبـــان لـلإسـلام مـــال عمـــوده	فلنـــــوره ممـــــا عراه نـــوار
وجـذمت كل يـد تسور على يـد	فـأحلت ذاك السـور وهـو سـوار
لم يبـق مـا كس مسلم سلفـا ولا	ســـاع لمظلمـــــة ولا عشـــار
همدوا كما همـدت ثمود وقـادهم	بخســـــارة ممـــــا أتـــوه قـــدار
العـار فى الـدنيـا شقـوا بلبـاســه	ولبـاسهم يـوم الحســاب النــار
كم سيرة أحييتهـــا عمريـــــة	رفعت لهـا فى الخـافقين منـار
ونـوافـــل حيرتهن لـــوازمـــا	بـــأقلهـــا تستعبـــد الأحرار
تقفـو طريـق الصـالحين مسابقـا	لهم وتطلـــع خلفــــك الأبرار

نفس السيادة زهد مثلك فى الذى | فيـــه تفـــانت يعرب ونـــزار
ومتى ادعى مـا تـدعيـه محكم | أو هى معـاقـد دينـه دينـار
لله مـا ظفرت بـه منـك المنى | وتكنفت من ركنـك الأستـار
وسقى الغمـام ثرى أبيـك فـإنـه | أزكى ثرى قطرت عليـه قطـار
شهدت نضـارة عودك الغض الجنى | أن الـذى استخلصت منـه نضـار
أمـا نهـارك فهو ليـل مجـاهـد | والليـل من طـول القيـام نهـار
فلـذلـك النصر العـزيـز أدلـة | أنى اتجهت وللفتـوح أمـار

☆ ☆ ☆

(ب)

وقال يمدح عماد الدين زنكى ويهنئه بفتح الرها :

بعماد الدين أضحت عروة الد(م) | ين معصوبـا بهـا الفتـح المبين
واستـزادت بقسيم الـدولـة الـ | ـقسم من إدحـاض كيـد المـارقين
ملـك أسهر عينـا لم تـزل | همهـا تشريـد هم الراقـدين
لا خلت من كحـل النصر فقـد | فقـأت غيظـا عيون الحـاسـدين
كـل يـوم مر من أيـامـه | فهـو عيـد عـائـد للمسلمين
لـو جرى الإنصـاف فى أوصـافـه | كـان أولاهـا أمير المـؤمنين
مـا روى الراوون بـل مـا سطروا | مثل مـا خطت لـه أيـدى السنين
إذ أنـاخ الشرك فى أكنـافـه | بمئى ألف تـلاهـا بمئين
وقعـة طـاحت بقلب الروم من | قطعـة البين إلى قطـع الـوتين
إن حمت مصر فقـد قـام لهـا | واضـح البرهـان إن الصين صين
والرهـا لـو لم تكن إلا الرهـا | لكفت قطعـا لشـك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعهـا | ومضى لم يحـو منهـا قسـط طين

ولكم من ملـــك حــــاولهـــا	فتحلى الحين وسما فى الجبين
هى أخت النجم إلا أنهـــــا	منـــه كـــالنجم لرأى المبصرين
منيت منـــه بليث قــائـــد	بعران الـــذل آســـاد العرين
زارهـــا يـزأر فى أســـد وغى	تبـــدل الأســـد من الـزأر الأنين
صولجوا بالبيض من بضرب نثـ	ـر الهام فى ساحاتها نثر الكرين
يــا لهـــا همــــة ثغر أضحكت	من بنى القلف ثغـور الشـــامتين
برنست رأس برنس ذلـــــــة	بعـد مـا جاست حوايا جوسلين
وسروج مـــذ وعت أسراجـــه	فرقت جمـــاعهـــا عنهـــا عضين
تلـلك أقفـال رمــاهــا الله من	عزمــه المـاضى بخير الفـاتحين
شـام منـه الشـام برقـا ودقــه	مـؤمن الخـوف مخيف الآمنين
كم كنيس كنست قـــد رامهـــا	منـه بعـد الروح فى ظـل السفين
دنت الآجـــال من آجـــالهـــا	فـاختلتهـا القطـا بعـد القطين
ومنــــار يجتلى صلبـــانــــه	بين بيض تتبــــارى فى البرين
قرعتـــه البيض حتى بـــدلت	قرعـة النـاقـوس تثـويب الأذين
بــالتقسيميـات مقسـوم لهـــا الـ	ــدهر فى علـــك لجين أو لحين
ســل بهـــا حران كم حرى سقت	بردا من يـوم ردت مـــا ردين
سمطت أمس سميســـاط بهـــا	نظم جيش مبهـج للنـــاظرين
وغـدا يلقى على القـدس لهـا	كلكـل يـدرسهـا درس الـدرين
همـــة تمسى وتضحى عـزمـــة	ليس حصن أن تحطـــه بحصين
قـل لقـوم غرهم إمهـــالــــه	ستـــذوقـون شـذاه بعـد حين
إنـه المـوت الـذى يـدرك من	فر منـــه فسحـــا للغـــافلين
وهـو يحيى ممسكـا عروتــه	إنهـــا حبـل لمن تـــاب متين
من يطـع ينتـج ومن يمكر يكن	من غـــداة عبرة لــــلآخرين
بك يـا شمس المعـالى ردت الر	وح فى الميتين من دنيـــا ودين

أقسم الجـــد بـــأن تبقى لكى تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين
وتفيض العـــدل فى أقطـــارهـــا منسيـا مـؤلم عسف الجـائرين
لا تـــــزل دارك كيف انتقلت كعبـة محفـوظـة بـالطـائفين
كـل يـوم يتحلى جيـــدهـــا من نظيم المـدح بـالـدر الثمين
كلمـــا أخلص فيهـــا دعـــوة لـــك قـــالت ألسن الخلـق أمين

☆ ☆ ☆

(جـ)

وقال يمدح نور الدين وأنشدها إياه فى شهر رمضان :

فـــداك من صـــام ومن أفطرا ومن سعى سعيــــك أو قصرا
ومـا الـورى أهـلا فتفـدى بهم وهـل يـوازى عرض جـوهرا
عـدل تسـاوى تحت أكنـافـه مطـافـل العين وأسـد الشرى
وكم حمى للشرك لا يهتـدى الـ وهم لـه غـادرتـه مجـزرا
يـا ملـك العصر الـذى صـدره أفسـح من أقطـارهـا مصـدرا
وابن من[1] طـاول أفـلاكهـا فلم يجـد من فـوقـه مظهرا
منـاقب تكسر كسرى كمـا تقصر عن إدراكهـا قيصرا
مـا عـام فى أوصـافهـا شـاعر إلا رأى أوصـافهـا أشعرا
لله أصـل أنت فرع لـه مـا أطيب المجنى ومـا أطهرا
مـا حلب البيضـاء مـذ صنتهـا إلا حرام مثـل أم القرى
شيـدت فى معمـور أرجـائهـا لكـل بـاغى عمرة مشعرا

---

(١) الأصل : الذى .

فـأصبـح الشـادى إذا ثـوب الـد (م) اعى لـــه هلـــل أو كبرا
لا عـــدم الإسـلام من كفـــه كهفـــا لمن أرهـــق أو أحصرا
كـأنمـــا ســاحتـــه جنـــة أجرت بهـــا راحتـــه كـوثرا
تصرم الشهر الـــذى كنت فى أوقـــاتـــه من قـــدره أشهرا
جهـــاد ليــل فى نهـــار غــزا إذ كنت فيـــه الأصبر الأشكرا
أصـــدق مـــا يرشفـــه ســامـع مـــا هــز من أوصـافـك المنبرا
أبقـاك للـدنيـا وللـدين حتـ ـى خـلاك فى ليلهمـــا نيرا
حتى ترى عيسى من القـدس قـد لجـــا إلى سيفـــك مستنصرا

☆ ☆ ☆

(د)

وقال يمدح نور الدين حينما استولى على حصن أفامية من الإفرنج وبينه وبين حماه مائة مرحلة . وكان حصنا منيعا على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها ، وكان من به الإفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبونها ويوقعون بالمسلمين أضرارا بليغة :

أسنى الممالك ما أطلت منـارهـا وجعلت مرهفـة الشفـار دثـارهـا

ومنها :

آل الرعيـــة وهى تجهـل آلهـــا وتعـــاف نطفتهـــا وتكره دارهـــا
فـــأقر ضجعتهـــا وأنبت نبتهـــا وأسـاغ جرعتهـا وأثبت زارهـا [1]

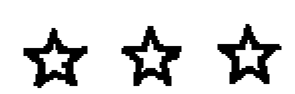
---

(١) كذا فى الأصل .

ملك أبوه سمالها فسما بها | وأجارها فعلت سهيلا جارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد | من بعد ما شمل البلى أصحارها
فى كل يوم من فتوحك سورة | للدين يحمل سفره أسفارها
همم تحجلت الملوك وراءها | بدم العثار وما اقتفت آثارها
أدركت ثأرك فى البغاة وكنت يا | مختار أمة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سمالها | منك المغيرة فاسترد معارها
زار الهزبر فقيدت عاناتها | عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ولربما | باتت تنافسها النجوم سرارها
ولكم قرعت بمقرباتك مثلها | تلعا وقلدت الكماة عذارها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها | عزا وحلاها سناك سوارها
خر الصليب وقد علت نغماتها | واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع أنطاكية | سلت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستذم مجيرها | من جوره وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها | إن زر أطواق القباء إزارها

ومنها :

نبوى تشبيه الفتوح كأنما | أنصاره رجعت له أنصارها
أحيا لصرح سلامها سلمانها | وأمات تحت عمارها عمارها
إن سار سار وقد تقدم جيشه | رجف يقصع فى اللهى دعارها



(هـ)

وقال من قصيدة أخرى :

لقـــد أوطـــأت دين الله عــزا   أديم الشعريين لـــــه رغـــــام
دعــاك وقــد تنــاوشت الرزايــا   لــه أهبــا يــوزعهــا العـــذام
جـــذبت بضبعـــه من قعر يم   لــه من فــوق مقسمــه التطـــام
وملت على معــــــاقلهم فخرت   ولاء مثــل مــا انتقض النظـــام
صببت على الصليب صليب بأس   قــواه تحت كلكلـــه حطـــام
ويــوم بــالعريمــة كــان حتفــا   على الإشراك أمقره العرام
وهـــاب وقــونس ويكفر لاثـــا   ذممت وأنت للجلى ذمـــــام
صـــــدمتهم بــــأرعن مرجحن   كـــأن مطـــار أنسره غمـــام

٢

ابن القيسرانى

٤٧٨ - ٥٤٨ هـ

هو أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير القيسرانى . ولد بعكا عام ٤٧٨ هـ ونشأ بقيسارية ثم غادرها على أثر استيلاء الصليبين على السواحل الشامية وقصد حلب فأقام بها « وسمع [1] بحلب من الخطيب أبى طاهر وهاشم بن أحمد الحلبى وغيره . وسمع منه الحافظان أبو القاسم ابن عساكر وأبو سعيد سفيان بن السمعانى وذكراه فى كتابيهما » .

وقد قرأ الأدب كما قال ابن خلكان « على توفيق بن محمد وأبى عبدالله بن الخياط الشاعر المقدم ذكره » .

فابن القيسرانى كما ترى قد تخرج فى الشعر على ابن الخياط الدمشقى غير أنه لم يلحق بأستاذه فى قوة الأسلوب وسلامته ومتانته بل أفسد شعره بالإفراط فى التجنيس والطباق وغيرهما مما شاع فى عصره . وقد وصفه العماد الأصفهانى فى الخريدة بقوله :

---

(١) ابن خلكان ١٩٢ / ٢

« ... صاحب التطبيق والتجنيس وناظم الدر النفيس ، ملك القبول من القلوب والرغبة من النفوس ، وأحب اللحاق بابن حيوس . سار شعره وسار إلينا ذكره ، وغلا فى سوق الأدب دره ، ونفقت فى متجر الرغائب غرائبه ، واتسعت فى مضمار القريض مذاهبه ، وجادت بالبلاغة السحبانية سحائبه . ذكره مجد العرب العامرى وأثنى عليه وعلى ابن منير » .

وقد وصفه ابن القلانسى [1] بقوله :

« وكان أديبا مترسلا فاضلا بليغ النظم مليح المعاني كثير التطبيق والتجنيس وله يد قوية فى علم النحوم والأحكام والهيئة وحفظ الأخبار والتواريخ » .

انتقاله إلى دمشق :

غادر ابن القيسرانى حلب إلى دمشق فوصل إليها فى شعبان سنة ٥٤٨هـ . وكان مجير الدين صاحب دمشق فى ذلك الوقت قد استدعاه ، فحضر ابن القيسرانى مجلسه وأنشده قصيدة حسنة المعانى والمقاصد فاستحسنها السامعون وشفعها بغيرها فوصله مجير الدين أحسن صلة .

وفاته بدمشق :

ولما انصرف ابن القيسرانى من مجلس نور الدين عرضت له حمى حادة صحبها إسهال مفرط فقضى نحبه فى ٢٢ شعبان من السنة المذكورة ودفن بمقبرة باب الفراديس .

---

(١) ص ٣٢٢ حوادث ٥٤٨ .

شعره :

لابن القيسرانى ديوان شعر صغير منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ومعظم ماجاء فى هذا الديوان غزل فى نساء الفرنجة . وقد أورد له العماد الأصفهانى فى الخريدة جملة قصائد وكذا صاحب الروضتين وصاحب كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وغيرهم ممن كتبوا عن هذا الشاعر .

وقد أفرط ابن القيسرانى فى استعمال المحسنات اللفظية وحصر همه فيها ولم يعبأ كثيرا بالمعانى .

وقد سبق أن ذكرنا فى ترجمة ابن منير تلك المهاجاة العنيفة التى دارت بينه وبين ابن القيسرانى والتى استمرت بينهما حتى مات كل منهما . وقد بذلت جهود كثيرة لإزالة أسباب الخصومة بين هذين الشاعرين ولكن لم يقدر لها النجاح . وقد أعادا إلى الذاكرة بمهاجاتهما هذه عصر جرير والفرزدق . ومن الغريب أنهما ماتا فى عام واحد .

(١)

قال يمدح نور الدين ويهنئه بأسر جوسلين :

دعى مـــــا ادعى من غره الأمر والنهى ... فما الملـك إلا مـا حبـاك بـه الأمر
ومن ثنت الـدنيـا إليــه عنــانهـا ... تصرف فيما شـاء عن إذنـه الـدهر
ومن راهن الأقـدار فى صهوة العلى ... فلن تدرك الشعرى مـداه ولا الشعر

ومنها :

أتى رأسه ركضا وغودر شلوه   وليس سوى عافى النسور له قبر
وقد كان فى استبقائه لك منة   هى الفتك لولم تغضب البيض والسمر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره   وأسعد قرن من حواه لك الأسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه   فأوبقه الكفران عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونه   ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة   تشق على النسرين لو أنها الوكر
فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة   فبالأفق الداجى إلى ذا السنا فقر
كأنى بهذا العزم لا فل حده   وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا   وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها   فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبى صوارم   مساجدها شفع وساجدها وتر

☆ ☆ ☆

(ب)

وقال من قصيدة أخرى :

حمى قبة الإسلام بالخيل فاغتدت   وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها   فما انقشعت إلا وللذل جنبه
كيوم الرها الورهاء والهام يانع   ملى برعى الهنداونى خصبه
وشهباء هاجتها وغى صرخدية   ثناها وليل الحرب ينقض شهبه
وعارم يوما بالعريمة فاغتدت   كوادى ثمود إذ رغا فيه سقبه
وعاصى على العاصى بأرعن خاطب   دم الإفك حتى أنكح النصل خطبه

بـآنب لمـا أكسب المـال وانثنى بصـاحب أنطـاكيـة وهـو كسبـه
غداة هـوى شطرين للسيف رأسـه وللرمـح حتى تـوج الرأس قلبـه
على حين للخطى فيـه عـوامـل يعـاقبـه خفض الحسـام ونصبـه
وقـائع محمـوديـة النصر لم تـزل غريبا بهـا عن موطن السيف غربـه
يقـوم مقـام الجيش فيهـا وعيـده وتفعـل أفعـال الكتـائب كتبـه

☆ ☆ ☆

(جـ)

وقال يمدحه أيضا :

تـدارك ملـة العربى ذبـا إلى أن عـده منـه معـد
وحـل ذرى العـواصم وهى نهبى فـأجلى الشرك حتى ليس ضـد
ثنى يـده عن الـدنيـا عفـافـا ومـال بهـا عن الأمـوال زهـد
رأى حـط المكـوس عن الرعـايـا فـأهـدر قبـل مـاأنشـاه بعـد
ومـد لهـا رواق العـدل شرعـا وقـد طـوى الرواق ومن يمـد
وبـات وعنـد بـاب العرش منهـا لـدولتـه دعـاء لا يرد

☆ ☆ ☆

(د)

وقال فيه أيضا :

لله عـزمـك أى سيف وغى طبعت مضـاربـه على القهر
مـا زفت الحرب العـوان بـه إلا انجلت عن معقـل بكر

هل وجه نور الدين غير سنى صدع الدجى عن خجلة البدر
ملك مهابته طليعته أبدا أمام جيوشه تسرى
كم فل كيدهم بصاعقة شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم فالقوم قبل الأسر فى أسر
عصم العواصم فهى ضاحكة تجلو الظبى ثغرا على الثغر
فإذا سرايا خيله قفلت نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندلها حتى استكان الصخر بالصخر
يا سائلى عن نهج سيرته هل غير مفرق هامة الفجر

☆ ☆ ☆

(هـ)

وقال يمدحه أيضا :.

ضحكت تباشير الصباح كأنها قسمات نور الدين خير الناس
المشترى العقبى بأنفس قيمة والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الحق يحرس نفسه إن الدعاء يعد فى الحراس
راض الخطوب الصم بعد جماحها وألان من قلب الزمان القاسى
وأعاد نور الحق فى مشكاته وأقام وزن العدل بالقسطاس
واختار مجد الدين سائس ملكه فحمى السياسة منه طود راسى
فهو الخبير بكل داء معضل يأسو جراح زماننا ويواسى
وأذل سلطان النفاق بعزة خضعت لها الآساد فى الأحباس
وعرته أقران الخطوب فصدها ألوى يمارسها أشد مراس
ولو أن فيض النيل فائض نيله لم تفتقر مصر إلى مقياس

سكنت شغب الدعر بعد تخمط وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه وأذنت للأطماع بعد اليأس
حتى منحت الخلق كل مسرة فالناس فى عرس من الأعراس

☆ ☆ ☆

(و)

وقال :

سام الشآم ويا لها من صفقة لولاه ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهى غير عواصم
تلك التى جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم
وإذا سعادتك اجتبت فى دولة قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة فالدرع من عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع فى محلك طامع طال البناء على يمين الهادم
كلفت همتك السمو فحلقت فكأنما هى دعوة فى ظالم
وأظن أن الناس لما لم يروا عدلا كعدلك أرجفوا بالقائم

(ل)

وله من قصيدة أخرى :

بل غرت للإسلام حتى لقد دان له من بالطواغيت دان
رعت نواميس نواقيسها بحلبة الآذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد   تبنى المحاريب خلال المجان
هذا وكم أنشأت من منبر   فارسه فارس سحر البيان
من نال بالإخلاص ما نلته   كان من الله مكين المكان
يا شائما بالشام صوب الحيا   ودانيا من كل قاص ودان
هذه سجوف الملك مرفوعة   عن ملك أخباره كالعيان
أوضح سبل العدل مفتتنة   فللبرايا بالدعاء افتتان

☆ ☆ ☆

(ع)

وقال يمدح عماد الدين زنكى :

حذار منا وأنى ينفع الحذر   وهى الصوارم لاتبقى ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك   من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها   صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم   فى مأزق من سناه يبرق البصر
ولو تضيق لهم ذرعا مسالكهم   والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفى المسافة من دون النجاة لهم   طول وإن كان فى أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا   يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة   فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا   أوطاردوا طردوا أو حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم   حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم   ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيى العدل لامعة   كالصبح تطوى من الأعداء ما نشروا

ولا انثنى النصر من أنصار دولته بحيث كان وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حل فى أكنافهم عمر

☆ ☆ ☆

(س)

وقال يهنىء كمال الدين الشهرزورى بفتح الرها :

إن الصفائح يوم صافحت الرها عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشرا بتمامه كالفجر فى صدر النهار الآيب
لله أية وقعة بدرية نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة بكتائب محشوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تم ريح الصبا جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدا إلى أرض الفرنجة بعدها إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغركم والنار رهن دمائكم ما كان من إطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه دون الفريسة فهو عين الواثب

☆ ☆ ☆

(ك)

وقال يمدح جمال الدين وزير الموصل ويذكر فتح الرها :

أمـــا آن أن يــزهــق البــاطــل ... وأن ينجــز العــدة المـــاطــل
إلى كم يغب ملــوك الضـــلال ... سيف بــأعنـــاقهـــا كــافـل
فــلا تحفلن بصــوت الـــذئـــا ... ب وقـــد زار الأســـد البــاســل
وهــل يمنــع الـــدين إلا فتى ... يصــول انتقــامــا فيستــأصــل
أبــــا جعفر أشرقت دولـــــة ... أضــاء لهــا بــدرك الكــامــل
فـــإمـــا نصبت لرفــع اسمهـــا ... فــإنكمـــا الفعــل والفــاعــل
ليهنــك مـــا أفرج النصر عنـ ... ـه ومــا نــالــه الملــك العــادل
فقــل للحـــاق الطريــق الطريـ ... ـق فقـــد دلف المقرم البـــازل
وجــاهـــد فى الله حــق الجهــا ... د محتسب بـــالعلى قـــافـل
وهــل يمنــع الســور من طــالــع ... يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فــإن يــك فتــح الرهــا لجــة ... فســاحلهــا القــدس والســاحـل
فهــل علمت علم تلــك الــديــا ... ر أن المقيم بهـــــا راحــــل
أرى القمص يــأمــل فــوت الرمــا ... ح ولابـــد أن يضرب الشـــائـل
يقــوى معـــاقلـــه جـــاهـــدا ... وهــل عــاقــل بعــدهــا عــاقـل
وكيف بضبـــط بــواقى الجهـــا ... ت لمن فــات حسبتــه الحــاصل

٣

طلائع بن رزيك

٤٩٥ ـ ٥٥٦ هـ

طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح أبى الغارات ولد بالعراق وهو من الشيعة الإمامية .

قدم مصر فقيرا ، والتحق بخدمة الحكومة وما زال يرقى حتى عين حاكما للصعيد الأوسط وكان مقره منية ابن الخصيب ، ولما وقعت الفتنة التى قتل فيها الخليفة الظافر اتصلت أسرة الخليفة المقتول بابن رزيك وطلبت منه العون على قاتلى الخليفة ، فسار ابن رزيك بجيش إلى القاهرة وكان صديقا حميما لأسامة بن منقذ فكتب إليه يقول :

« عباس [١] ما يقدر على المقام بمصر بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد . وأنت تعرف ما بينى وبينك فلا تخرج معه ، فهو بحاجته إليك فى الشام يرغبك ويخرجك معه . فالله الله لا تصحبه ، فأنت شريكى فى كل خير أناله » .

ولكن أسامة اضطر إلى الخروج مع عباس .

---

(١) هو ركن الدين عباس بن أبي الفتوح الذى قتل الخليفة الظافر فسخط عليه الجند وثاروا فى وجهه فاضطر إلى الهرب إلى الشام فلقيه الفرنج جنوب فلسطين وقتلوه .

دخل ابن رزيك مدينة القاهرة عام ٥٤٩ هـ فولاه الخليفة الفائز بنصر الله الوزارة واستقل بأمور الدولة ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين .

ومات الفائز سنة ٥٥٥ هـ فولى العاضد منصب الخلافة وتزوج بنت طلائع الذى استمر فى الوزارة حتى دس له العاضد من قتله تخلصا من تحكمه .

وقد كان شجاعا حازما مدبرا جوادا صادق العزيمة عارفا بالأدب ، شاعرا مجودا . وقد مدحه كثير من الشعراء ونالوا جوائزه . وفيه يقول العماد الأصفهانى :

الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر فى زمان الفائز وأول زمان العاضد ملك مصر ، واستولى على أمر صاحب القصر ونفق فى زمانه النظم والنثر ، وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ورحل إليه ذوو الرجاء وأفاض على الدانى والقاصى العطاء ، وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصرة الإسلام . وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام معانى حكمته وأقسام معانى بلاغته فيقال إن المهذب بن الزبير كان ينظم له والجليس بن الحباب كان يعينه . وله ديوان كبير وإحسان كثير . ولما جلس فى دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

انظر إلى ذى الـــــدار كم	قـد حـل سـاحتهـا وزير
ولكم تبختر آمنـــــــــــا	وسـط الصفـوف بهـا أمير
ذهبـــوا فـــلا والله مـــــا	يبقى الصغير ولا الكبير
ولمثـل مـــا صـــاروا إليـ	ـه من الفنـاء غـدا نصير

كان طلائع مهتما بقتال الصليبيين فأوفد إلى فلسطين حملة برية وأخرى بحرية واستطاع المصريون أن يوقعوا بالإفرنج هزيمة شنيعة . وقد تغنى طلائع بهذا النصر فى شعر كثير. وكان يبعث إلى أسامة بقصائد يذكر فيها هذا النصر العظيم ، ويلح عليه فى تحريض نور الدين على مواصلة قتال الصليبيين وعدم مهادنتهم . وقد مدحه عمارة اليمنى بقوله :

تيقنت الإفرنـج أنـك إن ترد ديـارهم لم ينجهم منـك مهرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعما فجاءتـك بـالأسـد الشرى تتغلب
وأهـدوا رجـال السلم آلـة حربهم ومن بعض ما أهـدوا مجن ومقضب
وذلـك فـأل صـادق أن عـزهم بسيفك يا سيف الهـدى سوف يسلب
لـك الرأى لم تفلل ظباه ولم يفـل إذا ظلت الآراء تطفـو وترسب
وما شئت فاصنع راشدا فى سؤالهم فرأيـك من رأى البريـة أصـوب

(أ)

وقد كتب إلى أسامة بن منقذ يقول :

قـل لابن منقـذ الـذى قد حاز فى الفضل الكمالا
فلـذاك قـد أضحى الأنـا م على مكـارمـه عيـالا
كم قـد بعثنـا نحـوك الـ أشعـار مسرعـة عجـالا
وصـددت عنهـا حين را مت من محاسنك الوصـالا
هـلا بـذلت لنـا مقـا لا حين لم تبـذل فعـالا
مـع أننـا نـوليـك صبـ را فى المـودة واحتمـالا

ونبئـــك الأخبـــار إن | أضحت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــانـــا لقصـ | ـــد الشام تعتسف الرمـــالا
تـــزجى إلى الأعـــداء جر | د الخيـل أتبـاعـا تـوالى
تمضى خفـــافـــا للمغـــا | ر بهـا وتـأتينـا ثقـالا
حتى لقـــد رام الأعـــا | دى من ديـارهم ارتحـالا
وعلى الـــــوعيرة معشر | لم يعهـدوا فيهـا القتـالا
لم نـــأت عمن قـــد يحف | بهـــا يمينـــا أو شمالا
نهضت إليهـــا خيلنـــا | من مصر تحتمـل الرجـالا
والبيض لامعـــــة وبيـ | ـض الهنـد والأسـل النهـالا
فغـدت كـأن لم يعهـدوا | فى أرضهـا حيـا حـلالا
هـــذا وفى تـل العجـا | ل مـلأن بـالقتلى التـلالا
إذ مر مرى ليس يلـ | ـوى نحـو رفقتـه اشتغـالا
واستـاق عسكرنـا لـــه | أهـــلا يحبهم ومـــالا
وسرية ابن فريج الطـائى | طـــال بهـــا وصـــالا
ســـارت إلى أرض الخليـ | ـل فلم تـدع فيهـا خـلالا
فلـو أن نـور الـدين يجـ | ـعـل فعلنـا فيهم مثـالا
ويسير الأجنـــاد جهـ | ـراكى ينـازلهم نـزالا
ووفى لنـــا ولأهـــل دو | لته بما قـد كـان قـالا
لرأيت لـــلإفرنـــج طر | ا فى معـاقلهـا اعتقـالا
وتجهـــــزوا للسير نحـ | ـو الغرب أو قصدوا الشمالا
وإذا أبى إلا اطرا | حـا للنصيحـة واعتـزالا
عـــدنـــا بتسليم الأمـــو | ر لحكم خـالقنـا تعـالى

☆ ☆ ☆

(ب)

وكتب إليه أيضا :

يـــا سيـــدا يسمـو بهمـ	ـمتـه إلى الرتب العليـــه
فينـــال منهـــا حين يحـ	ـرم غيره أو فى مـزيـــه
أنت الصـديـق وإن بعـد	ت وصاحب الشيم الرضيه
يهنيـــك أن جيـوشنـــا	فعلت فعـال الجـاهليـه
ســارت إلى الأعــداء من	أبطـالهـا مـائتـا سريـه
فتغير هــــــذى بكرة	وتعـاود الأخرى عشيـــه
فــالـويـل منهـــا للفرنـ	ـج فقـد لقـوا جهـد البليـه
جـــاءت رءوسهم تلـــو	ح على رءوس السمريـــه
وقــلائـــع قـــد قسمت	بين الجنـود على السـويـه
وخــلائــق كثرت من الـ	أسرى تقـاد إلى المنيـــه
فــانهض فقــد أنبئت مجـ	ـد الـدين بـالحـال الجليـه
ألمم بنـــور الــــدين أعـ	ـلمـه بهـاتيـك القضيـــه
فهــو الــذى مـا زال يخلـ	ـص منـــه أفعـــالا ونيـــه
ويبيـد جمـع الكفر بـالـ	ـبيض الرقـاق المشرفيـه
فعســـاه ينهض نهضـــة	يفنى بهـا تلـك البقيـه
إمـــا لنصرة دينــــه	أو ملكـــه أو للحميـــه

☆ ☆ ☆

(جـ)

وكتب إليه أيضا يقول :

أيهـا المفتــدى لأنت على البعـ ـد صديق لنـا ونعم الصـديق
ليس فيمـا تـأتيـه من بر أفعـا لـك للطــالب الحقـوق عقـوق
فلهــذا نرى مـواصلــة الكتـ ـب تبـاعـا إليـك ممـا يليـق
ونـاجيـك بـالمهمـات إذ أنـ ـت بـإلقـائهـا إليـك خليـق
وأهم المهم أمر جهـــاد الـ ـكفر فـاسمع فعنـدنـا التحقيـق
واصلتهم منـا السرايـا فـاشجـا هم بكـور منـا لهم وطروق
وأبـاحت ديـارهم فـأبـاد الـ ـقـوم قتـل مـلازم وحريـق
وانتظرنـا بزحفنـا برء نـور الـد ين علمـا منـا بـأنـه سيفيـق
وهـو الآن فى أمـان من اللـ ـه ومـا يعتريـه أمر يعـوق
ما لهـذا المهم مثلـك مجـد الـديـ ـن فـانهض بـه فـأنت حقيـق
كـل لـه لاعـداه رأى ولازا ل لـديـه لكـل خير طريـق
أنت فى حسم داء طاغيـة الكفـار ذاك المرجـو والمرمـوق
فـاغتنم بـالجهـاد أجرك كى تلـ ـفى رفيقـا لـه ونعم الرفيـق

☆ ☆ ☆

(د)

وكتب إليه أيضا :

أيهـا السـائر المجـد إلى الشـا م تبـارى ركـابـه والخيـول
خـذ على بلـدة بهـا دار مجـد الـد ين لا ريـع ربعهـا المـأهـول
وتعرف أخبـاره وأقره منـ (م)ـا سلامـا فيـه العتـاب يجـول

قل لـه أنت نعم ذخر الصـديق الـ   ـيـوم لكنـك الصـديـق الملـول
مـا ظننـا بـأن حـالـك فى القر   ب ولا البعـد بـالمـلال تحـول
لا كتـاب ولا جـواب ولاقـو   ل بـه لليقين منـا حصـول
غير أنـا نـواصـل الكتب إذ قصـ   ـر منـك البر الكريم الـوصـول
ذاكرين الفتـح الـذى فتـح اللـ   ـه علينـا فـالفضـل منـه جميـل
جاءنـا بعـد مـاذ كرنـاه فى كتـ   ـب أتـاكم بهن منـا رسـول
أن بعض الأسطـول نـال من   الإفرنـج مـالا ينـالـه التـأميـل
سـار فى قلـة ومـا زال بـاللـ   ـه وصـدق النيـات ينمى القليـل
وبقـايـا الأسطـول ليس لـه بعـ   ـد إلى جـانب الشـآم وصـول
جمـع ديـويـة بهم كـانت الإفـ   ـرنـج تسطـو على الـورى وتصـول
قيـند فى وسطهم مقـدمهم يهـ   ـدى إلينـا وجيـده مغلـول
بعـد مثـوى جمـاعـة هلكـوا   بـالسيف منهـا الغريـق والمفلـول
هـذه نعمـة الإلـه وتعـديـ   ـد أيـادى الإلـه شىء يطـول
بلغـوا قـولنـا إلى الملـك العـا   دل فهـو المرجـو والمـأمـول
قل له كم تماطل الدين فى الكفار   فـاحـذر أن يغضب الممطـول
سر إلى القـدس واحتسب ذاك فى   الله فبـالسير منـك يشفى الغليـل
وإذا مـا أبطـأ السير فـالله   إذا حسبنـا ونعم الـوكيـل

☆ ☆ ☆

(هـ)

وكتب إليه أيضا :

هى البـدر لكن الثريـا لهـا قرط   ومن أنجم الجوزاء فى نحرها سمط

ذخرنـا سطـاهـا للفرنـج لأنهـا	بهم دون أهـل الأرض أجـدر أن تسطـو
وقد كـاتبوا فى الصلح لكن جوابهم	بحضرتنا ما تكتب الخط إلا الخـط
سطـور خيـول لا تغب ديـارهم	لها بالمواضى والقنا الشكل والنقـط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما	أثيثا فـأسنـان الرمـاح لها مشـط
رددنـا بـه ابن الفنش عنـا وانمـا	يثبته فى سرجـه الشـد والربـط

ولم يصل إلينا من شعر ابن رزيك سوى قصائد قليلة رواها العماد الأصفهانى وصاحب الروضتين وغيرهما ممن كتبوا عن هذا الشاعر.

٤

أسامة الشاعر

٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ

سبق أن ترجمنا لأسامة الكاتب . والآن نريد أن نعرف القارىء بأسامة الشاعر . وقبل أن نعرض لشاعرية الرجل يحسن بنا أن نقف على آراء معاصريه فى شعره .

وصف الذهبى أسامة فى كتابه تاريخ الإسلام بقوله :

« ... أحد أبطال الإسلام ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال ياقوت فى معجم الأدباء : « وفى بنى منقذ جماعة أمراء شعراء لكن أسامة أشعرهم وأشهرهم ... » وقال العماد الأصفهانى : « وأسامة كاسمه فى قوة نثره ونظمه » وقال فى موضع آخر : « ... وكنت قد طالعت مذيل السمعانى ووجدته قد وصفه وقرظه ، وأنشدنى العامرى له بأصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت أتمنى أبدا لقياه وأشيم على البعد حياه حتى لقيته فى صفر سنة ٧١ (يعنى ٥٧١) بدمشق » .

وقال الحافظ بن[١] عساكر : « ... اجتمعت به بدمشق وأنشدنى

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ / ٤٠١ .

قصائد من شعره سنة ٥٥٨ هـ . وقال لى أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحى : إن الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر مالك عنان النظم والنثر ، متصرف فى معانيه لا حق بطبقة أبيه . ليس يستقصى وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسان ، فقصائده الطوال لا يفرق بينهما وبين شعر ابن الوليد ، ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد . وهى على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه العالى فى شىء من فضولها . وأما المقطعات فأحلى من الشهد وألذ من النوم بعد طول السهد فى كل معنى غريب وشرح عجيب .

ديوانه :

ترك أسامة ديوان شعر منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . ولكن الظاهر أن هذه النسخة لم تحو كل شعر الرجل . وقد روى صاحب الروضتين جملة قصائد من شعره .

أمثلة من شعره :

(أ)

كان طلائع بن رزيك كتب إلى أسامة قصيدة أولها :

أبى الله إلا أن يكون لنا الدهر ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر

يذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الفرنج وتسييره الجيوش وأسماء مقدميها فوقف عليها الملك نور الدين فأمر الأمير مجد الدين (أسامة) بالإجابة عنها بمعان وقعت الإشارة إليها ، فقال هذه القصيدة وذكر فيها بعض الفتوحات :

أبى الله إلا أن يكـون لنـــا النصر لتحيا بنا الـدنيـا ويفتخر العصر
وتخـدمنـا الأيـام فيمـا نرومـه وينقاد طوعا فى أزمتنا الـدهر
وتخضـع أعنـاق الملـوك لعـزنـا ويرهبها منا على بعدنـا الـذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حـادث وفى سائر الآفاق من بأسنـا ذعر
بطـاعتنـا لله أصبح طـوعنـا ال أنـام فمـا يعصى لنـا فيهم أمر
فأيمـاننـا فى السلم سحب مواهب وفى الحرب سحب وبلهن دم همر
قضت فى بنى الدنيا قضاء زمـانها فسر بهـا شطر وسىء بهـا شطر
ومـا فى ملوك المسلمين مجاهـد سـوانـا فمـا يثنيـه حر ولا قر
جعلنـا الجهـاد همنـا واشتغـالنـا ولم يلهنا عنـه السمـاع ولا الخمر
دمـاء العدا أشهى من الراح عنـدنا ووقـع المواضى فيهم النـاى والـوتر
نـواصلهم وصـل الحبيب وهم عـدى زيـارتهم ينحـط عنـا بهـا الـوزر
وثير حشايانا السروج وقمصنـا الـد روع ومنصـوب الخيـام لنـا قصر
ترى الأرض مثـل الأفـق وهى نجـومـه وإن حسـدتهـا عزهـا الأنجم الـزهر
وهم الملوك البيض والسمر كالـدمى وهمتنــا البيض الصـوارم والسمر
صـوارمنـا حمر المضـارب من دم قـوائمهـا من جـودنـا نضرة خضر
نسير إلى الأعـداء والطير فـوقنـا لهـا القوت من أعـدائنـا ولنـا النصر
فبـأس يـذوب الصخر من حر نـاره ولطـف لـه بـالمـاء ينبجس الصخر
وجيش إذا لاقى العـــدو ظننتهم أسـود الشرى عنت لهـا الأدم والعفر
ترى كـل شهم فى الـورى مثـل سهمـه نفـوذا فمـا يثنيـه خـوف ولا كثر
هم الأسـد من بيض الصوارم والقنـا لهم فى الوغى النـاب الحـديـدة والظفر
يرون لهم فى القتـل خلـدا فكيف بـاللقـاء لقـوم قتلهم عنـدهم عمر
إذا نسبـوا كـانـوا جميعـا بنى أب فطعنهم شزر وضربهم هبر
يظنـون أن الكفر عصيـان أمرنـا فمـا عنـدهم يـومـا لأنعـامنـا كفر
لنــا منهم إقـــدامهم وولاؤهم ومنــالهم إكرامهم والنـــدى الغمر

بنا أيد الإسلام وازداد عزة ... وذل لنا من بعد عزته الكفر
قتلنا البرنس حين سار بجهله ... تحف به الفرسان والعسكر المجر
ولم يبق إلا من أسرنا وكيف بالـ ... ـبقاء لمن أخنت عليه الظبى البتر
وفى سجننا ابن الفنش خير ملوكهم ... وإن لم يكن خير لديهم ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغما ... وقد قتلت فرسانهم فهم جزر
وسل عنهم الوادى باقليس إنه ... إلى اليوم فيه من دمائهم غدر
هم انتشروا فيه لرد رعيلنا ... فمن تربه يوم المعاد لهم نشر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ... ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه ... بمال وكم ظن به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه نبغى الأجر فى فعلنا به ... وفى مثل ما قد ناله يحرز الأجر
ونحن كسرنا البغدوين وما لمن ... كسرناه إبلال يرجى ولا جبر
فسله اللعين الحائن الخائن الذى ... له الغدر دين ما به صنع الغدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها ... فلم ينجه بر ولم يحمه بحر
أفى غدره بالخيل بعد يمينه ... بإنجيله بين الأنام له عذر
دعته إلى نكث اليمين وغدره ... بذمته النفس الخسيسة والمكر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت ... تقاد إلينا وهى من دمهم شقر
توهم عجزا حلمنا وأناتنا ... وما العجز إلا ما أتى الجاهل الغمر
فلما تمادى غيه وضلاله ... ولم يثنه عن جهله النهى والزجر
برزنا له كالليث فارق غيله ... وعادته كسر الفرائس والهصر
وسرنا إليه حين هاب لقاءنا ... وبان من بأسنا البؤس والشر
فولى يبارى عابرات سهامنا ... وفى سمعه من وقع أسيافنا وقر
وخلى لنا فرسانه وحماته ... فشطر له قتل وشطر له أسر
وما تنثنى عنه أعنة خيلنا ... ولو طار فى أفق السماء به النسر

إلى أن يـزور الجـوسلين مسـاهمـا لـه فى ديـاج مـا لليلتهـا فجر
ونرتجـع القـــدس المطهر منهم فلم يبـق منهـا فى ممـالكهم شبر
إذا استغلقت شم الحصـون فعنـدنـا مفـاتحهـا بيض مضـاربهـا حمر
وإن بلـد عـز الملـوك مرامــه ورمنـاه ذل الصعب واستسهل الوعر
وأضحى عليهـا للسهـام وللظبى ووقع المذاكى الرعـد والبرق والقطر
بنـا استرجـع الله البـلاد وأمن الـ ـعبـاد فـلا خـوف عليهم ولا قهر
فتحنـا الرهـا حين استبـاح عـداتنـا حمـاهـا وسنى ملكهـا لهم الختر
جعلنا طلى الفرسـان أغمـاد بيضنـا وملكنـا أبكـارهـا الفتكـة البكر
ونحن فتحنـا تـل بـاشر بعـدهـا وقـد عجـزت عنـه الأكـاسرة الغر
أتى سـاكنوهـا بـالمفـاتيح طـاعـة إلينـا وسراهم إلى بـابنـا شهر
ومـا كـل ملـك قـادر ذو مهـابـة ولا كـل سـاع يستتب لـه الأمر
وتـل عـزاز صبحتـه جيـوشنـا فلم تحمـه عنـا الرجـال ولا الجـدر
وملنـا إلى برج الرصـاص وإنـه لكـالسـد لكن الرصـاص لـه قطر
وأضحت لأنطـاكيـة حـارم شجى فهـالهـا والسـاكنين بهـا حصر
وحصن كفر لاثـا هـاب تـدانيـا لنـا وذراهـا لـلأنـوف بهـا وكر
وفى حصن باسوطـا وقورص ذلت الصـ ـعـاب لنا والنصر يقـدمـه الصبر
وفـاميـة والبـارة استنقـذتهمـا لنـا همـة من دونهمـا الفرع الغفر
وحصن بسفـــود وآنب سهلت لنـا واستحـال العسر وهـو لنـا يسر
وفى تـل عمـار وفى تـل خـالـد وفى حصن سلقين لمملكـــة قصر
ومـا مثـل زاونـدان حصن وإنـه لممتنـع لـو لم يسهلـه القسر
وكم مثل هـذا من قـلاع ومن قرى ومـزدرعـات لا يحيـط بهـا الحصر
فلمـا استعـدنـاهـا من الكفر عنـوة ولم يبـق فى أقطـارهـا لهم أثر
رددنـا على أهـل الشـآم ربـاعهم وأمـلاكهم فـانـزاح عنهم بهـا الفقر
وجـاءتهم من بعـد يـأس وفـاقـة وقد مسهم من فقـدهـا البؤس والضر

ومر عليهـا الـدهر والكفر حـاكم   عليهـا وعمر مر من بعـده عمر
فنـالهم من عـودهـا الخير والغنى   كما نـالنـا من ردهـا الأجر والشكر
ونحن وضعنا المكس عن كل بلـدة   فـأصبـح مسرورا بمتجره السفر
وأصبحت الآفـاق من عـدلنـا حمى   فكـدر قطـاهـا لا يروعهـا صقر
فكيف تسـامينـا الملوك إلى العلا   وعـزمهم سر ووقعـاتنـا جهر
وإن وعـدوا بـالغـزو نظمـا فهـذه   رءوس أعـاديهم بـأسيـافنـا نثر
سنلقى العـدا عنهم ببيض صقـالهـا   هـدايـاهم والبتر يـزهقهـا البتر
ومـا قولنـا عن حـاجـة بل يسوءنـا   إذا لم يكن فى غـزونـا لهم أجر
خزائننا ملأى ومـا هى ذخرنـا المـ   ـعـد ولكن الثـواب هـو الـذخر
ملكنـا الـذى لم تحـوه كف مـالـك   ولم يعرنـا تيـه الملوك ولا الكبر

☆ ☆ ☆

(ب)

ولما بعث طلائع بن رزيك إلى أسامة بقصيدته التى مطلعها :

ألا هكـذا فى الله تمضى العـزائم   وتقضى لـدى الحرب السيـوف الصـوارم

أجابه أسامة بقصيدة جاء فيها :

لـك الفضـل من دون الـورى والأكـارم   فمن حـاتم مـا نـال ذا الفخر حـاتم

ومنها :

تكفلت لـلإسـلام أنـك مـانـع   حمـاه مبيح مـا حمى الكفر هـادم
فـأصبحت ترعى سرحـه بصريمـة   من العـزم لم تبلـغ مـداهـا العـزائم

وأيدته بالعدل والبذل والتقى ... وضرب الطلى والصالحات دعائم
رميت العدى بالأسد فى أجم القنا ... على الجرد تقتاد الردى وهو راغم
بمثل أتى السيل ضاق به الفضا ... وضاق على الأعداء منه المخارم
يبارين شهب القذف يحملن مثلها ... من الحتف للباغى الرجيم رواجم
سرايا كموج البحر فى ليل عثير ... به من عواليهم نجوم نواجم
تسير جيوش الطير فوق جيوشها ... لها كل يوم من عداها ولائم
فإن خفض الفرسان للطعن فى الوغى ... رماحهم انقضت عليها القشاعم
تعرض منها فوق غزة عارض ... سحاب المنايا فوقه متراكم

ومنها :

فويح العدى من بأسها إنما سرى ... إليها ولم تشعر ردى وأداهم
فهم جزر للبيض والبيض كالدمى ... سبايا تهادى والبلاد معالم
غزوتهم فى أرضهم وبلادهم ... وجحفلهم فى عرضها متزاحم
فأفنيتهم قتلا وأسرا بأسرهم ... فناجيهم مستسلم ومسالم
فلما أبادتهم سيوفك وانجلت ... عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
غزوتهم فى البحر حتى كأنما الـ ... ـأساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر فوق دهم كأنما ... على الماء طير ما لهن قوادم
يصرفها فرسانها بأعنة ... جرت حيث لم توصل بهن الشكائم
إذا دفعوها قلت فرسان غارة ... سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج إليهم ... حمام وطير للفرنج أشائم
دماؤهم فى البحر حمر سوابح ... وهامهم فى البر سحم جواثم
فلم يخف فى فج من الأرض هارب ... ولم ينج فى لج من الماء عائم
وعاد الأسارى مردفين وسفنهم ... تقاد كما قاد المهارى الخزائم
وقد شعر الملكان فى الله طالبى ... رضاه بعزم لم تعقه اللوائم

بجد هو العضب الحسام وحده | لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدين والله قائم | بنصرهما ما دام للسيف قائم
وما دون أن يفنى الفرنج وتفتح | البلاد سوى أن يمضى العزم عازم
فيا ملكا قد أحمد الله سعيه ونـ | ـيته والله بالسر عالم
تهن ثناء طبق الأرض نشره | هو المسك لا ما ضمنته اللطائم

☆ ☆ ☆

(جـ)

وكتب إليه قصيدة أخرى مطلعها :

قل لابن منقذ الذى | قد حاز فى الفضل الكمالا

فأجابه بقوله :

يا أشرف الوزراء أخـ | ـلاقا وأكرمهم فعالا

ومنها :

وحمى البلاد بسيفه | عن أن تذال وأن تدالا
وأحل بالإفرنج فى | بر وفى بحر نكالا
حتى لقد سئموا لقا | ء جيوش مصر والقتالا

ومنها :

واسلم لنا حتى نرى | لك فى بنى الدنيا مثالا
واشدد يديك بود نو | ر الدين والق به الرجالا

فهو المحامى عن بلاد الشا	م جمعـــا أن يـــذالا
ومبيـــد أمـــلاك الفرنـ	ـج وجمعهم حـالا فحـالا
فبقيتمــــــا للمسلميـ	ـن حمى وللدنيا جمـالا

(د)

وقال يعاتب معين الدولة على استسلامه للفرنج :

أين الحميـــة والنفس الأبيـــة إذ	ساموك خطـة خسف عـارهـا يصم
هَـلا أنفت حيـاء أو محـــافظـــة	من فعـل مـا أنكرتـه العرب والعجم
أسلمتنـا وسيـوف الهنـد مغمـــدة	ولم يروِّ سنــــــان السمهرى دم
وكنت أحسب من والاك فى حرم	لا يعتريـــه بـــه شيب ولا هرم
وأن جـــارك جـــار للسمـوءل لا	يخشى الأعـادى ولا تغتـالـه النقم
هبنـا جنينـا ذنوبـا لا يكفرهـا	عـذر فمـاذا جنى الأطفـال والحرم
ألقيتهم فى يـد الإفرنـج مبتغيـا	رضى عـدى يسخـط الرحمن فعلهم

وقال يجيب طلائع بن رزيك عن قصيدته التى مطلعها :

أيهـا الســافر المجـد إلى الشـا	م تبـــارى ركـــابـــه والخيــول

بقوله :

يــا أمير الجيوش يــا أعــدل الحـ	ـكـــام فى فعلـه وفيمـــا يقــول
أنت حليت بـــالمكـــارم أهــل الـ	ـعصر حتى تعرف المجهـــــــول
وقسمت الفرنـج بـــالغــزو شطريـ	ـن فهـــذا عـــان وهـــذا قتيـل
بــالـغ العبـد فى النيـابـة والتحـ	ـريض وهـو المفـوه المقبـــول
فرأى من عـزيمـة الغـزو مـا كـا	دت لــه الأرض والجبــال تميـل
وإذا عـــاقت المقـــادير فـــاللـ	ـــه إذا حسبنـــا ونعم الـوكيـل

٥

العماد الشاعر

٥١٩ - ٥٩٧ هـ

سبق أن ترجمنا للعماد الأصفهانى الكاتب وذكرنا أنه ترك ديوان شعر وقد ضاع هذا الديوان ولم يصل إلينا من شعره سوى قصائد قليلة . وشعره جيد ونفسه فى النظم طويل فبعض قصائده تربو على المائتين .

(أ)

ومن قوله يمدح نور الدين :

عقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت لعصرك آية الإحسان
يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ ... ـصيد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها ... حزت الفخار على ذوى التيجان
محمود المحمود ما بين الورى ... فى كل أقليم بكل لسان
يا واحدا فى الفضل غير مشارك ... أقسمت مالك فى البسيطة ثانى
أحلى أمانيك الجهاد وإنه ... لك مؤذن أبدا بكل أمان
كم فتح بكر أولدته ظباك من ... حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها ... قد سار فى الآفاق والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان

وملكت رق ملـــــوكهم وتركتهم بـالـذل فى الأقيـاد والأشجـان

وجعلت فى أعنـــاقهم أغـلالهم وسحبتهم هـونـا على الاذقـان

إذ فى السوابغ تحطم السمر القنـا والبيض تخضب بـالنجيـع القـانى

وعلى غنـاء المشرفيـة فى الطلى والهـــام رقص عـوالى المران

وكـأن بين النقع لمع حـديـدهـا نـار تـألـق من خـلال دخـان

فى مـأزق ورد الـوريـد مكفـل فيـــه برى الصــارم الظمـــآن

غطى العجـاج بـه نجوم سمائـه لتنـوب عنهـا أنجم الخرصـــان

أو مـا كفـاهم ذاك حتى عـاودوا طرق الضـلال ومركب الطغيـان

يـا خيبـة الافرنج حين تجمعوا فى حيرة وأتـــوا إلى حـــوران

وجلوت نور الـدين ظلمـة كفرهم لمــا أتيت بـواضـح البرهـــان

وهــزمتهم بـالرأى قبـل لقـائهم والرأى قبـل شجـاعـة الشجعـان

أصبحت لـلإسلام ركنـا ثـانيـا والكفر منــك مضعضع الأركـان

قوضت آسـاس الضلال بعزمـك الـ ـمـاضى وشـدت مبـانى الإيمـان

قل أين مثلك فى الملوك مجاهد لله فى سر وفى إعـــــــلان

لم تلقهم ثقـــة بقـوة شـوكــــة لكن وثقت بنصرة الرحمن

مـا زال عـزمـك مستقـلا بـالـذى لا يستقـــل بثقلــــه الثقـــلان

وبلغت بـالتـأييـد أقصى مبلـغ مــا كـان فى وسع ولا إمكـان

دانت لـك الـدنيـا فقـاصيهـا إذا حققتــــه لنفـــاذ أمرك دانى

فمن العراق إلى الشــآم إلى ذرا مصر إلى قـــوص إلى أســـوان

لم تلـه عن بـاقى البـلاد وإنمـا ألهـاك فرض الغـزو عن همـدان

للروم والأفرنـج منـك مصـائب بـــالترك والأكراد والعربـــان

أذعنت لله المهيمن إذعنت لـك أوجــه الأمـلاك بـالاذعـان

إنت الـذى دون الملـوك وجـدتـه مـلآن من عرف ومن عرفـــان

فى بأس عمرو فى بسـالـة حيـدر فى نطـق قس فى تقى سلمـان

سير لو أن الوحى ينزل أنزلت   فى شأنها سور من القرآن
فاسلم طويل العمر ممتد المدى   صافى الحياة مخلد السلطان

☆ ☆ ☆

(ب)

وقال يمدح صلاح الدين ويعزيه بوفاة عمه أسد الدين شيركوه :

أبا يوسف الإحسان والحسن خير من   حوى الفضل والإفضال والنهى والأمرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه   تجلى وثغر النصر من عزمه افترا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزة   من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى إلا العلاء وعمه   بمعروفه عم الورى البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله   وما شاركوه فى العلا فحوى الفخرا
بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه   وسمر عواليه منايـاهم حمرا
وما أبيض يوم النصر واخضر روضه   من الخصب حتى اسود بالنقع واغبرا
رأى النصر فى تقوى الإله وكل من   تقوى بتقوي الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة   أغذ من الأولى مسيرا إلى الأخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا   وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر إلى عصر يوسف   أعاد إليها الله يوسف والعصرا
فأجري بها من راحتيه بجوده   بحارا فسماها الورى أنملا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم   فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتم من حول مصر جموعهم   بكسر وعاد الكسر من أهلها جبرا
وآمنتم فيها الرعايا بعدلكم   وأطفأتم من شر شاورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة   وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا

وما يرتوى الإسلام حتى تغادروا   لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها   بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا   على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم   وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا
وإن الذى أثرى من المال مقتر   وإن تفنه فى كسب محمدة أثرى

☆ ☆ ☆

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بملك مصر :

بملك مصر أهنى ممالك الأمم   فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما   وهل بعدلك شىء غير ملتئم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف   ومولى العرف عن خلق بلا سأم
ووامقا ثلم ثغر الكفر تعجمه   لا لثم ثغر شنيب واضح شبم
لله درك نور الدين من ملك   بالعزم مفتتح بالنصر مختتم
آثار عزمك فى الإسلام واضحة   وسره لك باد غير مكتتم
بمأمن العدل والإحسان تنشره   تخاف ربك خوف المذنب الأثم
أوردت مصر خيول النصر عادمة   ثنى الأعنة إقداما على اللجم
فأقبلت فى سحاب من ذوابلها   وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب فى قلب العدو بها   تمكن النار بالإحراق فى الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب   واه وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق فى طلب الـ   ـعلياء مقتحمات أصعب القحم
وعاجلات من الإفرنج غلهم   والقيد فى موضع الأطواق والحزم
أعانها الله فى إطفاء جمر أذى   من شر شاور فى الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها   للأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنة اتسقت والبدعة انمحقت   وعاودت دولة الإحسان والكرم

ملوكها لك صاروا أعبدا وغدا ... بها عبيدك أملاكا ذوى حرم
أنبت عنك بها قرما ينوب بها ... فى البأس عن عنتر فى الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك ... عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها ... بكشف دولتها لحما على وضم
فالنيل ملتطم جار على خجل ... جار لبحر نوال منك ملتطم
اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم ... واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثب ... على البغاة وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... فى عقد عز من الاسلام منتظم
محمود الملك الغازى يسوسهما ... بالفضل والعدل والإفضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا ... محمود الملك محمود بكل فم

☆ ☆ ☆

(د)

وقال يهنىء صلاح الدين باستيلائه على بعلبك :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام ... وبنور نصرك تشرق الأيام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبت ... هذى الممالك واستقام الشام
وبكى الحسود دما وثغر الثغر من ... فرح بنصرك للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كأننا ... شكرا لما منح الإله صيام
من ذا رأى فى الصوم عيد سعادة ... حلت لنا والفطر فيه حرام
أسدى صلاح الدين والدنيا يدا ... بنوالها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذى ... بحصوله لفتوحك الإتمام
دم للعلا حتى يدوم نظامها ... واسلم يعز بنصرك الاسلام

☆ ☆ ☆

(هـ)

وقال يمدح تقى الدين ابن أخى صلاح الدين :

عفا الله عنكم عن ذوى الشوق نفسوا ... فقد تلفت منا قلوب وأنفس

ألم تعلموا أنى من الشوق موسر ... ألم تعلموا أنى من الصبر مفلس

ظننتم بعينى أنها تألف الكرى ... فهلا بعثتم طيفكم يتجسس

وليس لقلبى فى السرور تصرف ... فقلبى على الأحزان وقف محبس

لفتك محبيه تيقظ طرفه ... وتحسبه من سقم عينيه ينعس

له ناظر عند الخلاف مناظر ... يقول دليل الدل عندى أقيس

إذا درست ألحاظه السحر أصبحت ... رسوم اصطبارى درسا حين تدرس

ولم أنسَ أنسى بالحمى رعى الحمى ... عشية لى مجنى ومجلى ومجلس

ولولا ابتسامات المظفر بالندى ... لما راق نفسى صبحه المتنفس

جلت شمس لقياه الحنادس بعد ما ... عرتنا وهل يبقى مع الشمس حندس

وصار به هذا الزمان جميعه ... نهارا فما للناس ليل معسعس

إذا صال فالمغلول ألف مدرع ... وإن جاد فالمبذول ألف مكيس

وليس بمغبون على فضل رأيه ... ويغبن فى الأموال منه ويبخس

إذا أطلق الملك المظفر فى الوغى ... أعنته فالشمس بالنقع تحبس

فداك ملوك لا يلبون داعيا ... وكلهم عن دعوة الحق يخنس

تشكى إليك الغرب جور ملوكه ... فأشكيته والجور بالعدل يعكس

سيهدى إلى المهدية النصر والهدى ... بهديكم فيها وتونس تؤنس

رددت كراديس الفرنج وكلهم ... لدى الأسر فى غل الصغار مكردس

وبيضت وجه الدين يوم لقيتهم ... وأبيضكم من أسود القصر أشوس

أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكم ... وما يستفاد الطهر لولا التنجس

شموس ظبى تغدو لها الهام سجدا فلله نصرانية تتمجس
وكم كفى الإسلام سوءا بملككم كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفتح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل فى جهاد مثلث إذا نصروا التوحيد فىء مخمس
إذا ما تقى الدين صال تساقطت لأقدامه من عصبة الشرك أرؤس
وما عمر إلا شبيه سميه شديد على الأعداء ثبت عمرس

٦

ابن الساعاتى

٥٥٣ – ٦٠٤ هـ

هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز . انتقل والده من خراسان إلى الشام وفيها عرف بعلم النجوم وصنع الساعات وذلك فى أيام نور الدين .

وقد خلف ولدين أحدهما أبو الحسن الملقب ببهاء الدين الشاعر المشهور .

قال ابن خلكان [١] إنه : شاعر مبرز فى حلبة المتأخرين له ديوان شعر يدخل فى مجلدين أجاد فيه كل الإجادة وديوان آخر لطيف سماه « مقطعات النيل » . وقد طبع ديوان ابن الساعاتى فى بيروت سنة ١٩٣٨ م فى جزأين كبيرين .

نشـأته :

ولد ابن الساعاتى ونشأ فى دمشق وفيها قضى الشطر الأكبر من حياته ، أما الشطر الثانى فقضاه فى وادى النيل حيث توفى وهو فى الحادية والخمسين من عمره .

---

(١) الوفيات ٢ / ٦٣ .

شعره :

ولابن الساعاتى مدائح كثيرة فى صلاح الدين . وامتاز شعره بظهور الصنعة البيانية فيه ، فقد أغرم ابن الساعاتى بضروب البديع المعنوى واللفظى من تشبيه واستعارة وجناس وطباق وما إلى ذلك .

وكان ميالا إلى وصف الطبيعة فهو يصف رياض دمشق وما فيها من مياه وأشجار وزهور وظلال ونسيم ويصف الظواهر الجوية من غيث وسحاب وبرق وثلج وقمر ونجوم وظلال ومجالس الأنس والشراب وغير ذلك . وفى ديوانه أوصاف لطيفة فى مصر .

أمثلة من شعره :

(أ)

قال فى فتح طبرية :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء ... وأنت تقاتل الأعداء دينا
غدت فى وجنة الأيام خالا ... وفى جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا ... ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية إلا هدى ... ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ... وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا ... يصد الليث أن يلج العرينا

لقـــد أنكحتهـــا صم العـوالى فكـان نتـاجهـا الحرب الـزبـونـا
هنـاك نـدى أهـل الأرض طرا سـواك ومعقـل أعيـا القرونـا
قست حتى رأت كفـؤا فـلانت وغـايـة كـل قـاس أن يلينـا
قضيت فريضـة الإسـلام منهـا وصـدقت الأمـانى والظنـونـا
تهـز معـاطف القـدس ابتهـاجـا وترضى عنـك مكـة والحجـونـا
فلـو أن الجهـاد يطيـق نطقـا لنـاداك ادخلـوهـا آمنينـا
جعلت صبـاح آهلهـا ظـلامـا وأبـدلت الـزئير بهـا أنينـا
تخـال حمـاة حـوزتهـا نسـاء يخـوضـون الحـديـد مقنعينـا
لبيضـك فى جمـاجمهم غنـاء لـذيـذ علم الطير الحنينـا
تميـل إلى المثقفـة العـوالى فهـل أمست رمـاحـا أم غصونـا
يكـاد النقـع يـذهلهـا فلـولا بروق القـاضيـات لمـا هـدينـا
فكم حـازت قـدود قنـاك منهـا قـدودا كـالقنـا لـونـا ولينـا
وغيـد كـالجـآذر آنسـات كغيـد نـداك أبكـارا وعـونـا
ولمـا بـاكرتهـا منـك نعمى بنـان تفضـح الغيث الهتـونـا
أعـدت بهـا الليـالى وهى بيض وقـد كـانت بهـا الأيـام جـونـا
فليس بعـادم مرعى خصيبـا أخـو سغب ولا مـاء معينـا
فـلا عـدم الشـآم وسـاكنـوه ظبى تشفى بهـا الـداء الـدفينـا
سهـاد جفونهـا فى كـل فيـح سهـاد يمنـح الغمض الجفـونـا
فـألم بـالسـواحـل فهى صـور إليـك وألحـق الهـام المتـونـا
فقلب القـدس مسرور ولـولا سطـاك لكـان مكتئبـا حـزينـا
أدرت على الفرنج وقـد تـلاقت جمـوعهم عليـك رحى طحـونـا
ففى بيسـان ذاقـوا منـك بؤسـا وفى صفـد أتـوك مصفـدينـا
لقـد جـاءتهم الأحـداث جمعـا كـأن حروفهـا كـانت كمينـا
وخـانهم الـزمـان ولا سـلام فلست بمبغض زمنـا خئـونـا

لقـد جردت عـزمـا نـاصريـا　　يحـدث عن سنـاه طـورسينـا
فكنت كيوسف الصـديق حقـا　　لـه هـوت الكـواكب سـاجـدينـا
لقـد أتعبت من طلب المعـالى　　وحـاول أن يسـوس المسلمينـا
وإن تـك آخرا وخـلاك ذم　　فـإن محمـدا فى الآخرينـا

☆ ☆ ☆

(ب)

وله من قصيدة فى فتح القدس :

أعيـا وقـد عـاينتم الآيـة العظمى　　لأيـة حـال نـذخر النثر والنظمـا
وقـدسـاغ فتح القـدس فى كـل منطـق　　وشـاع إلى أن أسمع الأسـل الصمـا
حبـا مكـة الحسنى وثنى بيثرب　　وأطرب ذيـاك الضريـح ومـا ضما
فليت فتى الخطاب شـاهـد فتحها　　فيشهـد أن السيف من يوسف أصمى
ومـا كـان إلا الـداء أعيـا دواؤه　　وغير الحسـام العضب لا يحسن الحسمـا
وأصبـح ثغر الـدين جـذلان بـاسما　　وألسنـة الأغمـاد تـوسعـه لثمـا
سلوا السـاحل المخشى عن سطواتـه　　فما كـان إلا سـاحلا صـادف اليمـا

☆ ☆ ☆

(جـ)

وله من قصيدة أخرى :

عصفت بـه ريح الخطوب زعـازعـا　　فلقين طـودا لا تخف أنـاتـه
هـو منقـذ البيت المقـدس بعـدمـا　　طـالت فمـا وجـد الشفـاء شكـاتـه

بيت تـأسس بـالسكـون وإنمـا عند الـزحـاف تحركت سكنـاتـه
امشتت الأعـداء وهى جحـافـل عن شمـل دين جمعت أشتـاتـه
أوتيت عـزمـا فى الحروب مسـددا لا زيغـه يخشى ولا هفـواتـه
أحسنت بـالبيت العتيـق ويثرب ولـك الفعـال كثيرة حسنـاتـه
هـذى سيـوفـك محرمـات دونـه لبكـائهن تبسمت حجراتـه

(د)

وله من قصيدة أخرى :

هو الفـاتـح البيت المقـدس بعـدمـا تحـامتـه سـادات الـدنـا وأسـودهـا
فضيلـة فتـح كـان ثـانى خليفـة من القـوم مبـديهـا وأنت معيـدهـا

(هـ)

وقال من قصيدة يمدح بها الملك المعز فتح الدين إسحاق بن الملك الناصر :

إن حجبتم أشبـاحكم والمنـامـا فـابعثـوا لى مع النسيم السـلامـا

ومنها :

مهـد الـدين سعيـه وحمى الـدنـ ـيـا وحـاط البـلاد والاسـلامـا
فغـدا للعلى مسـا كـا وللمـ ـلـك مـلاكـا وللعـلاء قـوامـا
بـك فتـح الـدين الحنيف أذل السيف عـز الصليب والأزلامـا
ما شكـا جفنـه الجريح إلى كفـك سهـدا حتى أنمت الأنـامـا
ضـاق عن حـولـه الرمـاح ولـولا المأزق الضنـك ما بعثت السهـامـا

فالق زغفيك [1] جنة واصطبارا   وحساميك صارما واعتزاما
فلقد كلت الظبى الضرب والسـ   ـمر من الطعن والجياد الصداما
واستحال الهجير ظلا ونار الكفر   صارت بردا لنا وسلاما
فافترعهن نهدا يكسف البدر حيـ   ـاء من حسنها واحتشاما

(و)

وله من قصيدة يمدح بها الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل .

سلوا ألسن الأعلام عن فتكاته   وقب المذاكى والوشيج المقوما
حمى القدس من زرق الأعادى بسمرها   فما تجد الخطى إلا تحطما
شكا أهلها دائى محول وخيفة   فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ريها ماء النجيع سيوفه   ففى غيرها لا يستجيز التيمما
فلم يبق فى ساحاتها غير مسلم   ولولاه لم تبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحل وأختها   ولكنه صان الحطيم وزمزما
إذا سل بالبيض الحنادس أشمست   وإن كف ثوب الصبح بالنقع أعتما

☆ ☆ ☆

---

(١) درعيك .

(ع)

وله من قصيدة :

بجـــدك أعطـــاف القنـــا تتعطف وطرف الأعـــادى دون مجـــدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب وسيف هدى فى طـاعـة الله مرهف
وقفت على حصن المخـاض وإنــه لمـوقف حـق لا يـوازيــه مـوقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونـه رجـال كـآسـاد الشرى وهى ترجف
وجرداء سلهـوب ودرع مضـــاعف وأبيض هنـــدى ولـــدن مثقف
ومـا رجعت أعلامـك الصفر سـاعـة إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبـا من أعـاليـه صليب وبيعـــة وشـــاد بـــه دين حنيف ومصحف
صليبـــة عبـــاد الصليب ومنـزل النـ ـزال قـــد غـــادرتـــه وهـو صفصف
أيسكن أوطـــان النبيين عصبـــة تمين لـــدى أيمـــانهـــا وهى تحلف
نصحتكم والـدين فى النصح واجب ذروا بيت يعقوب فقد جـاء يوسف

☆ ☆ ☆

(ك)

وله من قصيدة يحرض فيها صلاح الدين على الاستيلاء على حلب :

مـا بعـد لقيـاك للعـافين من أمل ملك الملوك وهـذى دولـة الـدول
فانهض إلى حلب فى كل سابغة سروجهـا قلـل تغنى عن القلـــل
ما فتحها غير إقليد الممالك والد اعى إليـــه جميـع الخلـق والملـل
ومـــا عصت منعـة لكنـه غضب عـــلام أهملتهـــا إهمـــال مبتـــذل

٧

ابن سناء الملك

٥٥٠ - ٦٠٨ هـ

هو القاضى السعيد بن سناء الملك هبة الله ابن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبى عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدى الشاعر المشهور .

ولد بمصر عام ٥٥٠ هـ وتلقى العلم على شيوخ عصره وصحب القاضى الفاضل واستفاد من علمه كثيرا ومدحه بجملة قصائد وسافر معه إلى الشام وهناك لقى العماد الأصفهانى . وقد وصفه العماد بقوله :

« وجدته فى الذكاء آية قد أحرز فى صناعة النظم والنثر غاية ، تلقى عرابة العربية له باليمين راية . وقد ألحقه الإقبال الفاضل فى الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا . وإنا نرجو أن ترقى فى الصناعة رتبته وتصفو من الصبى منقبته ، وتروى بماء الدراية رويته وتستكثر فوائده وتؤثر قلائده » .

آثاره الأدبية :

١ - ديوان شعره ومنه نسخة شمسية بدار الكتب المصرية .

٢ - دار الطراز وهو ديوان موشحات ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

٣ – فصوص الفصول وهى رسائل خاصة بعث بها إليه القاضى الفاضل وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الكتاب ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

٤ – روح الحيوان وهو مختصر لكتاب الحيوان للجاحظ . ذكره ابن خلكان .

حياته الخاصة :

أفاد ابن سناء الملك من اتصاله بالقاضى الفاضل فوائد مادية كثيرة فاستطاع أن يجمع ثروة كبيرة وأن يعيش متنعما مرفها مكرما لأصدقائه وخلانه من الشعراء والأدباء وأهل العلم . وكان محبوبا من الناس لكرم أخلاقه ومحمود صفاته . وقد أستخدمه القاضى الفاضل وكيلا خاصا له حينما تغيب مع صلاح الدين بالشام وكتب إليه ليتلقى عبد اللطيف البغدادى عندما حضر إلى مصر فقابله مقابلة حسنة وزاد فى إكرامه وإعزازه . وزاره ابن عنين الشاعر المشهور فلقى من حسن ضيافته شيئا كثيرا . وقد وصفه ابن خلكان بقوله :

«[1] ... أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء . وكان كثير التخصص والتنعم وافر السعادة محظوظا من الدنيا » .

شعره :

أكثر شعر ابن سناء الملك مدح فى صلاح الدين والقاضى الفاضل . وقد وصف ابن خلكان شعره فقال : « هو صاحب ديوان الشعر البديع والنظم الرائق ... »

---

(١) الوفيات ج ٣ / ١٢١ .

وأنت ترى من قصائده التى أتينا هنا أن ابن سناء الملك لم يكن فى قوة منم عاصرهم من الشعراء بل تخلف عنهم كثيرا . وهو أضعف من ترجمنا لهم من الشعراء .

☆ ☆ ☆

(١)

قال يمدح السلطان الملك الناصر ويهنيه بالفتح :

بدولة الترك عزت ملة العرب ... وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب ... من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة ... بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
مظفر النصر مبعوث بهمته ... إلى العزائم مدلول على الغلب
إن العواصم كانت أى عاصمة ... معصومة بتعاليها عن الرتب
لو رامها الأفق لم يظفر ببغيته ... ولو رماها بقوس الأفق لم يصب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية ... كواكب الدلو فى بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب فى صعد ... إلا العواصم تبغى السحب فى صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه ... يا طالب النجم قد أوغلت فى الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته ... لصير الرأس منه موضع الذنب
أتى إليها يقود البحر ملتطما ... والبيض كالموج والبيضات كالحبب
تبدو الفوارس منه فى سوابغها ... بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا ... عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب
فطاف منها بركب لا يقبله ... إلا أسنة أطراف القنا السلب
رمت به الجرد فى التيار أنفسها ... فعوقها فيه كالتقريب والخبب
وكان علمها قطع الفرات به ... تعلم العوم فى بحر الدم السرب

وجـاورتـه وأبقى من فـواقعـه   درا ترصـع فـوق العرف واللبب
إلى بـلاد أجـابت قبلمـا دعيت   للخـاطبين ولـولا الخـوف لم تجب
ممـالـك لم يـدبرهـا مـدبرهـا   إلا برأى خصى أو بعقـل صبى
حتى أتاها صلاح الدين فـانصلحت   من الفساد كمـا صحت من الوصب
واستعمـل الجـد فيهـا غير مكترث   بالجـد حتى كـأن المجـد كـاللعب
وقـد حـواهـا وأعطى بعضهـا هبـة   فهـو الـذى يهب الـدنيـا ولم يهب
فتـح الفتـوح بـلامين وصـاحبـه   ملـك الملوك ومـولاهـا بـلا كـذب
ومعجـز كمـا أتـانـا منـه مشبهـه   فصـار لا عجبـا من فضلـه العجب
إنى أحب بـلادا أنت سـاكنهـا   وسـاكنيهـا وليسـوا من ذوى نسب
إلا لأنـك قـد أصبحت مـالكهـا   دون الأنـام وهـل حب بـلا سبب

☆ ☆ ☆

(ب)

وقال يمـدح الملـك النـاصر صلاح الـدين ويـذكر نزولـه على الكرك وفتحه نابلس :

هل الكرك الثكلى بأولادهـا انتهت   عن النسل ممـا جرعتـه من الثكـل
وكـانـوا لهـا كـالعقـد لكنـه وهى   وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغل
أتـاهم بمثـل الرمـل ينقـل خيلهم   إلى الأفـق مـافـوق الطريـق من الرمـل
يكلفهم غـزو الفرنـج بـدارهم   ويسهـل إلا أنـه ليس بـالسهـل
جنى أهل تلك القلعـة الشر إذ رأوا   فهودا بهـا كـالبـاسقـات من النخـل
ومـا خـالفتـك الجرد قـط وإنهـا   لتلحق من عاديته وهى فى الشكل
غـدا بعلهـا الإبرنس يلعن عرسـه   بهـا وهى لا تنفـك من لعنـة النعل

وقد رجمتها المنجنيقات إذ رنت   هناك بشيخ كافر جاهل رذل
أحسوا بطل للخريف فجاءهم   ربيع من النبل المسدد بالوبل
ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها   وتصبح تشكو بعده غلة المحل
شببت وقود الحرب بالبيض والقنا   عليهم وقد أضحت دماؤهم تغلى
وما أغمدت عنهم سيوفك إذ أتت   على الغر والشيخ المغفل والكهل
أبدت النصارى واليهود بمعرك   وما جاء هذا قط فى سالف النقل
وكانت بهم تلك البلاد تنجست   فناب دم منهم عن الماء فى الغسل
ولم يبق إلا من سبى الجيش منهم   وإن كان يسبى الجيش بالحدق النجل
وعدت بفضل الله للخلق سالما   وأى زمان لم يعد فيه بالفضل
لك الحلم فى الدنيا وما هو بالهوى   مع الجود فى الدنيا وما هو بالهزل
فحبك مفروض على كل مسلم   ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل

(جـ)

وقال يمدحه ويهنئه بفتح القدس :

لست أدرى بأى فتح تهنا   يا منيل الإسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول إنى أولى   وهو أولى لأنه كان أهنا
قد ملكت الجنان قصرا فقصرا   إذ فتحت الشآم حصنا فحصنا
إن دين الإسلام من على الـ   ـخلق وأنت الذى على الدين منا
لك مدح فوق السموات ينشا   ومحل فوق الأسنة يبنى
ساق جبريل بيته بيت جبـ   ـريل فوافى إليه شوقا وحنا
تخرج الساكنين منه ورب الـ   ـبيت فى بيته أحق بسكنى
كم تأنى النصر العزيز عن   الشام ولما نهضت لم يتأنّ

لم تقف قـط فى المعـارك إلا كنت يـوسفـا كيـوسف حسنـا
يجتبى النصر من ظبـاك كـأن الـ ـقضيب قد صحفوه أو صـار غصنـا
قصـدت نحـوك الأعـادى فرد الله مـا أملـوه عنـك وعنـا
لم تـلاق الجيـوش منهم ولـ ـكنـك لاقيتهم بـلادا ومـدنـا
خـانهم ذلـك السـلاح فـلا الرمـ ـح تثنى ولا المهنـد طنـا
وتصيـدتهم بحلقـة صيـد يجمـع الليث والغـزال الأغنـا
وجرت فيهم الـدمـاء بحـارا فجرت فيهم الجـزائر سفنـا
صنعت فيهم وليمـة وحش رقص المشرفى فيهـا وغنى
ظـل معبـودهم لـديـك أسيرا مستضـامـا فـاجعل لـه النـار سجنـا
صلبـوا ربهم فلم يغن عنهم من رأى بعـد صلبـه قـط أغنى
وحـوى الأسر كـل ملـك يظن الـد هر يفنى وملكـه ليس يفنى
لا يخص الشـآم فيـك التهـانى كـل صقـع وكـل قطر مهنـا
قـد ملكت البـلاد شرقـا وغربـا وحـويت الآفـاق سهـلا وحـزنـا
واغتـدى الوصف عن عـلاك حسيرا أى لفـظ يقـال أو أى معنى
ورأينـا ربنـا قـال أطيعـو ه فسمعنـا لربنـا وأطعنـا

(د)

ومن قوله يمدحه :

فـدا لابن أيـوب الملـوك فـإنهم إذا بخلـوا أعطى وإن أفقروا أغنى
أنـام بنى الإسـلام فى كهف بأسـه وأوسعهم عـدلا سيسكنـه عـدنـا
وعـوضهم من بعـد سخطهم رضـا وأبـدلهم من بعـد خـوفهم أمنـا
ومـا شـاقـه صوت الحمـام إذا شـدا ويطربـه صـوت الحمـام إذا غنـا

أقام بدار الكفر تجبى له الجزا وتودى له القتلى وتسبى له الحسنا
يشن عليها غارة بعد غارة فقد أصبحت من شن غارته شنا
زمان على تلك المعاهد قد مشى ودهر على تلك المعاقل قد أخنى
أصاف وأشتى بين عكا وعرقة همام رآها ساعة وهو قد أسنى
ولما رأوه آثروا حين عاينوا أعنة خيل لا تعود أن تثنى
مضى ملكهم فى أول الأمر هاربا يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا
عتيق عتاق ما نجا من نجائها ولا فاز من كان الفرار له حصنا
وقد أنفت منه المواضى لجبنه فلما نجت حوباؤه شكر الجبنا
ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه ولكنه من بعده قرع السنا
يروعه الصبح المنير إذا بدا ويوحشه الليل البهيم إذا جنا
لقد أصبح الإسلام والكفر إذ غدا بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنا
وقدأصبحتمذسرت مصر وأهلها كمعنى بلا لفظ ولفظ بلا معنى
فطوبى لعين أبصرتك وحبذا محلك من مثوى ومغناك من مغنى

☆ ☆ ☆

(هـ)

وقال يمدحه :

طلعت عليهم بالصباح من الظبى يحيط به ليل من النقع مظلم
فساء صباح المنذرين لأنه صباح به زرق الأسنة أنجم
وجيش به أسد الكريهة غضب وإن شئت عقبان المنية حوم
إذا قاتلوا كانوا سكوتا شجاعة ولكن ظباهم فى الرقاب تكلم
ضربت بهم قوما نياما جهالة فلا نائم إلا وأيقظه الدم

ألفت ديـار الكفر غزوا فقد غـدا جـوادك إذ يـأتى إليهـا يحمحم
تقـاد لـك الأبطـال قبـل لقـائهم لأنهم من نقـع جيشـك قـد عمـوا
إذا مـا عصى عـاص عليـك فـإنمـا يخـامره مـا بين عينيـك مـوسم
ومـا يعصم الكفـار عنـك حصونهم ولا شىء غير الله بعـــدك يعصم
شننت بهـا الغـارات حتى نبـاتهـا وأعشـابهـا من كثرة الـدم عنـدم
فكم قـد أقيمت جمعـة نـاصريـة بهـا ومصلاهـا الخميس العرمرم
تغـايرت الأقطـار فيـك فـواحـد لبعـدك يبكى أو بقربـك يبسم
تنافس فيك النيل بـاناس غيرة ويحسـد لبنـانـا عليـك المقطم
ومـا برحت مصر أحـق بيـوسف من الشـام لكن الحظـوظ تقسم
ورب مليـح لا يحب وضـــده يقبـل منـه العين والخـد والفم
فيـا نـاصر الـدين الـذى بحسـامـه ونـائلـه الفيـاض يسلـو المتيم

☆ ☆ ☆

(و)

وقال يمدح الملك العزيز ويذكر رحيله لقتال الفرنج :

قــدمت بــالنصر وبــالمغنم كــذا قــدوم الملــك المقــدم
وسرت بــالنــار إلى ظــالم وعــدت بــالنــور إلى مظلم
يـــا سطـوة الله على كـــافر ونعمــــــة الله على مسلم
بـالمنصـل المـوروث عن يـوسف مـا كـان إلا صـادقـا فى الـدم
أغثت تبنين وخلصتهـــــا والسيف يطفى حرق المغرم
ورام تبنين فقلنـــا لــــه لــو لم تنم عينيـــك لم تحلم
أفجـأه الملـك العـزيـز الـذى يكـلا بــه الــدين ولم يكلم

عن بـــأســـه لا يحتمى مفضــل والفقر إذ يَنــزلـــــه يحتمى

فردهـــا ســـالمـــة منهم من بعد مـا قيـل لهـا يـا اسلمى

فروا ومن خـــوف نجـــوم القنـــا مـــا اكتحلـوا فى الليـل بـالأنجم

فى أدهمى ليـــل وقيـــد ومن خير لم يختر ســـــوى الأسلم

مـــا هـــذه الرميـــة معهـودة للقـــــوس إذ يرمى عن الأسهم

لا عـــدم الإســـلام عثمـــانـــه مصطلم الـــداهيـــة الصيلم

شنشنـــة تعرف من يـــوسف فى النصر دع تعرف من أخـــزم

مقـدمـــه صـــار جمـــادى بـــه كمثـــل ذى الحجـــة ذا مـــوسم

يـا علـة قـد كنت مشتـاقـة أرضـا لظـاهـا خيلـه فـالثم

يـا موجـد الـوجـد ويـا معـ ـدم العـدم جـاهـد عش تجلـد دم

٨

ابن عنين

٥٤٩ – ٦٣٠ هـ

هو شرف الدين أبو المحسن محمد بن نصر بن الحسين بن على بن محمد بن غالب المعروف بابن عنين . يتصل نسبه بالأنصار .

نشأته :

نشأ ابن عنين بدمشق وكان منزله قبلى الجامع الأموى .

ثقافته :

تتلمذ لشيخ نحوى جليل كان يتصدر بالجامع الأموى لاقراء النحو هو أبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزرى . قرأ عليه الأدب وبرع فى النحو . وكان الحافظ الكبير أبو القاسم على بن الحسين بن عساكر يدرس بالمقصورة الغربية فى الجامع فسمع منه ابن عنين ، واشتغل بطرف من الفقه على قطب الدين النيسابورى رئيس الشافعية بالزاوية الغربية من الجامع أيضا ، وعلى كمال الدين الشهرزورى قاضى قضاة دمشق . ورحل إلى بغداد وسمع من منوجهر بن تركان شاه راوى مقامات الحريرى .

وابتدأ يقول الشعر سنة خمس وستين وخمسمائة وهو ابن ستة عشر سنة ، وكان ذلك فى عهد الملك العادل نور الدين محمود ، وكان هذا الملك زاهدا فى الشعر والشعراء . فانصرف إلى الهجاء .

ثم جاءت الدولة الصلاحية وكان صلاح الدين يشجع الأدباء ويجيز الشعراء ولكن ابن عنين كان قد شب على الهجاء والتهكم والسخرية من الناس ، فهجا كثيرا من الوزراء والقضاة والأمراء ولم يستثن صلاح الدين ، فنفاه من الشام فخرج مطوفا فى البلاد ينتقل من الشام إلى العراق ومن العراق إلى الجزيرة وأذربجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر ، وما زال بين حل وترحال حتى دخل الهند ولم يلبث أن غادرها إلى اليمن . وكان يحكمها إذ ذاك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين فأقام بها مدة . وكان يتردد بين اليمن ومصر مشتغلا بالتجارة . وأخيرا ترك اليمن ورجع إلى مصر عن طريق الحجاز وعاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح الدين وخروج ابنه الملك الأفضل من دمشق واستيلاء الملك العادل عليها .

لم يجد ابن عنين فى البلاد التى طوف بها شيئا يسره فهجا بغداد وحكامها وبخارى وأمراءها والهند وملوكها ولكنه وجد ما سره ببلاد اليمن عند ملكها الأيوبى الذى احتفى به وأكرم وفادته وجعله من خواصه . وشعره فى سيف الإسلام طغتكين من أحسن ما قال .

ولما طالت به الغربة اشتد حنينه إلى دمشق فرجع إليها بعد عشرين سنة قضاها بعيدا عن وطنه وأهله . ولبث يعمل فى التجارة وينتقل من الشام إلى العراق حتى غدا ملك الشام ومصر فى يد الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل .

وكان هذا الملك فاضلا أديبا بارعا فى الفقه واللغة والنحو ، يقرب العلماء والشعراء ويجالسهم ويجزل لهم العطاء .

أقبل الملك المعظم عيسى على ابن عنين وفتن به وجعله من خواصه وأتباعه وندمائه وسماره . وأخيرا أسند إليه منصب الوزارة فضبط الأمور وأحسن السيرة وعف عن الأموال . وهكذا أصبح ابن عنين شاعر ونديما ومستشارا ووزيرا .

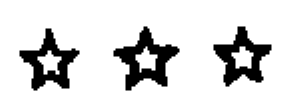
☆ ☆ ☆

أمثلة من شعره :

(أ)

قال يمدح الملك الأشرف بن موسى بن الملك العادل :

ورفعت للـــدين الحنيف منـــاره   فعـــلا وكنت بنصره متكفـــلا
لـولاك لانفصمت عرا الإسـلام فى   مصر وأخمـــل ذكره وتبـــدلا
وتحكمت فيهـا الفرنـج وغـادرت   أعـلاجهـا محراب عمرو هيكـلا
حـاشـا لـدين أنت فيـه مظفر   أن يستبـاح حمـاه أو أن يخـذلا
أنت الذى أجليت عن حلب العدى   وحميت بـالسمر اللـدان المـوصلا
كم مـوقف ضنـك فرجت مضيقـه   وطريقـه لخفـائـه قـد أشكـلا



(ب)

وقال يمدح الملك المعظم عيسى بن الملك العادل :

وأذكرتـــه أيـــام دميـــاط بيننـــا　　وبين العـدى والموت تهوى عقـابـه
وجيشـا خلطنـاه رحـاب صـدوره　　بجيش من الأعـداء غلب رقـابـــه
وقـد شرقت زرق الأسنة بـالـدمـا　　وأنكر حـــــد المشرفى قرابـــــه
وعرد إلا كـــل ذمر مغـــــامس　　ونكب إلا كـل زاك نصـــابـــه
تركنـــاهم فى البحر والبر لحمـــة　　تقـاسمهم حيتـانـــه وذئـــابـــه
ويوما على القيمون ماجت متونـه　　بـزرق أعـاديـه وغصت شعـابـه
نثرنـا على الـوادى رءوسـا أعـزة　　لكـل أخى بـأس منيـع جنـابـه
ورضنا ملوك الأرض بالبيض والقنا　　فـذل لنـا من كل قطر صعـابـه
فكم أمرد خـط الحســام عـــذاره　　وكم أشيب كـان النجيع خضـابـه
وكم قـد نـزلنـا ثغر قـوم أعـزة　　فلم نرتحـل حتى تـداعى خرابـه
وكم يوم هـول ضاق فيـه مجـالنـا　　صبرنـا لـه والموت يحرق نـابـه
يسير بنـــا تحت اللـواء ممـــدح　　كريم السجـايا طـاهرات ثيـابـه
نجيب كصـدر السمهرى منجـح الـ　　ـسرايا كريم الطبع صاف لبـابه
من القـوم وضـاح الأسرة مـاجـد　　إلى آل أيـــوب الكرام انتســـابـــه
ففرج ضيـق القـوم عنـا طعـانـه　　وشتت شمـل الكفر عنـا ضرابـــه
وأصبح وجـه الـدين بعد عبوسه　　طليقـا ولـولاه لطـال اكتئـابـــه
جهـاد لـوجـه الله فى نصر دينـه　　وفى طـاعـة الله العـزيـز احتسـابه
حميت حمى الإسلام فـالـدين آمن　　تـــذاد أقـاصيـه ويخشى جنـابـه
ومـا بغيتى إلا بقـاؤك ســالمـا　　لـذا الـدين لا مـال جـزيـل أثـابـه

(جـ)

وقال يمدحه :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كل مفاضة دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية نوارثها عن صيد آبائنا الإبنا
منحنا بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة عنا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا
وقد جربونا قبلها فى وقائع تعلم غمر القوم منابها الطعنا
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حر ما لقينا هجيره بستر وقر ما طلبنا له كنا
فإن نعيم الملك فى شظف الشقا ينال وحلو العز من مره يجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر به مغنى
كريم الثنا عار من العار باسل جميل المحيا كامل الحسن والحسنى

لعمرك ما آيات عيسى خفية … هى الشمس للأقصى سناء وللأدنى
سرى نحو دمياط بكل سيدع … نجيب يرى وردالوغى المورد الأهنا
فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت … قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا
وطهرها من رجسهم بحسامه … همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجد خلدتها سيوفه … لها نبأ يفنى الزمان ولا يفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم … مواقعها فيها فإن عاودوا عدنا

☆ ☆ ☆

(د)

وله من قصيدة يرثى فيها الملك المعظم عيسى بن الملك العادل :

كم ليلة قد بت فيها لا ترى … إلا ظهور الأعوجية مرقدا
تحمى حمى الإسلام منتصرا له … بعزائم تستقرب المستبعدا
ولرب ملهوف دعاه لحادث … جلل فكان جوابه قبل الصدى

ومنها :

كم مورد ضنك وردت وطعمه … مر وقد عاف الكماة الموردا
وعزيز قوم مترف سربلته … ذلا وكان الطاغى المتمردا
أركبته حلقات أدهم قصرت … منه الخطا من بعث أشقر أجردا
لولا دفاعك بالصوارم والقنا … عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته … عن نصرها لتمكنت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائر أسهما … فيها سبايا والموالى أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة … تجتاب ما بين البقيع إلى كدا

وبثغر دميـــــاط فكم من بيعـــــة   عبـد الصليب بهـا وكـانت مسجـدا
أنقــذتهـا من خطـة الخسف التى   كـانت أحلتهـا الحضيض الأوهــدا
أجليت ليـل الكفر عنهـا فـانطـوى   وأنرت فى عرصـاتهـا فجر الهـدى
ولقــد شهــدتــك يـوم قيســاريــة   والشمس قـد نسج القتـام لهـا ردا
الكفر معتصم بســــــور مشرف الـ   ــأبراج أحكم بـالصفيـح وشيــدا
فجعلت عـاليهـا مكـان أسـاسهـا   وألنت لـلأخشـاب فيهـا الجلمـدا
قـل لـلأعــادى إن فقــدنـا سيــدا   يحمى الـذمـار فقـد رزقنـا سيــدا
النـاصر الملـك الــذى أضحى برو   ح القـدس فى كل الأمـور مـؤيـدا
أعلى الملـوك محلــة وأســدهم   رأيــا وأشجعهم وأطـولهم يــــدا

٩

البوصيرى

٦٠٨ - ٦٩٦ هـ

اسمه ولقبه :

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى .

كان أحد أبويه من أبو صير والآخر من دلاص ، فركبت له نسبة منهما ، وقيل الدلاصيرى لكنه اشتهر بالبوصيرى . والعامة اليوم يسمونه الأباصيرى .

مــولـده :

ولد البوصيرى عام ٦٠٨ هـ فى عهد الملك العادل أبى بكر بن أيوب . وهو العام الذى توفى فيه ابن سناء الملك الشاعر المصرى المشهور الذى تقدم ذكره .

وتوفى عام ٦٩٦ هـ . فكأنه عاش ما يقرب من تسعين سنة ، شاهد فى خلالها كثيرا من أهوال الحروب الصليبية ومصائبها .

وقد أوقدت هذه الحروب كما ذكرنا فى غير هذا الموضع نيران التعصب بين المسلمين والأقباط ، وانطلق الكتاب والشعراء يهجون الاقباط هجاء مرا ويؤلفون فى مثالبهم الرسائل والكتب ، وقد ظهر ذلك فى شعر البوصيرى ؛ فمن قوله فى هذا الصدد :

إن النصـــارى بـــالمحلـــة ودهم ... لـو كـان جامعها يكـون كنيسـا
أترى النصارى يحكمـون بـأنـه ... من بـاشر الأحبـاس صار حبيسـا
إن عـــاد إسحـــاق إليهـــا ثـــانيـــا ... ضربـوا على أبـوابهـا النـاقـوسـا
صرف الإلـه السوء عنـك بصرفـه ... فـاصرفـه عنـا واصفـع القسيسـا
أفـدى بـه المستخـدمين وإنمـا ... أفــدى بتيس كـاليهـود تيـوسـا

☆ ☆ ☆

وقد أكثر البوصيرى من الرد على النصارى واليهود ، ونقاشهم وجدالهم ، وإقامة الحجة عليهم . ففى بعض مدائحه النبوية كما مر بنا جادلهم فى إنكار نبوة محمد مع أن التوراة قد بشرت به وكذلك الإنجيل . قال :

إن أنكرتـه النصـارى واليهـود على ... مـــا بينت منـــه تـــوراة وإنجيـــل
فقـــد تكرر منهم فى جحـــودهم ... للكفر كفر وللتجهيـــل تجهيـــل

ومضى البوصيرى يخاطب النصارى ويقول لهم إن اليهود تكرر منهم الكفر والجحود ، فكفروا بعيسى ثم كفروا بمحمد وأنتم قلدتموهم فى الكفر ، ومع أنكم صدقتم توراتهم فإنهم كذبوا إنجيلكم .

وفى همزيته خاطب النصارى وقال لهم لو حجدنا إنجيلكم كما حجدتم قرآننا لاستوينا . ومضى يسائلهم عن نظرية التثليث ، ويقول إنه

لم يأت بها كتاب ولم ينهض على صحتها دليل . كما خاطب اليهود عن عقيدتهم فى البداء ، وهى أن الله يعدل عن عمل من الأعمال إلى غيره ، لظهور فائدة فى ذلك كانت خافية عليه . وطفق البوصيرى يناقش نظرية التثليث ويحاول إبطالها ودحضها .

شعره :

وللبوصيرى ديوان شعر مطبوع وشعره فى المدائح النبوية قوى جدا وذلك لأنه حاكى حسان بن ثابت وكعب بن زهير ونسج على منوالهما .

أما شعره فى غير هذا الباب فأقل جودة .

(١)

قال يرد على النصارى ، وهى اللامية المعروفة بالمخرج والمردود ، على النصارى واليهود :

جاء المسيح من الإله رسولا ... فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا ... من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدقته وأكثرت ... بالإفك والبهتان فيه القيلا
لم يأت فيه مفرط ومفرط ... بالحق تجريحا ولا تعديلا
فكأنما جاء المسيح إليهم ... ليكذبوا التوراة والإنجيلا
فاعجب لأمته التى قد صيرت ... تنزيهها لإلهها التنكيلا
وإذا أراد الله فتنة معشر ... وأضلهم رأوا القبيح جميلا
هم بجلوه بباطل فابتزه ... أعداؤه بالباطل التبجيلا

وتقطعوا أمر العقائد بينهم زمرا ألم تر عقدها محلولا
هو آدم فى الفضل إلا أنه لم يعط حال النفحة التكميلا
اسمعتم أن الإله لحاجة يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذى لم يستطع صرفا له عنه ولا تحويلا
ياليت شعرى حين مات بزعمهم من كان بالتدبير عنه كفيلا
هل كان هذا الكون دبر نفسه من بعده أم آثر التعطيلا
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه وأراه كان القاتل المقتولا
اجزوا اليهود بصلبه خيرا ولا تخزوا يهوذا الآخذ البرطيلا [1]
أيكون قوم فى الجحيم ويصطفى منهم كليما ربنا وخليلا
وإذا فرضتم أن عيسى ربكم أفلم يكن لفدائكم مبذولا
وأجل روحا قامت الموتى به عن أن يرى بيد اليهود قتيلا
فدعوا حديث الصلب عنه ودونكم من كتبكم من وافق التنزيلا
شهد الزبور بحفظه ونجاته أفتجعلون دليله مدخولا
أيكون من حفظ الإله مضيعا أو من أشيد بنصره مخذولا
أيجوز قول منزه لإلهه سبحان قاتل نفسه فأقولا
أو جل من جعل اليهود بزعمكم شوك القتاد لرأسه إكليلا
ومضى بحمل صليبه مستسلما للموت مكتوف اليدين ذليلا
كم ذا أبكتكم ولم تستنكفوا أن تسمعوا التبكيت والتخجيلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحدا ولو اهتدوا لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
عبدوا إلها من إله كائنا ذا صورة ضلوا بها وهيولى

---

(١) الرشوة .

فدع النصارى واليهود ولا تكن ... بهم على طرق الهدى مدلولا
فالمدعو التثليث قوم سوغوا ... ما خالف المنقول والمعقولا
والعابدون العجل قد فتنوا به ... ودوا اتخاذ المرسلين عجولا
فإذا أتت بشرى إليهم كذبوا ... بهوى النفوس وقتلوا تقتيلا
أبناء حيات ألم تر أنهم ... يجدون ترياق السموم قتولا
اخلوا كتاب الله من أحكامه ... غدرا وكان العامر المأهولا
جعلوا الحرام به حلالا والهدى ... غيا وموصول التقى مفصولا
كتموا العبادة والمعاد وما رعوا ... للحق تعجيلا ولا تأجيلا
ودعاهم ما ضيعوا من فضله ... أن يلمئوه من الكلام فضولا
وكفاهم أن مثلوا معبودهم ... سبحانه بعباده تمثيلا
وبأنهم دخلوا له فى قبة ... إذ أزمعوا نحو الشآم رحيلا
وبأن إسرائيل صارع ربه ... فرمى به شكرا لإسرائيلا
وبأنهم سمعوا كلام إلههم ... وسبيلهم أن يسمعوا منقولا
وبأنهم ضربوا ليسمع ربهم ... فى الحرب بوقات لهم وطبولا
وبأنه من أجل آدم وابنه ... ضرب اليدين ندامة وذهولا
وبأن رب العالمين بدا له ... فى خلق آدم يا له تجهيلا
وبدا له فى قوم نوح وانثنى ... أسفا يعض بنانه مذهولا
وبأن إبراهيم حاول أكله ... خبزا ورام لرجله تغسيلا
وبأن أموال الطوائف حللت ... لهم ربا وخيانة وغلولا
وبأنهم لم يخرجوا من أرضهم ... فكأنما حسبوا الخروج دخولا
لم ينتهوا عن قذف داود ولا ... لوط فكيف بقذفهم روبيلا
وعزوا إلى يعقوب من أولاده ... ذكرا من الفعل القبيح مهولا
وإلى المسيح وأمه وكفى بها ... صديقة حملت به وبتولا
ولمن تعلق بالصليب بزعمهم ... لعنا يعود عليهم مكفولا

وأبيــك مــاأعطى يهوذا خــاتمــا		لــزنــا بمحصنــة ولا منــــديــلا
لــووا بغير الحــق ألسنـــة بمـــا		قـــالــوه فى ليـــا وفى راحيــلا
ودعــوا سليمـــان النبى بكـــافر		واستهــونــوا إفكــا عليــه مقــولا
وجنوا على هــارون بـالعجل الـذى		نسبــوا لـــه تصــويره تضليـــلا
وبــأن مـوسى صـور الصـور التى		مــا حــل منهــا نهيـــه معقــولا
ورضـوا لـه غضب الإلــه فلا عــدا		غضب الإلـــه عـــدوه الضليــلا
وبــأن سحرا مــا استطـــاع لأنـــه		**منــه ولا استطــاعت لـه تبـديـلا**
وبــأن مـــا أبــدى لهم من آيـــة		أبـــدوا إليـــه مثلـــه تخييــلا
إلا البعــوض ولا يــزال معـــانــد		لإلهـــه ببعــوضـــة مخـــذولا
ورضـوا لمـوسى أن يقـول فـواحشـا		ختمت وصيتـــــه بهن فضــــولا
نقلـــوا فـــواحش عن كليم الله لم		يــك مثلهـــا عن مثلـــه منقــولا
وأظنهم قـــد خــــالفـوه فعجلت		لهم العقــوبــة بــالخنــا تعجيــلا
وشكت رجــالهم مصـــادر ذيلهــا		ونســـــاؤهم غير البعــول بعــولا
لعن الـــذين رأوا سبيــل محمــد		والمــؤمنين بـــه أضــل سبيــلا
عجبــا لهم والسبت بيـع عنـــدهم		لم يلــق منـــه المشترون مقيــلا
هلا عصوا فى السبت يوشع إذ غـدا		يــدعــو جنـودا للــوغى وخيــولا
أو جهلـــوا هرون فى ذبـــح وفى		عجن ومـــا كـــان النبى جهــولا
أو ألحقـوا بهمــا المسيح وأوجبـوا		التحريم فى الحـــالين والتحليــلا
أو أثبتـوا النســخ الــذى فى كتبهم		قــد نص عن شعيــا وعن يــوئيــلا
أو لم يروا حكم العتيقــة نــاسخــا		أحكـــــام كتب المرسلين الأولى
أفيــأنف الكفــار أن يستــدركــوا		قــولا على خير الــورى منحــولا
لادر درهم فـــإن كــــلامهم		يـــذر الثرى من أدمعى مبلـــولا
فكـــأننى ألفيت مقلــة فــاقـــد		ثكلى ومــوجعـة. تصيب عــويـلا
ظنــوا بربهم الظنـــون ورسلـــه		ورمــوا إنــاثــا بـــالأذى وفحــولا

إن يبخسوا بالكيل زورا حقه فلأوسعنهم الجزا تنكيلا
ومن الغبينة أن يجازى إفكهم صدقى ولسنا فى الكلام شكولا
لو يصدقون لما أتت رسل لهم أترى الطبيب غدا يزور عليلا
إن أنكروا فضل النبى فإنما أرخوا على ضوء النهار سدولا
الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى جمعت فروعا للهدى وأصولا
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا
درست معالمها ألا فاستخبروا منها رسوما قد عفت وطلولا
تخبركم التوراة أن قد بشرت قدما بأحمد أم بإسماعيلا
ودعته وحش الناس كل ندية وعلى الجميع له الأيادى الطولى
تجدوا الصحيح من السقيم فطالما صدق الحبيب هوى المحب نحولا
طوبى لموسى حين بشر باسمه ولسامع من قوله ما قيلا
وجبال فاران الرواسى إنها نالت على الدنيا به التفضيلا
من مثل موسى قد أقيم لأهله من بين إخوتهم سواه رسولا
أو أن إخوتهم بنو العيص الذى نقلت بكارثة لإسرائيلا
تا الله ما كان المراد به فتى موسى ولا عيسى ولا شمويلا
إذ لن يقوم لهم نبى مثله منهم ولو كان النبى مثيلا
واستخبروا الإنجيل عنه وحاذروا من لفظه التحريف والتبديلا
أن يدعه الإنجيل فار قليطه [1] فلقد دعاه قبل ذلك إيلا
ودعاه روح الحق للوحى الذى يوحى إليه بكرة وأصيلا
فتأمل القول الذى ما أحسنت أمم المسيح لحسنه تأويلا

---

(١) اسم رومى معناه محمد بالعربية . وقد ورد ذكره فى الإنجيل .

إذ قـــال لا يـــأتيكم إلا إذا — أزمعت عنكم لـلإلـــه رحيـــلا
إن أنطلـــق عنكم يكن خيرا لكم — ليجيئكم من ترتضـون بـــديـــلا
يـــأتى على اسم الله منــه مبـــارك — مـا كـان وعـد قـدومـه ممطـولا
يتلـو كتـابـا بـالبيـان كتـابـه — وترد أمثـــالى بـــه التـــأويـلا
من فنـــد العلمـــاء غير محمـــد — منهم وجهـــل رأيهم تجهيـــلا
وأزاح ملـــك الله منهم عنـــوة — ليبيحـــه أهـــل التقى وبنيـــلا
وكمـا شهـدت لـه سيشهـد لى إذا — صـــار العليم بمـــا أتيت جهـولا
يبـدى الحوادث والغيـوب حـديثـه — ويسـوسكم بـالحـق جيـلا جيـلا
هو صخرة ما زوحمت صـدمت فلا — تبغـوا لهـــا إلا النجـوم وعـــولا
والآخرون الأولـــون فقـــومـــــه — أخـذوا على العمل القليـل جـزيـلا
والمنحمنـــا [1] لا تشكـــوا إن أتى — لكم فليس مجيئـــه مجهـــولا
وهـو المـوكـل آخرا بـــالكرم لا — يختـــار مـــا لله عنـــه وكيـلا
وهـو الـذى من بعـد يحيى جـاءهم — إذ كـــان يحيى للمسيـح رسـولا
وسـل الـزبـور فـإن فيـه الآن من — فصـل الخطـاب عن النبى فصـولا
فهـو الـــذى نعت الـــزبـور مقلـدا — ذا شفرتين من السيـــوف صقيـــلا
قرنت شريعتـــه ببـــأس يمينـــه — فـــأراك أخـــذ الكـــافرين وبيـلا
فـاضت على شفتيـه رحمـة ربـه — فـاستشف من تلـك الشفـاه عليـلا
ولغـــالب من حمـــده وبهـــائـــه — مـلأ الأعـــادى ذلـــة وخمـولا
فى أمـــة خصت بكـل كرامـــة — وتفيـــأت ظـل الصـلاح ظليـلا
وعلى مضـــاجعهم وكـل ثنيـــة — كــــل يسرّ ويعلن التهليـــــلا
رهبـان ليـل أسـد حرب لم تلـج — إلا القنـــا يـوم الكريهـــة غيـلا
كم غـادروا الملـك الجليـل مقيـدا — والقرم من أشرافهم مغلـــــــولا

---

(١) من أسماء النبى محمد الواردة فى الإنجيل .

والله منتقم بهم من كـــــل من يبغى على الحـق المبين عـــدولا
أعجبت من ملـــك رأيت مقيـــدا وشريف قـوم عنـــدهم مغلـــولا
خضعت ملوك الأرض طـائعة لـه وغـــدا بـــه قربـــانهم مقبـولا
مـــا زال بـــالمستضعفين مـؤازرا ولمعتفيـــه وذى الصـلاح وصـولا
لم يـدعـــه ذو حـــاجـــة وضرورة إلا ونـــال بجـوده المـــأمـــولا
ذاك الـذى لم يـدعــه ذو فـاقـة إلا وكـــان لــه الـزمـــان منيـلا
تبقى الصـلاة عليــه دائمـــة فخـذ وصف النبى من الـزبـور مقـولا
وكتـــاب شعيـــا مخبر عن ربـــه فـــاسمعـــه يفرح قلبـــك المتبـولا
عبدى الـذى سرت بــه نفسى ومن وحيى عليـــه منـزل تنـــزيـــلا
لم أعـــط مـــا أعطيتــه أحـــدا من الفضـل العظيم وحسبــه تخـويـلا
يـأتى فيظهر فى الورى عدلى ولم يـك بـالهوى فى حكمـه ليميـلا
إن غض من بصر ومن صـوت فمـا غض التقى والحلم منـــــه كليـــلا
فتـح العيـون العـور لكن العـــدا عن فضلــه صرفـوا عيـونـا حـولا
أحيـا القلوب الغلف أسمع كـل ذى صمم وكم داء أزال دخيــــــــلا
يوصى إلى الأمم الوصـايا مثـل مـا يـــوصى الأب البر الرحيم سليـــلا
لا تضحـك الـدنيـا لــه سنـا ومـا لم يـؤت منهـــا عــــده تنـويـلا
من غير أحمـد جـاء يحمـد ربـه حمـدا جـديـدا بـالمزيـد كفيـلا
وكتـابــه مـا ليس يطفـأ نـوره والحـق منقـــاد إليـــه ذليـــلا
خصم العبـــاد بحجـــة الله التى أضحى بهـا عـذر العـدا متبـولا
فرحت بــه البريـة القصـوى ومن فيهـا وفـاضلت الـوعـور سهـولا
وزهت وضاهت حسن لبنـان الـذى لـولا كرامـــة أحمـــد مـــانيـــلا
ملئت مســاكن آل قيـــذار بــــه عـــزا وطـــابت منـــزلا ونـــزولا
جعلـوا الكرامـة لـلإلـه فـأكرمـوا والله يجـزى بـــالجميـل جميـلا
ولبيتـــه الحرم الحرام طريقــــه تتلـــو رعيـــل المخلصين رعيـــلا

لا تخطر الأرجـاس فيـه ولا يرى لخطـــاهم فى أرضــــه تنقيـــلا
كتفــاه بينهمـــا عــلامـــة ملكـــه لله ملـــــك لا يـــزال أثيـــلا
من كـان من حزب الإلـه فلم يـزل منـــه بحسن عنـــايـــة مشمــولا
هو راكب الجمل الـذى سقطت بـه أصنـام بـابـل قـد أتــاك دليـلا
والغرس فى البـدو المشـار لفضلـه إن كنت تجهلـه فسـل حـزقيـلا
غرست بـأرض البـدو منـه دوحـة لم تخش من حر الفـــلاة ذبـــولا
فـأتتـك فـاضلـة الغصون وأخرجت نـــارا لمــــا غرس اليهــود أكــولا
ذهبت بكرمـــة قـــوم ســوء ذللت بيـــد الغرور قطـوفهـــا تـــذليـــلا
وسلـوا المـلائكـة التى قـد أيـدت قيـــذار تبـــدى العلـــة المعلـولا
وسلن حبقــوق المصرح بـــاسمـــه وبـــوصفــــه وكفى بـــه مسئــولا
إذ وصـل القــول الصريـــح بــذكره للســـامعين فـــأحسن التـــوصيـــلا
فالأرض من تحميد أحمـد أصبحت وبنـــوره عرضــــا تضوء وطـــولا
رويت سهــــام محمـــــد بقسيـــه وغـــدا بهـــا من نـــاضلت منضـولا
واسمـع برؤيــــا بختنصر والتمس من دانيــــال لهـــا إذن تــــأويـــلا
وسلـوه كم تمتـد دعـوة بــاطـــل لتـــزيـــح علـة مبطـــل وتـــزيـــلا
وارم العـــدا ببشـــائر عن أرميـــا نقلت وكـــان حـــديثـــه المعقـــولا
إذ قـــال قـــد قـــدستـــه وعصمتـــه وجعلت لـــلأجنـــاس منـــه رســـولا
وجعلت تقـــديسى قبيـــل وجـــوده وعـــــدا على كبعثـــــه مسئــــولا
وحـــديث مكـــة قـــد رواه مطـولا شعيـــا فخـــذه وجـــانب التطـويـــلا
إذ راح بـــالقـــول الصريـــح مبشرا بـــالنســـل منهـــا عـــاقرا معضـــولا
وتشرفت بـــاسم جـــديـــد فـــادعهـــا حرم الإلــــه بلغت منــــه السـولا
فتنبهت بعــــد الخمـــول وكللت أبـــوابهــــا وسقـــوفهـــــا تكليـــلا
ونـــــأت عن الظلم التى لا يبتغى لخضـــابـــه شيب الـــزمـــان نصــولا
حرم على حمـــل الســـلاح محرم فكـــأنمـــا يسقى السيـــوف فلـــولا

وتخـال من تحريم حرمتـه العـدا عزلا وقـد حملوا السلاح وميـلا
لم يتخـــذ بيت ســواه قبلـــة فـازدد بـذاك لمـا أقـول قبـولا
وبنـو نبـايت لم تـزل خـدامهـا لا تبتغى عنهـا لهم تحـويـلا
جمعت بهـا أغنـام قيـدار التى قـد كـان منهـا ذبـح إسماعيلا
فنمت وآمن خـوفهـا وغـدوهـا قـد بـات منهـا خـائفـا مهزولا
وكتـاب شمعـون النبى كـلامــه لكـلام مـوسى قـد أتى تـذييـلا
وجميـع كتبهم على عـلاتهـا نطقت بـذكر محمـد تعليـلا
لم يجهلـوه غير أن سيـوفـه أبقت حقـودا عنـدهم وذحـولا
إن أنكروا فضـل النبى فـإنمـا ألقـوا على ضـوء النهـار سـدولا
فـاسمع كـلامهم ولا تجعـل على مـا حرفـوا من كتبهم تعـويـلا
لـولا استحـالتهم لمـا ألفيتنى لـك بـالـدليـل على الغريم محيـلا
أو قـد جهلت من الحـديث روايـة أم قـد نسيت من الكتـاب نـزولا
فاترك جدال أخى الضلال ولا تكن بمراء من لا يهتـدى مشغـولا
مـالى أجـادل فيـه كـل أخى عمى كيمـا أقيم على النهـار دليـلا

☆ ☆ ☆

فـاعـدل إلى مـدح النبى محمـد قـولا غـدا عن غيره معـدولا
فـإذا حصلت على الهدى بكتـابـه لا تبـغ بعـد لغيره تحصيـلا
ذكر بـه ترقى إلى رتب العـلا فتخـال حـامـل آيـة محمـولا
فتلـق مـا تـطـاع من أنـواره إن كـان رأيـك فى الفـلاح أصيـلا
فلـو استمـد العـالمـون سيـولـه مـدتهم القطرات منـه سيـولا
ولربمـا ألقى عليـك بيـانـه قـولا من الحـق المبين ثقيـلا
يـذر المعـارض ذا الفصـاحـة ألكنـا فى قـولـه وأخـا الحجـا مخبـولا
لا تنصبن لـه حبـال معـانـد فترى بكفـة آفـة محبـولا

إن كنت تنكر معجزات محمد — يوما فكن عما جهلت سئولا
شهدت له الرسل الكرام ألا اعجبوا — من فاضل يستشهد المفضولا
وحنين جذع النخل والعام الذى — غرس الودى به فصرن نخيلا
والوحش والشجر التى سجدت له — أغصانها وكفى بهن عدولا
والله عزز الاثنتين بثالث — منه فجردت الجريد نصولا
والجن والأملاك والسحب التى — سارت خفافا والرياح قبولا
قارنت ضوء النيرين بنوره — فرأيت ضوء النيرين ضئيلا
ونسبت فضل العالمين لفضله — فنسبت منه إلى الكثير قليلا
وأرانى الزمن الجواد بجوده — لما وزنت به الزمان بخيلا
ما زال يرقى فى مواهب ربه — وينال فضلا من لدنه جزيلا
حتى غدا أغنى الورى وأعزهم — ينقاد مفتقرا إليه ذليلا
بث الفضائل فى الوجود فمن يزد — فضلا يزده بفضله تفضيلا
كالشمس لا تغنى الكواكب جملة — فى الفضل مغناها ولا تفصيلا
سل عالم الملكوت عنه فخير ما — سأل الخبير عن الجليل جليلا
فمن المخبر عن علا من دونها — ثنت البراق وأخرت جبريلا
إذ لا العبارة تستقل بحمل ما — راح النبى له هناك حمولا
فاسمع شمائله التى ذكرى لها — قد كاد تحسبه العقول شمولا
إنى لأورد ذكره لتعطشى — فإخال أنى قد وردت النيلا
والنيل يذكرنى كريم بنانه — فأطيل من شوقى له التقبيلا
من لى بأنى من بنان محمد — باللثم نلت المنهل المعسولا
من راحة هى فى السماحة كوثر — لكن واردها يزيد غليلا
سارت بطاعتها السحاب كأنما — أمرت بما تختار ميكائيلا
وأظنه لو لم يرد إقلاعها — لأتت بسيل ما يصيب مسيلا
أو ما ترى الدين الحنيف بسيفه — جعل الطهور له دما مطلولا

والشرك رجس فى الأنام وخير ما ... سيف غدا بدم العدا مغسولا
يا رحمة للعالمين ألم تكن ... طفلا لضر العالمين مزيلا
إذ قام عمك فى الورى مستسقيا ... بك سائلا أجرى الغيوث سيولا
فسقوا بيمنك در كل سحابة ... كادت تجر على البطاح ذيولا
ورفعت عام الفيل عنهم فتنة ... ألقيت فيها التابعين الفيلا
بسحائب الطير الأبابيل التى ... جادتهم مطر الردى سجيلا
ففدوك مولودا وقيت نفوسهم ... شيبا شبابا يفعا وكهولا
حتى إذا ما قمت فيهم منذرا ... أبدوا إليك عداوة وذحولا
فكفيتهم فردا بعزم ما انثنى ... عنهم وحسن تصبر ما عيلا
ووكلت أمرك للإله ويا لها ... ثقة بنصر من اتخذت وكيلا
وطفقت يلقاك الصديق معاديا ... والسلم حربا والنصير خذولا
ودعوتهم بالبينات من الهدى ... وهززت فيهم صارما مسلولا
وأقمت بين رضا الإله وسخطهم ... زمنا تسيغ العلقم المغسولا
وأقمت لا تنفك تتلو آية ... فيهم وتحسم بالحسام أثيلا
وأقمت ذاك العضب فيهم قاضيا ... ونصبت تلك البينات عدولا
حتى قضى بالنصر دينك دينه ... وغدا لدين الكافرين مزيلا
وعنت لدعوتك الملوك ولم تزل ... برا رحيما بالضعيف وصولا
لم يخش إلا الله فى أمر ولم ... تملك طباعك عادة فتحولا
الله أعطى المصطفى خلقا على ... حب الإله وخوفه مجبولا
عم البرية عدله فصديقه ... وعدوه لا يظلمون فتيلا
وإذا أراد الله حفظ وليه ... خرج الهوى من قلبه معزولا
عرضت عليه جبال مكة عسجدا ... فأبى لعفته وكان معيلا
ركب الحمار تواضعا من بعد ما ... ركب البراق السابق الهذلولا
داع بأمر الله أسمع صوته الث ... (م) قلين حتى ظن إسرافيلا

لم يـــدعهم إلا لمـــا يحييهم … أبدا كمـا يـدعو الطبيب عليـلا

تحـدو عـزائمـه العبـاد كـأنمـا … تخـذت عـزائمـه الصعـاد سبيـلا

يهـــدى إلى دار السلام من اتقى … وغـــدا بنـور كتـــابـــه مكحـولا

ويظـل يهـدى للجحيم بسيفـــه … ممن عصى بعـــد القتيـل قتيـــلا

حتى يقـول النـاس أتعب مـالكـا … بحســـامــــه وأراح عـزرائيـــلا

فـالأرض طهرهـا بصـارمـه الـذى … جعـل الطهـور لهـا دمـا مطلـولا

أمعنفى أنى مطيـل مـــديحـــه … من عـد موج البحر عـد طـويـلا

إن أمرأ متبتـــلا بثنـــائـــه … متبتـــل لإلهـــــه تبتيـــلا

مـاذا على من مـد حبـل مـدائح … منـــه بحبـل مـودة مـوصـــولا

أتقنت من إخـلاص ودى مـدحـه … وأخـذت منـه لبـابـه المنخـولا

قيـــدتـــه بـــالنظم إلا أنـــه … سبـق الجيـاد إلى العـلا مشكـولا

وأضـــاءت الأيـــام من أنـــواره … إذ حليت غررا لـــه وحجـــولا

إنى امرؤ قلبى يحب محمـــــدا … ويلـوم فيـــه لائمـــا وعـــذولا

أأحبـــه وأمـل من ذكرى لــــه … ليس المحب لمن يحب ملــــولا

من خلقـــه القرآن جـل ثنـــاؤه … عن أن يكـون حـديثـــه مملـولا

يـا ليتنى من معشر شهدوا الـوغى … معـه زمـانـا فى الكفـاح طـويـلا

فـــأقـوم فيـــه بمقـول وبصـــارم … أبـــدا قـؤلا فى رضـــاه فعـولا

طـورا بقـافيـة يريـك ثبـاتهـا … كف الردى عن عرضـــه مشلـولا

وبضربـة يـدع المـدجج وترهـا … **شفعـا كمـا شـاء الردى مجـدولا**

وبطعنـــة جلت السنـــان فمثلت … عينـا لعينـك فى الكمى كحيـلا

فى مـوقف غش اللحـاظ فـلا يرى … لحـــظ بــــه إلا قنـــاة ميـلا

فرشفت من فيـــه زلالا بـــاردا … ولثمت خـد السيف فيـه أسيـلا

والخيـل تسبـح بـالـدمـاء وتستقى … أيـدى الكمـاة من النجيـع وحـولا

فاطرب إذا غنى الحـديـد فخير مـا … سمـع المشـوق إلى النـزال صليـلا

تـالله يثني القلب عنـه مـا ثنى خـوف المنيـة عـامرا وسلـولا
أيضن عنــه بمــالــه وبنفســه صب يرى لهمـا الفـوات حصـولا
فـلأقطعن حبـال تسـويفي التي منعت سـواى إلى حمـاه وصـولا
ولأزجرن النفس عن عـاداتهـا ولأهجرن الكـاعب العطبـولا
ولأمنعن العين فيـه منـامهـا ولأجعلن لهـا السهـاد خليـلا
ولأرمين لــه الفجــاج بضمر كـالنبـل سبقـا والقسى نحـولا
من كـل داميـة الأيـاطـل زدتهـا عنقـا إذا كلفتهـا التمهيـلا
وتمـد من طـول المسافـة جيـدهـا فكـأنمـا مـاست تميـل ذميـلا
حرف تريك الحرف من صلد الصفـا أخفـافهـا بـدمـائهـا مشكـولا
وكـأنمـا ضربت بصخر مثلـه من منسم فتكـافـأ تقتيـلا
قطعت حبـال البعـد لمـا أعملت شـوقـا لطيبـة سـاعـدا مفتـولا
حتى أضم بطيبـة الشمـل الـذى **أنضى إليهـا العرمس الشمليـلا**
وأريـح من تعب الخطـايـا ذمـة ثقلت عليهـا للـذنـوب حمـولا
ويسر بـالغفران قلب لم يـزل حينمـا بطـول إسـاءتي **مشكـولا**
وأعـود بـالفضـل العظيم منـولا وكفى بفضـل منـه لي تنـويـلا
وإذا تعسرت الأمـور فـإنني راج لهـا **بمحمـد تسهيـلا**
يـارب هبنـا للنبي وهب لنـا مـا سـولتـه نفـوسنـا تسـويـلا
واستر علينـا مـا علمت فلم يطـق منـا امرؤ لخطيئـة تخجيـلا
واعطف على البشر الضعيف إذا رأى هـول المعـاد فـأظهر التهـويـلا
يـوم جبـال الصبر فيـه من الـورى تبقى كثيبـا لا يقر مهيـلا
يـوم تضـل بـه العقـول فتشخص الـ أبصـار خـوفـا عنـده وذهـولا
ويسر فيـه المجرمـون نـدامـة حينـا وحينـا يعلنـون عـويـلا
ويظـل مرتـاد الخـلاص مقلبـا للشـافعين لحـاظـه ومجيـلا
لتنـال من ظمـا القيـامـة نفسـه ريـا ومن حر السعير مقيـلا

فـاجعـل لنـا اللهم جـاه محمـد فرطـا تبلغنـا بـه المـأمـولا
واصرف بـه عنـا عـذاب جهنم كرمـاً وكف ضرامهـا المشعـولا
واجعـل صـلاتـك ديمـة منهلـة لم تلف دون ضريحـه تهليـلا
مـا هـزت القضب النسيم ورجعت ورقـاء فى غصن الأراك هـديـلا

☆ ☆ ☆

(ب)

وقال يمدح إيدمر عز الدين ويهنئه بالانتصار على الصليبيين ، وذلك فى عام ٦٨٢ هـ .

لقـد جهلت داويـة الكفر بـأسـه وغرهم بـالمسلمين غرور
فـلا بـوركـوا من إخـوة إن أمهم وإن كثرت فيهـا البنـون نـزور
يظنـون خيـل المسلمين يصـدهـا عن العـدو فى أرض العـدو دحـور
أمـا زلـزلت بـالعـاديـات وجـاءهـا من الترك جم لا يعـد غفير
أتـوا بطمرات من الجرد قـد سرت ورجـل لهم مثـل الجراد طمـور
فلم يرقبوا من صرح هـامـان مرقبـا بهـامتـه برد السحـاب بكـور
وصب عليهم عـارض من حجـارة ونبـل وكـل بـالعـذاب مطير
وسـامـوه خسفـا من نقـوب كـأنهـا أثـاف لهـا تلـك البروج قـدور
فـذاقـوا بـه مر الحصـار فـأصبحـوا لهم ذلـك الحصن الحصين حصير
يصيحـون أعلى السـور خـوفـا كصـافن نفى عنـه نـوم المقلتين صفير
ومـاذا يرد السـور عنهم وخلفـه من الخيـل سـور والصوارم سـور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجـأ وإلا إلى ضرب الرقـاب مصير
فلمـا أحسـوا بـأس أغلب فتيـة غـدو إليهم بـالردى وبكـور

دعـوه وشمـل النصر منهم ممـزق   أمـانـا وجلبـاب الحيـاة بقير
أعـارهم افرنسيس تلـك وسيلـة   رأى مستعيرا غبهـا وسعير
فـدى نفسه بـالمـال والآل وانثنى   تطير بـه من حيث جـاء طيـور
فلا تذكروا مـا كـان بـالأمس منهم   فـذاك لأحقـاد السيـوف مثير
فلـو شـاء سلطـان البسيطـة سـاقهم   لمصر وتحت الفـارسين بعير
تبشر مصر دائمـا بقـدومهم   إذا فضلت منهم لعيره عير
تسرهم عنـد القفـول بضـاعـة   وتحفـظ منهم إخـوة وتمير
ولـو شـاء مـد النيـل سيـل دمـائهم   ورقت بحـور مـاؤه وسجـور[1]
بعيد كعيد النحر يا حسن مـا يرى   بـه من علـوج كـالعجـول جـزور
ولكنـه من حلمـه واقتـداره   عفـو عن الـذنب العظيم غفـور
ولم يبقهم إلا خميرا لمثلهـا   مليـك يحب الرأى وهـو خبير
يرى الرأى مر الراح يهـوى عتيقـه   ويكره منـه الحلـو وهـو عصير
فولـوا وسـوء الظن يلـوى وجـوههم   فتحسبهـا صـورا ومـا هى صـور
وقـد سعرت منهم حصـون أواهـل   ومـا راعهـا من قبـل ذاك سعـور
فللـه سلطـان البسيطـة إنـه   مليـك يسير النصر حيث يسير
ويغمـد فى هـام الملـوك حسـامـه   ويرهب من هـام الملـوك خفير

---

(١) كذا فى الأصل .

المصـــــادر

الكامل لابن الأثير
البداية والنهاية لابن كثير
تاريخ ابن القلانسى
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة
الفتح القسى للعماد الأصفهانى
نهاية الأرب للنويرى
صبح الأعشى للقلقشندى
الاعتبار لأسامة بن منقذ
لباب الآداب لأسامة بن منقذ
مختصر مناقب عمر بن الخطاب لأسامة بن منقذ مخطوط
مختصر مناقب عمر بن العزيز لأسامة بن منقذ مخطوط
الاجتهاد فى طلب الجهاد لابن كثير
معجم الأدباء - ياقوت
وفيات الأعيان - ابن خلكان
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية
الرسائل الكبرى لابن تيمية
هداية الحيارى من اليهود والنصارى لابن قيم الجوزية

إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية
اجتماع الجيوش الإسلامية على محاربة المعطلة والجهمية لابن قيم الجوزية
تفسير ابن منير (انظر هامش تفسير الكشاف للزمخشرى)
كتاب الأنس الجليل فى زيادة القدس والخليل - مخطوط
رحلة عبد اللطيف البغدادى إلى مصر
فضائل القرآن لابن كثير
رحلة ابن جبير
النكت العصرية لعمارة اليمنى
الفاشوش فى حكم قراقوش للسيوطى - مخطوط
الترغيب والترهيب للمنذرى
ميزان الاعتدال للذهبى
الأضواء البهجة فى إبراز دقائق المنفرجة
تقويم النديم لصدر الدين الدمشقى - مخطوط
مثير الغرام إلى سكنى القدس والشام - مخطوط
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لأبى الفضائل عبد الرحمن - مخطوط
ديوان البوصيرى - مخطوط
ديوان أسامة بن منقذ - مخطوط
ديوان ابن القيسرانى - مخطوط
ديوان ابن عنين
ديوان ابن الساعاتى
ديوان الخياط الدمشقى

ديوان ابن سناء الملك

ديوان ابن نباتة المصرى

ديوان ابن مطروح

ديوان البهاء زهير

ديوان ابن الوردى

خريدة القصر للأصفهانى

محاورة بين السيف والقلم لابن نباته

إصلاح الخصمين أو محاورة بين السيف والقلم لابن الوردى

أهنى المنائح فى أسنى المدائح للشهاب محمود

تائية السبكى

الآداب النافعة للأفضلى

رحلة أبى الحسن الهروى الموصلى إلى الشام ومصر

رسائل القاضى الفاضل جمع ابن نباته - تصوير

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

منازل الأحباب ومنازة الألباب للشهاب محمود

الفوائد الجلية - مجموعة رسائل وخطب للملك الناصر صلاح الدين بن داود - تصوير

حسن التوسل إلى صناعة الترسل للشهاب محمود

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضى ابن شداد

الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم (القاضى الفاضل) جمع محيى الدين ابن عبد الظاهر

إحياء علوم الدين للغزالى

تاريخ الحرب المقدسة - تعريب مكسيموس مظلوم

المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية - جمع اسماعيل نبهان
فصوص الفصول لابن سناء الملك - مخطوط
القصيدة الكافية الشافية لابن قيم الجوزية

☆ ☆ ☆

وربما كانت هناك مراجع أخرى فاتنا ذكرها هنا وأشرنا إليها فى ثنايا الكتاب .

فهــــــرس

الصفحة

الباب الأول

الحروب الصليبية (٤٩٠ – ٦٩٠)

الفصـــل الأول

الفصـــل الثانى

الحالة الاجتماعية التى ترتبت على الحروب الصليبية

الباب الثانى

أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى

الفصـــل الأول

أثر الحروب الصليبية فى النثر

الفصـــل الثانى

أشهر الكتاب

الباب الثالث

الفصـــل الأول

الفصـــل الثاني


International Press
• جبال الشاهد — مدينة الصحفيين ت ٨١٤٢٥٩

يطلب في مصر والشرق العربي من
دار الفرجاني - ص.ب (٢٣٨٢) مصر الجديدة - القاهرة